
FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
ماجدا سابو
الباب
رواية
ترجمة أسماء المطيري
أثر

الباب

رواية

ماجدا سابو

ترجمة: أسماء المطيري



الباب

الباب / رواية
ماجدا سابو
ترجمة أسماء المطيري
الطبعة الأولى 1439 / 2018
ردمك 978-1-947836-08-2



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

الباب

نادرًا ما أحلم. وحين أحلم، أستيقظ فزعة يتصبب مني العرق. أعاود الاستلقاء على أمل أن يخبو الذعر الذي حل بقلبي، وأتمكن من فهم القوة المربكة للعنة الليل هذه. في سنوات عمري الأولى، لم أكن أحلم، ولم تزرني الكوابيس قط. ولكن بعد أن تقدمت في العمر، أصبحتْ ترميني في وجه الأحداث المروعة التي جرت في ماضيّ دونما راحة. ليس هذا وحسب، بل منحت هذه الأحداث حضورًا أكبر، يفوق ما قد عشته وحشية، ذلك أنها ظلت حبيسة داخلي مكتظة بها. الحقيقة هي أن ما عشته يشابه هذا الذي أحلم به ويركلني خارج النوم وأنا أصرخ.

هو حلم واحد يتكرر، بكل تفاصيله دونما تغيير. رؤيا واحدة ما تنفك تزورني. في هذه الرؤيا الثابتة، أجدني أقف في مدخل بيتنا عند بداية الدرج، قبالة زجاج نافذة الباب الخارجي الذي لا يمكن أن ينكسر بإطاره الحديدي. أحاول جاهدة فتح قفل الباب. في الخارج، أرى سيارة إسعاف. من خلال الزجاج الغائم، يمكنني أن أتبين أجساد المسعفين، أجساد بأحجام غير معقولة، بوجوه منتفخة تحيط بها هالة تشبه هالة البدر. أتمكن من إدارة مفتاح القفل، ولكن لا جدوى من ذلك؛ لا يمكن فتح الباب. يجب أن أُدخل المسعفين، وإلاّ سيكون قد فات الأوان على إنقاذ مريضي. يرفض القفل أن يتزحزح من الباب. يقف الباب صلبًا في وجهي، كما لو أنه قد إندمج بإطاره الحديدي. أصرخ طلبا للنجدة، ولكن لا أحد من قاطني عمارتنا ذات الثلاثة

طوابق يجيبني. لا يستطيعون أن يجيبوني؛ أدرك فجأة أنني أصرخ فراغًا كما لو كنت سمكة. يحط الكابوس في أعماق رعب أكبر حين لا أصبح عاجزة عن فتح الباب وحسب، بل عن الكلام أيضًا.

في هذه اللحظة، يوقظني صراخي. أضيء مصابيح الغرفة وأنا أحاول السيطرة على رئتيّ وفمي المفتوح بحثًا عن الهواء كما أفعل بعد كل مرة يزرروني فيها هذا الكابوس. يحيط بي أثاث غرفة نومنا الذي عهدته، واللوحة التي تحمل عائلتي فوق السرير، بياقاتهم المنشّاة ومعاطفهم المجدولة، والمرسومة على الطراز الباروكي والبيدرميري الهنغاري. أسلافي الذين يرون كل شيء. هم وحدهم من يعرف كم مرة ركضت خلال الليل لأفتح الباب للمسعفين. هم وحدهم من يعلم كم مرة وقفت هناك، وسكينة الشوارع في الفجر قد بدأت شيئًا فشيئًا تستسلم لحفيف الشجر ومواء القطط التي تجوب بحثاً عن طعام وتدخل من الباب المفتوح، أقف وأنا أتخيل ما يمكن أن يحدث لو فشلت فعلًا في فتح الباب، لو غلبني قفله.

يعلم أجدادي عن كل شيء، حتى ذلك الذي أحاول ما حييت نسيانه. لم يكن حلمًا. مرة واحدة فقط.. مرة واحدة في حياتي، لا وأنا واقعة تحت تأثير فقر الدم الدماغي في نومي، وقف باب في وجهي. ذلك الباب فُتح. فتحته امرأة دافعت عن عزلتها وبؤسها العاجز بكل ضراوة. كانت ستبقيه مقفلًا، حتى لو إشتعل السقف فوق رأسها وتفرقع. وحدي ملكت القدرة على دفعها لفتح ذلك القفل. بإدارتها القفل، منحتني ثقة لم تمنحها الرب. شعرت في تلك اللحظة المصيرية بالإلهية، بحكمة وعلم وخير. ولكن كنا مخطئتين؛ هي بمنحها الثقة، وأنا بإحساني الظن بنفسي.

كل هذا لا يهم الآن. ما حدث لا يمكن إصلاحه. دعهم يدخلوا أحلامي. دع آلهة الانتقام يدخلن بأحذيتهن التي تصل منتصف أقدامهن، ووجوههن

بأقنعتها الحزينة وخوذهن، ليقفن كجوقة، بسيوفهن ذوات الحدين حول سريري. في كل ليلة، أطفئ المصابيح وأنتظرهن. أنتظر جرس هذا الرعب الذي لا أعرف ما أسميه ليرنّ في ساحات نومي، ويقودني إلى الباب الحلم الذي لا يفتح أبدًا.

في ديني، لا مكان للاعترافات الشخصية التي تجعلنا نقر بأننا مذنبين بلسان قسيس ما، وأننا نستحق اللعن لخرقنا الوصايا العشر، ومن ثم نُمنح الغفران دونما حاجة لتفسير ما فعلنا بالتفصيل.

التفسير سأقدمه .. والتفاصيل سأحكيها.

لم أكتب هذا الكتاب للرب الذي يعلم ما أكون، ولا لأشباح أسلافي الذين رأوا واقعي وأحلامي. أكتب هذا الكتاب للآخرين. إلى يومي هذا، عشت حياتي بشجاعة، وأتوق لأن أموت بشجاعة وصدق. وفي سبيل نيل مرادي، لا بد أن أبوح.

لقد قتلتُ إيمرنس.

رغبتي في أن أنقذها لا أن أدمرها لا تغير من حقيقة الأمر شيئًا.

الاتفاق

عندما التقينا للمرة الأولى، داهمتني رغبة كبيرة في تأمل وجهها، ولكنها لم تمنحني الفرصة. ضايقني ذلك. كانت تمثالًا ثابتًا وهي تقف قبالتي. لم تبدو صارمة، بل مهزومة بعض الشيء، يخبئ غطاء رأسها جبينها. لم أعلم حينها أن المرة الوحيدة التي سأراها دون غطاء رأس ستكون وهي على فراش الموت. حتى ذلك الوقت، لم تخلعه أبدًا، كما لو كانت كاثوليكية متدينة أو يهودية في حداد. كما لو كانت عقيدتها تحرم التقرب من الرب دونما حجاب.

كان يومًا صيفيًا، وقفنا فيه سوية في الحديقة وقت الشفق. بدت والورود حولها شاذة عن اللحن. بوسعنا غريزيًا أن نحدد أي زهرة قد يكون الشخص لو وُلد نبتة لا إنسانًا. لم تكن إيمرنس لتكون وردة أبدًا، لا حين تفقد الوردة براءتها ويتكشف لونها القرمزي الجريء. شعرت بذلك فور رؤيتي لها، رغم أنني كنت أجهلها تمامًا حينها، ولا ما قد تنقلب إليه.

كان غطاء رأسها يلقي بظلاله على عينيها، فلم أكتشف زرقتهما إلا بعد حين. وددت لو أعرف لون شعرها، ولكنها أخفته خلف الغطاء الذي تمسكت به طالما ظل يتماشى مع سريرتها.

خلال الأمسية الأولى تلك، شهدنا بعض اللحظات المهمة. قررنا ما إذا كان في وسعنا العيش والعمل سوية. لم يمضي على انتقالنا أنا وزوجي إلى البيت الجديد سوى بضعة أسابيع. كان بيتنا هذا يفوق شقتنا السابقة ذات

الغرفة الواحدة مساحة. كنت في تلك الشقة قادرة على القيام بكل المهام المنزلية اللازمة، خاصة وأنني كنت ممنوعة لأسباب سياسية من ممارسة الكتابة لمدة عشر سنوات. ولكنني في المنزل الجديد، بدأت أعود إلى الساحة مجددًا، أصبحت كاتبة بدوام كامل وفرص متزايدة ومهام لا حصر لها تقيدني إلى منضدتي أو تسرقني بعيدًا عن المنزل. هكذا وجدت نفسي قبالة هذه العجوز الصامتة في حديقتها، مدركة أنني لن أتمكن من نشر أي عمل كنت قد كتبته أو حتى إيجاد صوت لعمل جديد، إذا ما توليت مهام المنزل بنفسي.

بدأت أبحث عن خادمة منزلية منذ اللحظة التي انتهينا فيها من نقل مجموعة كتبنا الضخمة، وأثاثنا القديم المتهالك إلى المنزل. ألحيت على جميع من أعرفه من الجيران بهذا الشأن، حتى أنقذتني زميلة دراسة سابقة لي وحلت مشكلتي. أخبرتنا عن امرأة عجوز كانت قد عملت لدى أخ لها لسنوات طويلة، و بحماس، أوصتنا بالتحدث إليها. ستكون هذه العجوز أفضل من شابة قد تشعل البيت بسبب سيجارة ما أو تسرق ناهيك عن مشاكل الحب والغرام. ليس هذا وحسب، بل قد تحضر لنا هذه العجوز أشياء إذا ما رقنا لها، فهي بطبيعتها تحب أن تعطي وتقدم الهدايا باستمرار. لم تتزوج قط ولم تنجب، ولكن لها ابن أخ يزورها دائما وشرطي أيضًا. كل من في الجوار يحبها. تحدثت عنها زميلتي بنبرة حب واحترام، وأضافت أن إيمرنس متعهدة إحدى المنازل في الجوار، أي أنها شخص ذو صلاحيات. وأخيرًا تمنت أن توافق العجوز على العمل لدينا، لأنه وبكل صراحة لن يغريها مال الدنيا بالعمل لدينا إذا لم تشعر بارتياح لنا.

لم تكن البداية بيننا تدعو إلى التفاؤل. كانت إيمرنس فظة بعض الشيء حين طلبت منها أن نلتقي للحديث. بدأت أبحث عنها في فناء الفيلا المسؤولة عنها. كانت الفيلا قريبة منا. قريبة جدًا إلى الحد الذي يمكنني معه

رؤية المكان الذي تقطن فيها من شرفتنا. كانت تغسل جبلًا من الملابس بأكثر الطرق قدمًا، واضعة أغطية الأسرة في مِرجل يغلي ماؤه فوق نار كبيرة تحت شمس الصيف الرهيبة، وكانت تزيل الأغطية من الماء بملعقة خشبية ضخمة. كان وهج النار قد أحاط بها. كانت طويلة وعظامها عريضة، لم تكن قوتها تعكس عمرها. كانت مفتولة العضلات لا بدينة، يتوهج جسدها قوة كما لو كانت إحدى الفالكيريات. حتى غطاء رأسها كان ممتدًا كما لو كان خوذة محارب. وافقت على اللقاء، وها نحن في الحديقة سوية.

التزمتْ إيمرنس الصمت وأنا أوضح ما ستقوم به إن وافقت على العمل لدينا. كنت وأنا أتحدث أفكر في تكذيبي لكل روائي القرن التاسع عشر وهم يشبهون وجوه أبطالهم ببحيرة. شعرت كما يحدث معظم الأحيان بالخجل وأنا أشكك في الكلاسيكيات تلك. كان وجه إيمرنس كسطح الماء الساكن أول النهار أكثر من أي شيء آخر. لم أستطع أن أتبين مدى اهتمامها بعرضي، ولكنها بدت في غير حاجة للمال أو العمل. ورغم حاجتي الشديدة والبائسة لها، لم تبح لي تلك البحيرة تحت ظل غطاء رأسها بأي شيء. شعرت وأن دهرًا قد عبر وأنا أنتظر. وحين جاوبتْ أخيرًا، لم تكلف نفسها حتى بالنظر إلي. كل ما قالته هو أنه ربما يجب أن نناقش الموضوع في وقت آخر. لم يعد أحد الأماكن التي تعمل به يروق لها؛ حيث كان الزوجان يفرطان في الشرب، وابنهما الناشئ تتدهور أخلاقه. لم تكن تفكر في الاستمرار في العمل لديهم بعد الآن. قالت بأنها قد تناقش الأمر من جديد إذا ما شهد أحد بحسن أخلاقنا، وأكد لها أننا لن نشرب أو نتشاجر. وفقت لحظتها مصدومة مما سمعت. إنها المرة الأولى التي يطلب فيها أحد منا توصية. قالت: أنا لا أمحو أوساخ أي شخص.

كان صوتها نقيًا ومذهلًا ذو نبرة عالية. لابد وأنها تعيش في العاصمة منذ

زمن. ما كنت لأعرف أنها من المقاطعة نفسها التي ترعرعت فيها من لهجتها لو لم أدرس اللغويات يومًا. سألتها ما إذا كانت من مقاطعة هايدو معتقدة أن هذا سيسعدها. اكتفت بإيماءة وذكرت أنها من قرية نادوري أو بصورة أدق القرية التي تجاورها في المقاطعة وهي قرية تشابدول. غيّرت مجرى الحديث فور إجابتها هذه بطريقة بينت أنها لم تكن مهتمة في الحديث عن مواضيع كهذه. لم يكن مزاجها رائقًا لاستحضار الذكريات. استغرق الأمر مني سنوات قبل أن أدرك أنها وجدت في سؤالي هذا تطفلًا وفضولًا.

لم تدرس إيمرنس شيئًا عن الفيلسوف هيراكليتس ولكنها تفهم أكثر مني. كنت متى ما استطعت، أعود إلى قريتي لأرى ما تلاشى، وما لا يمكن إحياؤه من جديد. أعود وأبحث عن ظلال بيتنا القديم، بيتنا الذي خسرناه منذ زمن طويل. كانت مساعيّ تلك تذهب أدراج الرياح .. يا ترى أين غدا النهر الذي حمل مجراه شظايا طفولتي؟ كانت إيمرنس أذكى مني. لم تحاول فعل المستحيل كما حاولت. كانت توفر قوتها حين يكون في يدها فعلًا تغيير الماضي. لم أفهم كل هذا إلا بعد وقت طويل.

أدركت حينها وهي تذكر اسم القريتين أنهما كلمتان يحظر ذكرهما كما لو كانتا محرمتان. لا مشكلة. لنناقش مسألة العمل وحسب. بدأتُ في الحديث عن الأجر الذي ستتقاضاه مقابل الساعة، أملًا في أن يعني لها هذا الأمر شيئًا. ولكن لا! لم تود أن تستعجل في قرارها. سوف تحدد هي الأجر الذي ستتقاضاه بعد أن تكون قد كونت فكرة عن مدى قذارتنا وفوضويتنا وما سيتوجب عليها فعله لدينا. ستبدأ في السؤال عنا ليس عند أصدقائنا الذين لا شك سيكونون منحازين لنا. وحين تكون قد انتهت من ذلك ستخبرنا قرارها حتى لو كان ذلك الرفض. حدقت فيها وهي تغادر بكل هدوء. فكرت لحظتها أنها غريبة الأطوار، وأنه من الأفضل لنا جميعًا لو ترفض

عرض العمل لدينا. لم يكن الوقت قد مضى على التراجع عن عرضي حينها. كان بوسعي إخبارها أن العرض لم يعد قائمًا، ولكنني لم أفعل.

بعد انقضاء أسبوع واحد، جاءت إيمرنس. كنا قد التقينا بها خلال الأسبوع في الشارع عدة مرات، كانت تحيينا وتمضي في طريقها، وكأنها بذلك لا تريد أن تستعجل في اتخاذ قرارها أو أن تغلق باب العمل هذا دون أن تلقي نظرة. حينما أتت أخيرًا، أتت بأبهى حلة. فهمت لحظتها لغة الملابس هذه، واستدرت بحرج بسبب فستاني الصيفي القصير. كانت مرتدية فستانًا أسودا بكمين طويلين، وحذاء لامع من الجلد. بدأت حديثها وكأنه لم تفصلنا أيام عن محادثتنا الأولى. أعلنت أنها ستبدأ بالعمل لدينا في اليوم التالي، وستحدد آخر الشهر الأجر الذي ستتقاضاه. كانت تحدق في كتفي العاريين وهي تتحدث، ولكن عزائي كان أن زوجي قد نفذ بجلده من استهجانها، وهو متمسك حتى في ذلك اليوم الحار ببزته وربطة عنقه. لم تتمكن أي موجة حر من دفعه إلى التخلي عن هذه العادة التي اكتسبها في إنجلترا قبل الحرب. بدا الأمر وكأنهما يوضحان للقبيلة البدائية التي أنتمي إليها بلبسي القصير، الملابس التي يستحسن ارتداؤها، ويغرسان فيها احترام المظهر الذي يتماشى والكرامة الإنسانية. إن كان هناك أحد في هذا العالم قد تعامل مع إيمرنس وفقًا لقيمه وشخصيته، فإنه لا شك زوجي. ولهذا السبب طبعًا، مضت سنوات طويلة قبل أن يتآلفا.

مدت العجوز يدها لتصافحنا، و لم تمسني بعدها طالما أمكنها تحاشي ذلك، وإن حدث ومددت لها يدي فإنها تلمسها بخفة كما لو كانت تبعد ذبابة. لا يمكن القول بأنها أصبحت خادمة لنا ذلك المساء، سيكون هذا تافهًا وغير لائق. كان ما فعلته حينها هو أنها جنّدت نفسها لخدمتنا. حين همت بالمغادرة، قالت لزوجي: عمت مساء يا صاحب السعادة. اتسعت عيناه وهو يراقبها

تمضي في طريقها. آخر رجل يمكن أن يدعى بكلمة كهذه في العالم كله هو زوجي، ولكن أصبح هذا ما تناديه به حتى يوم موتها. استغرق اللقب منه وقتًا حتى اعتاد عليه.

لم يكن هناك عقد رسمي يملي عدد ساعات عمل إيمرنس لدينا في اليوم الواحد، ولا متى يتوجب عليها أن تأتي. كان من الطبيعي أن يمر يوم دون أن نراها. ولكن فجأة وعند الحادية عشر مساء تظهر في المطبخ أو حجرة المؤن لا الغرف الآخرى، وتبدأ في التنظيف والدعك حتى حلول الفجر. نعجز في بعض الأحيان عن الاستحمام ليوم ونصف لأنها نقعت سجادا في حوض الاستحمام. ساعات عملها الغريبة تثمر عن إنجازات مذهلة. كانت العجوز تعمل كآلة. ترفع الأثاث دونما مشقة أو اهتمام بسلامتها. كان هناك أمر خارق ومثير للقلق حول قوة جسدها هذه وطاقتها في العمل، خاصة وأنها لم تكن بحاجة إلى تحمل كل هذا. لا شك في أنه كان متعتها. أحبت عملها جدًا، وتاهت حين أصبح لديها وقت فراغ. كانت تؤدي كل شيء حد الكمال، وتتنقل في الشقة دونما صوت. لم يكن هذا بسبب أنها ألفت المكان أكثر من اللازم أو لرغبتها في التطفل علينا. كل ما في الأمر هو أنها كانت تتحاشى المحادثات التي لا معنى لها معنا. كانت طلباتها أكثر بكثير مما توقعت، ولكنها كانت تقدم الكثير في نفس الوقت. إذا قلت لها بأنه سيكون لدي ضيوف الليلة أو حضر أحدهم دون سابق إنذار، تسألني ما إذا كنت في حاجة للمساعدة. ولكنني كنت أرفض؛ لم أرد لأصدقائي أن يكتشفوا أنني الشخص الذي لا اسم له في بيتي. كان زوجي الوحيد الذي حظي بلقب من إيمرنس، وأما أنا فلا شيء، لا السيدة أو السيدة الكاتبة. لم تكن تخاطبني بشكل مباشر حتى تمكنت من وضعي على خريطة الأشياء لديها، وكونت فكرة واضحة عني وما قد يناسبني من اسم. كانت محقة في هذا أيضًا. كل

اسم تطلقه على شخص ما دون أن تعرفه حق المعرفة سيكون لا شك خاطئًا.

كانت إيمرنس مثالية من كل النواحي، مثالية حد الهوس أحيانًا. كانت تؤكد باستمرار عدم حاجتها لكلمات الامتنان الخجولة مني. لم يكن هناك داع للثناء والشكر، فهي تدرك تمامًا إنجازاتها. اعتادت أن ترتدي ملابس رمادية، وتحتفظ بالفساتين السوداء للعطل والمناسبات المميزة. كانت ترتدي مئزرًا يحمي ملابسها من الأوساخ، وتبدله كل يوم. كانت تمسك المناديل الورقية بازدراء، مفضلة محارم الكتان البيضاء المنشاة. ارتحت وأنا أعرف أن لديها نقاط ضعف مثلنا. قد تظل صامتة مثلًا نصف اليوم، تبقى صامتة بغض النظر عن أهمية ما أسألها عنه. كما كان من السهل إدراك خوفها من العواصف. حال اقتراب الرعد والبرق، تترك كل شيء وتهرع مختبئة في بيتها دونما توضيح أو إنذار. قلت لزوجي بأنها امرأة عجوز وجميعهم لا شك لديهم علة نفسية ما. هز رأسه وقال بأن هلعها هذا لا بد أن يكون بسبب أمر ما، ولكن لا شأن لنا فهي لم تخبرنا قط عن أي أمر مهم حولها. هذا صحيح تماما. لم تخبرنا قط بأي شيء مثير عنها. لم تكن إيمرنس تحب التحدث.

***

كان قد مر على عملها لدينا عامًا كاملًا حين اضطررتُ أن أطلب منها استلام طرد لي سيصل في الظهيرة. كان زوجي قد خرج للعمل، وكان ذلك اليوم هو اليوم الوحيد الذي يمكن لطبيب الأسنان فيه استقبالي. علّقت ملاحظة على باب الشقة لساعي البريد موضحة فيها اسم الشخص الذي يفترض أن يذهب إليه في حال غيابنا وعنوانه. ذهبت بعد ذلك مسرعة إلى بيت إيمرنس الصغير. كنت قد نسيت أن أخبرها بكل هذا عندما كانت ترتب شقتنا. للتو أنهت عملها لدينا، ولا بد أنها في منزلها الآن. قرعت بابها ولكن ما من مجيب رغم الأصوات الصادرة من الداخل. لم يكن الأمر غريبًا

حين لم تفتح لي الباب. لم ير أحد قط باب بيتها مشرعًا. وحتى لو توسل إليها أحد كي تجيب، كانت تخرج ومن ثم تغلق أقفال الأبواب جميعها مجددًا. كان الجيران قد اعتادوا فعلها هذا.

طلبت منها أن تستعجل في الخروج. كنت في عجلة من أمري وأردتها أن تهتم بأمر الطرد. استمر الصمت جوابها على كل كلماتي إلى أن هززت مقبض الباب. اندفعتْ كما لو كانت تنوي لكمي. خرجتْ وأغلقتْ الباب خلفها بشدة، وصرخت علي كي لا أضايقها مجددًا خارج ساعات العمل؛ ذلك أنني لا أدفع أي أجر مقابل هذا الوقت. تجمدتُ في مكاني ووجهي قد احمرّ من المهانة الذي شعرت بها. كانت نوبة غضب غير اعتيادية، وغير مبررة على الإطلاق. حتى لو شعرتْ بأنني أهنتها وأنا استدعيها من محيطها الخاص، كان في وسعها أن توضح لي الأمر بهدوء. تمتمتُ لها بما جئت من أجله، ولكنها لم ترد علي ووقفت تحملق فيّ كما لو كنت قد غرزت سكينًا في يدها. ودّعتها بلباقة وعدت إلى بيتي وهاتفت الطبيب لألغي موعدي. كان زوجي قد غادر ولم يبق سواي في البيت لأنتظر الطرد. لم يكن مزاجي رائقًا للقراءة. ظللت أضيّع الوقت وأنا أجول الغرف. تساءلت كثيرًا ما الذي فعلته حتى أستحق هذا الرفض المؤلم منها والإهانة المتعمدة. بغض النظر عن هذا، ما قامت به العجوز غير معتاد منها أبدًا. عادة ما تكون رسمية للغاية إلى حد يكاد يكون محرجًا.

قضيت معظم ذلك اليوم وحيدة، ولكن القشة التي قصمت ظهر يومي هي تخلّف ساعي البريد؛ انتظرت دون جدوى. حتى زوجي لم يعد في الوقت المعتاد، بل جلس مع طلابه بعد أن انتهى الامتحان. كنت أقلب صفحات كتاب حين سمعت قفل الباب. لم تصلني التحايا ممن دخل فعلمت بأنه لم يكن زوجي. كانت إيمرنس .. آخر وجه أتمنى رؤيته في ذلك اليوم الأسود.

اعتقدت بأنها ستكون قد هدأت، وستأتي لتعتذر مني، ولكنها لم تظهر أبدًا. لم تنطق أي كلمة. أستطيع أن أسمعها وهي تفعل شيئًا ما في المطبخ. خرجتْ بعد وقت قصير وأغلقت الباب خلفها بقوة.

حين عاد زوجي، أسرعتُ إلى المطبخ لأحضّر وجبة عشاءنا المعتاد، كأسين من اللبن الرائب. تفاجأت بطبق يحمل قطعة دجاجة مقطعة بسكين جراح ماهر لا شخص عادي. شكرتُ إيمرنس في اليوم التالي على طبق الصلح هذا ومددت لها الصحن نظيفًا. لم يكن هناك أيّ لا شكر على واجب، بل أنكرت قيامها بالأمر برمته، ورفضت أخذ الصحن مني. لا زلت أملكه حتى الآن. حين هاتفت مكتب البريد بعد أيام عديدة لأستفسر عن الطرد، اكتشفت أن انتظاري ذلك اليوم لم يكن ضروريًا. كان الطرد موجودًا في غرفة المؤن طوال هذا الوقت. كانت إيمرنس قد أحضرته مع الدجاجة. وقفتْ أمام باب شقتي وانتظرتْ ساعي البريد وأخذت منه الطرد، ووضعته هناك وغادرت دون أن تخبرني.

كان ذلك اليوم حدثًا كبيرًا في حياتنا. لزمن طويل بعده، ظننتُ بأنها مجنونة بعض الشيء، وأنه سيتوجب علينا أن نتقبل تصرفاتها غير الاعتيادية. رجحت العديد من الأمور كفة هذا الاعتقاد لدي، خاصة تلك التفاصيل التي أخبرني بها عامل الإصلاحات الذي سكن مع إيمرنس في نفس الأرجاء ويكن له الجميع احترامًا كبيرًا. كان قد شغل وقت فراغه بالقيام بأعمال غريبة وتحصيل الأموال. أخبرني بأنه طوال سنوات عيشه هنا، لم يتجاوز شخص واحد قط شرفة بيت إيمرنس الأمامية. لم يكن ضيوفها يدعون للداخل على حد قوله، وكانت تفقد أعصابها إذا أتى أحدهم دون دعوة ونادها. كانت تبقي قطها في الداخل دائمًا. كان بالإمكان سماعه يموء. كانت إيمرنس قد أغلقت جميع النوافذ بدرفٍ ولم تفتحها قط. ماذا تراها خبأت إلى جانب

قطها؟ حتى لو كان لديها قطع ثمينة، قفل جميع المنافذ هكذا لا شك فكرة سيئة. لا شك في أن أحدهم سيظن أنها تخبئ شيئًا ثمينا، وقد يؤدي هذا إلى مهاجمتها. يندر أن تخرج إيمرنس من محيطنا إلا إذا وقعت جنازة شخص تعرفه. كانت تمشي مع الناس إلى آخر شارع في الحي، ومن ثم تهرع عائدة إلى بيتها، وكأن الخطر يحدق بها من كل اتجاه. لذا لم يكن هناك داع للشعور بالإهانة إن لم تسمح لي بالدخول. حتى ابن أخيها يوجي وحضرة المقدم، كان محرم عليهما الدخول. كانت تستضيفهما في الشرفة الأمامية صيفًا وشتاءً، وقد تقبلا الموضوع منذ زمن طويل برحابة صدر وتمازحا حوله.

أثار كل هذا الذي عرفته عنها قلقي، وزاد من ضيقي. كيف لأحد أن يعيش منغلقًا هكذا؟ ولم لا تدع قطها يخرج ويلعب في حديقتها الصغيرة المسورة؟ لا بد وأنها مجنونة بعض الشيء. ظللت أحمل هذه الفكرة حتى أخبرتني أرملة فني المختبرات وأحد المعجبين الأوفياء بإيمرنس عن قصة ما من قصصها. أخبرتني الأرملة أن قط إيمرنس الأول والصياد الماهر كان قد انقض على قطيع حمام لمربي طيور انتقل إلى المنطقة خلال الحرب. توصل هذا الرجل إلى حل متطرف. لم يضع وقته ويقترح على إيمرنس إبقاء قطها الوحش في الداخل بعد أن وضحت له أن القط ليس بأستاذ جامعي لديه عقل يفكر به، وأنه للأسف يحب الصيد بطبيعته رغم أنها تطعمه جيدًا. كل ما فعله هو أنه ترصد للقط البارع وحين ألقى القبض عليه، شنقه على مقبض باب إيمرنس الأمامي. حين عادت العجوز إلى منزلها، وقفت تحت سقف شرفتها، والرجل يلقي عليها محاضرة قائلًا أنه اضطر إلى فعل ذلك ليدافع عن مصدر رزق عائلته الوحيد بما اختاره من وسيلة.

لم تنبس ببنت شفة. أنزلت إيمرنس قطها، ونزعت السلك الحديدي عن رقبته، نزعت الوسيلة التي اختارها منفذ الإعدام بدلًا من الحبل التقليدي.

كان منظر القط القتيل برقبته المفتوحة فظيعًا. دفنته في حديقتها حيث دفنت السيد سلاوكا؛ وقادت هذه الحادثة إلى استخراج جثة السيد مما تسبب في التشهير بها أكثر، وذلك بعد أن هاتف مربي الحمامات الشرطة. ولكن تم حل الموضوع بسرعة لحسن الحظ.

لم يفلح هذا في جلب السعادة لمربي الحمام. لم يتمكن قط من استفزازها. كانت تستعين بوسيط بينهما إذا ما تعلق الأمر بإجراءات رسمية تتعلق بمسؤولياتها في الحي. هذا الوسيط كان عامل الإصلاحات. ولكن رغم كل هذا، كان هناك رابط أسود بين الحيوانات حولهما. واحدة بعد الآخرى، كانت حماماته تموت. لذا عادت الشرطة من جديد. كان حضرة المقدم حينها ملازم ثانٍ. اتهم مربي الحمام إيمرنس بتسميم حماماته، ولكن أثبت التشريح أنهن لم يسممن. كان حكم الطبيب البيطري أنهن متن جراء فيروس غير معروف. وأضاف أن العديد من الناس يفقدون حمامهم، ولا فائدة من إزعاج الجيران والشرطة حول هذا الشأن.

في تلك الأثناء، تألب الجميع ضد قاتل القط. قام السيد برودارتش وزوجته اللذان يحظيان باحترام كبير هنا، بتقديم شكوى للمجلس البلدي موضحان فيها أن الحمام الذي لا يهدأ آناء السحر يحرمهما النوم. وقال عامل الإصلاحات أن شرفة شقته مغطاة بفضلات حماماته. وأضافت المهندسة أن الحمام يهيج الحساسية التي تعاني منها. لم يأمر المجلس البلدي الرجل بقتل حماماته، ولكنه أوضح له أن الناس منزعجة منها، ويطالبون بأن يعاقب على فعلته بالقط.

نال الرجل جزاءه أخيرًا. وُجهت له ضربة جديدة. كسابقتها، وجد قطيع حمامه الجديد قد مات بشكل غامض. ومن جديد، مضى إلى الشرطة ووجه اتهامه، ولكن لم يطلب المقدم تشريحًا هذه المرة بل وبخه على تضييع وقت

الشرطة. توجه الرجل إلى بيت إيمرنس وأساء إليها، وكخطوة ختامية، رغم عدم توفر أدلة ضده، قام بقتل قطها الجديد قبل أن ينتقل إلى إحدى الضواحي.

لم يغير انتقاله من الوضع شيئًا. ظل يزعج السلطات بوابل من الشكاوي ضد إيمرنس. تعاملت العجوز مع كل هذه الإدعاءات بكل سكينة وهدوء، بل وبالمزح أيضًا، مما جعلها محبوبة لدى الشرطة والمجلس البلدي، ولم يؤخذ أي إدعاء ضدها بعين الاعتبار. أدرك جميعهم أن شخصيتها ستستفز الناس وتجذب الدعاوي طوال الوقت مثلما تجذب التلال المغناطيسية حول العالم البرق. خصصت الشرطة إضبارة خاصة بإيمرنس. ملؤها بإدعاءات كثيرة وتجاهلوها جميعا بتلويحة يد. أصبح جميع أفراد الشرطة مع كل رسالة جديدة تصلهم، قادرين على تمييز مصطلحات مربي الحمام وإسهابه وطريقة تعبيره ذات الطابع الباروكي. أصبحوا يذهبون لزيارة إيمرنس بانتظام من أجل احتساء الشاي والثرثرة. وهو ينال ترقية بعد الأخرى، كان المقدم الذي لم يكن مقدمًا بعد يقدم إيمرنس متى ما واتت الفرصة للأفراد الذين انظموا للشرطة حديثًا. اعتادت إيمرنس أن تحضر لهم السجق والكعك المالح والفطائر المحلاة وما قد يروق للمقدم. ذكّرت الشباب الذين قدموا من الريف بقراهم وجداًتهم وعائلاتهم البعيدة. ومقابل كل هذا، لم يكونوا يذكروا لها الادعاءات ضدها بما فيها القتل وسرقة اليهود أثناء الحرب والتجسس خدمة لأمريكا ونقل رسائل سرية وادخار ثروة طائلة.

أراحني ما باحت به أديلكا عن إيمرنس، خاصة وأنني كنت قد هاتفت الشرطة لأبلغهم عن هويتي التي فقدتها. مر المقدم وأنا أقدم معلوماتي في مركز الشرطة. جلبني لأقعد في مكتبه حتى ينتهي استخراج هويتي بعد أن سمع اسمي. ظننت في بداية الأمر أن اهتمامه بي كان ينبع من معرفته بأعمالي

ولكن لم يكن هذا السبب الحقيقي. كل ما أراده هو أن يعرف حال إيمرنس وما أخبارها. كان قد سمع بأنها ما تزال تعمل لدينا، وكان قلقا على ابنة ابن أخيها التي أُدخلت إلى المشفى. لم أكن أعرف أن ابن أخيها كان له ابنة ناهيك عن معرفتي بدخولها إلى المستشفى.

أعتقد أنني كنت في بادئ الأمر أخاف من إيمرنس. ورغم أنها عملت في شقتنا لما يزيد عن العشرين عاما، سيستدعي الأمر مقاييس خارقة الدقة لتحديد عدد المرات التي سمحتْ فيها بالتواصل الفعلي بيننا خلال السنوات الخمس الأولى. أنا أحسن تكوين الصداقات بسهولة، والثرثرة مع الغرباء، ولكن إيمرنس لم تفصح إلّا عما هو ضروري. كانت تنهي مهامها بسرعة ودقة، مدركة على الدوام كم الأعمال الهائل الذي ينتظرها. لم تكن هناك ساعة خالية في يومها قط. رغم كل هذا، ورغم أنها لم تسمح لأحد بأن يقتحم جدران بيتها الأربعة، كانت الأخبار تصلها دائما. كانت شرفة بيتها الأمامية كمركز للبرقيات. كانت تعلم بكل شيء، وتصلها كل أخبار الموت والفضائح والمصائب والبشائر أيضًا.

كانت تسعد بمد يد العون للمرضى. كنت أجدها تحمل صحنًا مغطى، حين أقابلها في الشارع. كنت بارعة في تخمين ما يحمله الصحن من شكله الخارجي. كانت تطعم كل من يذكر فريق نقل الأخبار والشائعات في الأرجاء أنه مريض ويحتاج إلى وجبة جيدة. كانت تبث الثقة لأن الناس أدركوا أنهم قادرين على أن يفتحوا قلوبهم لها دون أن تزعجهم هي بالمثل. كان كل ما يتلقونه منها هو التعليقات المعروفة والحقّائق المثبتة. لم تكن السياسة تهمها، ولا الفنون أيضًا. كانت تجهل كل ما يتعلق بالرياضة. كانت على علم بمشاكل الجيران الزوجية، ولكنها لم تطلق الأحكام قط. ما كانت تستمتع به هو قراءة الطقس، خاصة وأن زيارتها للمقبرة تعتمد كليًا على خوفها من

وقوع عاصفة ما. كانت العواصف تفزعها كما ذكرتُ سابقًا. لم يكن للطقس سلطة في تحديد ما يعرّف كنشاط اجتماعي بالنسبة لها وحسب، بل تحديد ما يمكن أن تقوم به في كل ساعة من يومها خاصة في الشتاء والخريف. كان كل شيء يحدث وفقًا لما يسقط من السماء حين يحل الشتاء الثقيل. تضمنت قائمة أعمالها الطويلة إزاحة الثلج عن معظم المنازل الكبيرة في الحي. لم يكن لديها ثانية واحدة لتستمع للمذياع إلا في ساعات الليل الأخيرة، ولكنها لم تكن في حاجة إلى فعل هذا. كانت تستطيع معرفة ما سيحمله طقس يوم الغد بمراقبة النجوم ومدى سطوعها وتلاشيه كما كان يفعل أسلافها قبل أن يكون هناك نشرة خاصة بالطقس. كانت تستخدم أسماء النجوم التي أطلقها أجدادَها منذ زمن بعيد.

كانت مسؤولة عن إزاحة الثلج في إحدى عشرة بناية بأكملها. بدت مختلفة تمامًا وهي تقوم بذلك. لم تكن العجوز حسنة المظهر بحذائها الجلدي اللامع كعادتها، بل كانت تبدو كدمية بالية ترتدي حذاءًا مطاطيًا طويلًا. قد تظن بأنها في مواسم الشتاء القاسية لا تفارق الشارع ولا تعود إلى منزلها، وأنها لا ترتاح كالبشر، وهذا صحيح إلى حد ما. لم تستلق إيمرنس قط. لم يشمل أثاث منزلها سريرًا. كانت تغفو لوقتٍ قصير على أريكة صغيرة من تلك الأرائك التي تدعى بمقعد الحب. كانت تقول بأنها ستفقد قوتها إذا ما استلقت. كان الجلوس مريحا لها خاصة مع آلام ظهرها، على عكس الاستلقاء الذي يشعرها بالدوار. لا، لم تكن في حاجة إلى سرير.

لم تكن تغفو على مقعد الحب ذاك إذا ما كانت هناك عاصفة ثلجية في المدينة. وهي تكاد تنهي إزاحة الثلج عن المنزل الرابع، كان مدخل المنزل الأول قد امتلأ مجددًا بالثلج. كانت تركض من منزل إلى آخر بحذائها الطويل ومكنستها التي تفوقها حجمًا. اعتدنا غيابها في أيام كهذه، ولم أقل لها

شيئًا قط. كانت أسبابها واضحة تمامًا: كان هناك سقف يعلو رؤوسنا. كانت تنظف لدينا بشكل منتظم تقريبًا، ويمكننا أن ننتظر حتى يسمح لها وقتها بالمجيء، وتعوضنا عن كل هذا الغياب. على كل حال، لم يكن هناك ضير من الانحناء قليلًا والقيام ببعض أعمال المنزل.

حينما يكون الثلج قد انتهى من تأكيد حضوره، كانت إيمرنس تظهر من جديد في الشقة وتعيد كل شيء إلى حالته المثالية. ودون أن تنبس ببنت شفة، كانت تترك لنا الحلوى أو كعكة العسل في المطبخ. كانت هذه الهدايا تحمل الرسالة نفسها التي حملها طبق الدجاج ذاك بعد فظاظتها العجيبة معي. كان الطبق يقول لنا: أحسنتما التصرف. كما لو كنا طلاب مدرسة لا شخصان يتبعان حمية غذائية.

لا أعلم كيف تمكنت من القيام بكل هذا في حياة واحدة. بدت وكأنها لم تقعد قط. إن لم تكن تحمل مكنسة، فقد كانت تحمل زبدية لمريض ما أو تبحث عن مالك حيوان رمي في الشارع. وإن فشلت في إيجاد صاحبه، كانت تحاول أن تفرض على شخص آخر تبني الحيوان المسكين، وعادة ما تثمر مساعيها هذه. وإن فشلت، فإن الحيوان يختفي فجأة وكأنه لم يكن يدس أنفه جائعًا حول سلة القمامة.

كانت تعمل لساعات طويلة جدًا، في أماكن كثيرة وتجني مقابل ذلك مالًا كثيرا، ولكنها ترفض قطعًا الإكراميات. كنت أستطيع تفهم هذا، ولكن ما عجزت عن فهمه هو رفضها للهدايا. إيمرنس العجوز تفضل منح الآخرين لا الأخذ منهم، وحين يقوم أحدهم بإحضار مفاجأة ما لها، كانت تتجهم وتدخل في نوبة غضب كبيرة. على مر السنين، حاولت مرة بعد آخرى منحها هدايا مختلفة آملة أنها تقبلها لأنها مني، ولكنني لم أنجح في ذلك. كانت تخبرني وبكل وقاحة أنه لم يكن هناك أجر إضافي لما كانت تقوم به في بيتنا.

كان زوجي يضحك في كل مرة، ويطلب مني التوقف عن التملق ومحاولة تغيير الأمور. كان يحب طريقة هذه العجوز الشبح رغم ساعات عملها الغريبة وتجاهلها التام لما هو طبيعي، ورفضها احتساء فنجان من القهوة معنا. كانت إيمرنس الخادمة المثالية. إن كان ما قامت به لم يكن كافيًا، وإن كنت أرغب في تكوين علاقة قوية مع كل من قابلت، فهذه كانت مشكلتي لا مشكلتها. لم يكن سهلًا علي تقبل هذا. كانت كما هي مع غيرنا، مصرة على إبقاء الحدود.

إخوة في الدين

لسنين عديدة، لم نكن نعني لإيمرنس الكثير حقًا، ولكن تغير كل هذا بين ليلة وضحاها، حين مرض زوجي مرضًا هدد حياته. وبما أن العلاقة كانت بهذه الصورة، كنتُ مؤمنة تمام الإيمان أني إذا ما أطلعتها على هذه الحقيقة المرعبة بكامل تفاصيلها فإن أقصى ما قد تمليه عليها مشاعرها هو طبق المواساة الذي تقدمه لكل مريض. لذا، لم أخبرها عن أي من هذا، واصطحبت زوجي ليخضع لعملية إزالة الخراج الرئوي. لم يعلم أحد في البناية أو الحي وجهتنا. حتى زيارات الطبيب التي سبقت العملية، لم تكن إيمرنس تعلم عنها شيئًا.

حين عدت إلى المنزل أخيرًا، وجدتها على المقعد تنظف الملاعق. كانت عملية زوجي قد استغرقت ست ساعات. أي شخص جلس يحدق في الإشارة المضيئة التي تعلو باب جناح العمليات، وهو يدرك أن المريض بالداخل قد لا يعود أبدًا، سيفهم حالتي جيدا حين وطأت قدمي الشقة. بدأت إيمرنس تتحدث غاضبة كيف لم أشركها في حدث مهم كهذا في حياتي، وأنني لا أخبرها عن شيء سوى الأمور العادية التافهة. كانت تحملق بي. قالت بأنني عاملتها كغريب حين لم أخبرها بهذا الأمر الذي قد لا ينج منه زوجي. لم يكن ما تشعر به الإهانة، بل الحنق. قلت لها أنني لم أحس بأي اهتمام من جانبها بشأننا، كيف لي أن أعرف أن ما كان يحدث سيؤثر عليها. طلبت منها أن تتفضل وتدعني أنام؛ كان يوم طويلًا وعسيرًا، ولم يكن وضع

زوجي قد اتضح بعد.

غادرتْ في الحال. ظننتُ بأني أهنتها شر إهانة، وأنها لن تعود أبدًا. ولكن بعد نصف ساعة من خروجها، استفقت من حلم تافه وسيء إثر صوت خطاها في البيت. أتتني وهي تحمل قدحا ساخنًا. كان القدح تحفة فنية مبهرة: صُنع من زجاج أزرق ملكي اللون، جاءت به على طبق فضي. كان قد نقش على القدح يديّ امرأة ورجل تتعانقان. زيّنت يد المرأة بسوار، وأما يد الرجل فقد زينت بقطعة من الدنتيل. كانت يداهما تمسكان بلوح ذهبي كتب عليه باللغة الفرنسية: إلى الأبد. رفعتُ القدح إلى الأعلى كي أتأمله. كان يحمل سائلا داكن اللون تنبعث منه رائحة القرنفل. قالت لي آمرة: هيا احتسيه. ولكنني لم أرد ذلك، كل ما أردته في ذلك الوقت كان أن أنعم بالراحة والهدوء. أمرتني مرة أخرى: اشربي. كانت كمن يأمر طفلًا غرًا سيء التربية. بعد أن رأتني وقد أنزلتُ القدح رافضة أن فتح فمي، حملته ونثرت بعض النبيذ الساخن علي فصرخت. أمسكتْ بيدي وضربتْ القدح بأسناني. يجب علي أن أشربه وإلا سوف تسكبه علي. كان لذيذًا رغم حرارته. هدأتْ الأوضاع بعد عدة دقائق. لأول مرة في حياتها تجلس إيمرنس إلى جانبي على الأريكة. أخذتْ مني القدح وانتظرتني حتى أتكلم، وأفضي بما عشته خلال الساعات الست تلك، وما ينتظرني يوم الغد.

عجزتْ عن ذلك. عجزت عن وصف ما مررت به من عذاب. كما أن النبيذ الذي تجرعته دفعة واحدة بدأ يظهر أثره. أعلم أن النوم غافلني خلال هذا الوقت، لأنني استيقظت على حين غفلة لأجد أنوار البيت مضاءة كما كانت حين عدت من المشفى ولكن هذه المرة والساعة تشير إلى الثانية صباحا. كان يعلوني غطاء خفيف لا بد وأنها جلبته من على السرير. قالت لي بنبرة صوتها الاعتيادية الهادئة بأنه لا جدوى من الشعور بالضيق طوال

الليل. علي أن لا أقلق بشأنه فكل شيء سيصبح على ما يرام، ذلك لأنها لم تحس بالموت قريبًا كما يحدث عادة حين يموت أحدهم. ولم تصدر كلاب الحي أي إشارة، كما لم ينكسر أي زجاج في مطبخها أو مطبخي. قالت لي بأنه لا مشكلة في عدم تصديقي ما تقوله، وأنه لا مشكلة أيضًا إذا ما أردتُ أن ألجأ إلى الرب والكنيسة، سوف تحضر لي الكتاب المقدس بنفسها.

لم أفكر تلك اللحظة بالنبيذ الذي أحضرته لي، ولم أشعر بامتنان لسهرها جواري طوال تلك الليلة. كل ما شعرتُ به هو سخريتها هذه. هاهي من جديد، تؤلمني بكلماتها. ألا يكفيها أني أسلك طرقا طويلة كل أحد وأنا ذاهبة إلى الكنيسة، كي أتحاشى تعليقاتها الساخرة؟ كيف يمكن لي أن أوضح لها ما تعنيه الشعائر الدينية بالنسبة لي، وهي لم تظهر أدنى رغبة في الاستماع إلي. كيف ستصدقني حين أحكي لها عن الأرواح التي أشعر بها تحيط بي في مقاعد الكنيسة.. الأرواح التي تشاركني الإيمان ذاته وتصلي مثلي منذ آلاف السنين. كيف تصدق أن الساعة التي أمضيها هناك هي الساعة الوحيدة التي أشعر فيها أني أناجي والديّ الراحلين حقًا؟ لم تكن إيمرنس تفهم أيا من هذا. رفضته كله جملة وتفصيلا. كانت كقائد قبيلة بدائية رفعتْ فستان السهرة المشؤوم ذاك راية لها في وجه راية المسيح.

عارضتْ العجوز الكنيسة بتعصب معارضي القرن السادس عشر. لم ترفض رجال الدين وحسب، بل الرب وكل شيء. كان الاستثناء الوحيد لديها هو يوسف النجار[1] الذي أجلّته، ذلك أن النجارة كانت مهنة أبيها. رأيتُ مرة البيت الذي ترعرعتْ فيه إيمرنس. من خلف أسوار البيت، كانت تشع هالة من الكرامة. ذكرتني الأعمدة الراسخة للشرفة بقمتيها البارزتين

1- المترجم: يوسف النجار هو رجل يؤمن المسيحيون أنه كان خطيب مريم بنت عمران ومربي المسيح عليه السلام، ولكن لم يرد ذكر أي من هذا في القرآن.

بالمنازل الريفية المبنية على الطراز الباروكي ومعابد البوذيين في أقاصي الشرق. عكس تصميمه هذا شخصية والدها السيد جوزيف سيرداش وذوقه. كانت أشجار الجميز الضخمة حينها والتي تسميها إيمرنس بأشجار البقر قد امتدت فروعها، وكانت هناك حديقة ورد قد أزهرت وتفتحت. كان لا يزال وقت زيارتي لقريتها، البيت الأجمل.

كان عداء إيمرنس الفوليتيري لرجال الدين غير منطقي، ومضت سنوات قبل أن أفهم الدافع خلفه. ضايقني الأمر كثيرا حتى ساعدتني صديقة إيمرنس شوتو بائعة الخضار والفواكه، واتضحت لي الصورة كاملة. لم يكن هذا العداء نتيجة عيشها فترة الحصار التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ولم ينبع من وجهة نظر فلسفية من بين أنقاض العالم الذي استحال رمادا من جديد. كان نابعا من رغبة ساذجة بالانتقام جراء صندوق مساعدات صغير. كان إخوتها في الدين قد استلموا شحنة من إحدى الكنائس في اسكندنافيا. لم يكن أحد حينذاك يهتم بمعتقدات إيمرنس وما تؤمن به، ولم يروها قط تحضر قداسًا. كانت تعمل طوال الوقت تحديدا في أيام شبابها حين كانت تغسل الملابس للناس في أيام الأحد. كانت حين يذهب الآخرون للكنيسة تشعل النار وتضع المرجل وتدعك الملابس المتسخة. ولكن في يوم ما، علمت إيمرنس أن الإخوة المسيحيون في تلك البلاد قد بعثوا بالهدايا لهم. أخبرتها صديقتها بوليت فور علمها بالخبر. وحين بدأ توزيع هذه الهدايا في الكنيسة، ظهرت إيمرنس للمرة الأولى هناك بأبهى حلة وهي ترتدي فستانها الأسود، منتظرة أن يُدعى اسمها. كان الناس الذين أتوا من حيها يعرفون من هي، ولكن لم يعتقدوا بأنها أتت وكلها ثقة في نيل نصيبها من كل هذا. وأما السيدات اللاتي كن مسؤولات عن توزيع الهدايا والترجمة للوفد الذي أتى من الخارج بدون محرجات وهن ينظرن إلى إيمرنس بجسدها النحيل

ووجهها الذي خلا من أي تعبير تنتظر مع المنتظرين. حتى لو لم تحضر أيام الأحد، كانت أختهن في الدين. حين أدركن هذا، كانت كل فساتين الصوف والقطن قد وزعت على النساء الأخريات. لم يكن قد تبقى في السلة سوى بعض فساتين السهرة التي رأت إحدى السيدات الطيبات اللاتي تبرعن بهذه الأشياء أنه لا ضير من إرسالها، دون أن تفكر بمدى ملائمة هذه الفساتين لوضع الناس في تلك الفترة. لم ترغب السيدات بأن تخرج إيمرنس خالية الوفاض. كن يأملن من أن تتمكن من بيع فستان السهرة هذا لمسرح فني ما، أو أن تستبدله بما يطعمها. لم يتعمدن إهانتها أو السخرية التي شعرت بها إيمرنس بتاتا وهي تلقي بالفستان لدى قدمي قائدة المجموعة. ومنذ ذلك اليوم، قطعت على نفسها عهدا بأن لا تطأ قدمها أرض الكنيسة أبدًا، حتى لو حدث المستحيل وأصبح لديها ساعة فراغ. منذ ذلك اليوم، كان الرب والكنيسة قد ارتبطا بأولئك السيدات المتطوعات، ولم تفوت فرصة قط في السخرية من طقوس العبادة. حتى أنا، نلتُ نصيبي من كل هذا، وذلك حين تراني وأنا أستعد للخروج إلى الكنيسة يوم الأحد وفي يدي الكتاب المقدس.

عندما التقينا للمرة الأولى، دعوتها مدفوعة بحسن نيتي وجهلي بقصة فستان السهرة إلى أن ترافقني إلى الكنيسة. جاء ردها فظا. قالت بأنها ليست مثلي أو غيري من السيدات الرائعات اللاتي يذهبن إلى الكنيسة ليستعرضن بأنفسهن وفساتينهن الملونة. لم تكن لتذهب قط حتى لو لم يكن هناك مداخل تكنسها. حدقتُ فيها متعجبة؛ لأنني منذ اللحظة التي رأيتها فيها، ذكرتني بشخصية مارثا في الكتاب المقدس. مارثا التي كانت تعمل بلا توقف، وتمد يد العون للآخرين. حين علمتُ السر وراء معاداة إيمرنس للدين صعقت وطلبتُ منها توضيحا، فضحكت في وجهي. ما عهدت الضحك منها قط. لم تكن الدموع ولا الضحكات جزءا من حياتها.

قالت لي بأنها لا تحتاج قسًا أو كنيسة، ولم تساهم فيها قط. وقالت إن فظائع الحرب التي شهدتها كافية لأن تصرف النظر عن الدين وكلما يتعلق به. كانت على وفاق مع النجار يوسف وابنه اللذين عملا كغيرهما من الناس. خسر الابن حياته بسبب كذبات السياسيين آنذاك؛ منذ اللحظة التي بدأ يشكل فيها تهديدا للسادة، احتالوا عليه حتى أعدموه. كان أكثر شخص شعرت إيمرنس بالآسى من أجله هو أمه التي لا شك لم تحظ بيومٍ سعيدٍ في حياتها. الغريب في الأمر على حد قولها، أن الليلة الأولى التي حظِيت فيها هذه الأم المسكينة بنوم هانئ هي ليلة الجمعة العظيمة. حتى تلك الليلة، لم تفعل شيئًا سوى القلق بشأن ابنها.

وهي تلقي علي خطبتها العصماء هذه عن المسيح ضحية السياسة والتهم الملفقة، والذي خرج من حياة أمه العذراء المسكينة بعد كل ليالي السهر تلك والآسى كما تقول، كنتُ أنتظر صاعقة من السماء ترديها قتيلة. كانت تدرك جيدا كم ضايقني كلامها هذا، وأدرك أنا كم أسعدها هذا. رفعتُ رأسي عاليا، ومضيت في طريقي إلى الكنيسة. تبعتني بنظرة ماكرة. لأول مرة أدرك بأنها كانت غير اعتيادية. رغم عدم اهتمامها بالسياسة، استطاعت فهم بعض ما عشناه في السنوات التي تبعت الحرب. فكرتُ حينها بأنه لا بد أن نبحث عن قس يستطيع إحياء ما كانت تحمله في قلبها سابقاً. ولكنني كنت متيقنة من أنها سوف تسيء إليه وتشتمه. كانت إيمرنس لا شك مسيحية، ولكن لم يكن يوجد القس الذي يستطيع أن يقنعها بهذه الحقيقة. لم يعد للفستان أي أثر، ولكن اللمعة التي حملها بقيت حية في عقلها.

في تلك الليلة التي قضتها معي وزوجي طريح في المشفى، لم ترد فعل شيء سوى استفزازي. الغريب في الأمر أن استفزازها هذا قد هدأ من روعي. إذا كانت قد شعرت فعلًا بخطر يحدق بزوجي، لم تكن لتستفزني

هكذا. حمدًا للرب أنها كانت تستفزني. حاولتُ النهوض ولكنها منعتني من ذلك. قالت لي بأنها سوف تحكي لي قصة إذا ما توقفت عن الحركة وأغلقت جفنيّ. استسلمت لها. ظلت إيمرنس واقفة بالقرب من المدفأة. لم أكن أعلم الكثير عنها في ذلك الحين. ما كان لدي سوى معلومات بسيطة كونت بها صورة مبهمة لها. كانت صورة لا تكاد ترى.

في أكثر الليالي سريالية، حيث الموت والحياة ينتظران يدًا بيد في ذلك الفجر البارد، سعتْ إلى طرد الخوف الذي احتلني بالتحدث عن نفسها أخيرًا.

-اعتادت أمي على أن تقول لي: "أنتِ من إخوة المسيح" وذلك لأن أبي كان نجارًا وصانع خزائن. كان أخوه الذي يصغره عرابي ومسؤولاً عن مجموعة من البنائين، ولكنه مات بعد حفل تعميدي في الكنيسة وأنا صغيرة. وككل أبناء عائلة سيرداش، كان ماهرا في الأعمال الحرفية أيضًا. والدي كان واسع الإطلاع ورجلا يشهد له بحسن الخلق. وأما أمي فقد كانت كأميرات القصص الخيالية، بشعرها الذهبي الذي يسحب على الأرض خلفها، فتطأه أحيانا. أما جدي فظل فخورا جدًا بها، ورفض تزويجها فلاحا، وأبغض فكرة زواجها من الحرفي أيضًا. أرسلها إلى المدرسة، وأخذ على أبي عهدا بأن لا يدفعها إلى العمل أبدًا. حافظ أبي على وعده هذا، ولم تكن تفعل شيئًا سوى قراءة الكتب. ولكن لم يدم هذا الوضع طويلا، فقد توفي والدي حين كنت أبلغ الثالثة من عمري تقريبا. كان غضب جدي من موته وبغضه له غريبا بعض الشيء، وكأن أبي تمنى الموت كي يغيضه.

اعلان الحرب جعل حالنا أصعب مما هو عليه. لا أظن بأن أمي كانت تحب المسؤول عن العمال في ورشة عمل أبي، ولكنها عجزت عن إدارة الورشة بنفسها، لذا تزوجته. لم يكن زوج أمي يهتم لأمر الكتب، ولكن لم تكن هذه المشكلة الأساسية. كان الجيش آنذاك يستدعي كل الرجال

ويجندهم، وظل زوج أمي المسكين مرعوبا من استدعاءه. استمرت حياته مع أمي تسير على ما يرام، واحتمل وجودنا معهما. لم يكن رجلا سيئا، رغم أنه دفعني إلى ترك الدراسة، كي أطبخ للعمال؛ لم تكن أمي تجيد القيام بهذا. تضايق مدير المدرسة كثيرا من هذا القرار. كان علي أيضًا أن أهتم بأخوي التوأم الذي كان زوج أمي طيبا معهما، ولا غرابة في طيبته هذه، فقد كانا طفلين جميلين ملائكيين. صورة حية عن أمي. وأما أخي الصغير يوجي الذي رأيتِ ابنه يأتي لزيارتي، لم يكن يشبه أيا منا. لم أره كثيرا لأن جدي أخذه بعد وفاة أبي ليعيش في كنفه. قضى يوجي معظم الوقت في قرية تشابدول، لا في قرية نادوري معنا، ويعيش بقية أفراد عائلة أمي في تلك القرية حتى يومنا هذا.

افتعل مدير المدرسة ضجة كبيرة حين تركتُ الدراسة. قال لهم بأنها خسارة عظيمة وأمر مؤسف حقًا. قال له زوج أمي أن أي رجل يدس أنفه في شؤون عائلة آخرى ما هو سوى رجل يحب إثارة المتاعب، وهدد زوجي أمي المدير بأنه سيحطم رأسه إذا ما حاول إقناعي بمعارضة الأمر. قال له بأنه تزوج أرملة معها أربعة صغار، وقد يستدعى إلى الخدمة في الجيش في أي لحظة. وأضاف: عجزت المرأة عن العمل وحدها. هل تعتقد بأني سعيد بجعل هذه الفتاة تعمل أيضًا؟ ليس باليد حيلة، لا أحد يساعدني في العمل في الورشة ولا حتى المزرعة.

قال قوله هذه لمدير المدرسة، وبدأت أنا في العمل. لم يكن شريرا، أرجو أن لا تسيئي الظن فيه. كل ما في الأمر أنه كان خائفًا. لا بد وأنكِ تدركين جيدا ما يمكن أن يفعله الشخص الذي تملكه الخوف. لا أحمل الضغينة له، رغم أنه كان يضربني أحايين كثيرة عندما لم أكن أحسن العمل في البداية. كنا نملك مزرعة صغيرة، ولكن لم تعن لي الكثير حينها. كنت أخرج من المنزل

للعب لا العمل. وكان زوج أمي مضطربا طوال الوقت، يلقي بالشتائم مع تهافت رسائل استدعائه إلى الخدمة.

في إحدى الليالي، وأنا أضع أخويّ الصغيرين على فراش النوم، سمعت أمي تطلب منه أن يكف عن التحدث عن مخاوفه، ذلك أن الحديث عنها قد يجعلها واقعا. كان يثرثر كثيرا في لحظات الخوف هذه. كان أكثر ما يخافه تحقق حلمه الذي رأى فيه أنه لن يرانا أبدًا إذا ما ذهب. ولم يرنا مجددا؛ كان أول مجند يقضي نحبه من قريتنا.

لم تعرف أمي ما يتوجب عليها فعله بشأن ورشة النجارة. كان هناك حظر قائم على بيع الخشب، واختفى جميع العاملون لدينا. في بداية الأمر، ظنت بأنها تستطيع أن تقوم بكل ما هو لازم دونما حاجة إلى أي رجل. إنها ابنة مزارع، وتفهم الأرض، وستتمكن من تدبر الأمر. ولكنها أخفقت أيما إخفاق في ذلك. حاولت أن أساعدها ما استطعت؛ لم أكن فتاة غبية، ولكننا لم نكن نكسب شيئًا. وأنا لم أتجاوز التاسعة، كنت أطبخ للجميع، وأقوم على رعاية أخوي الصغيرين. أدركتُ مدى حب أمي لزوجها حين وصلنا خبر موته. كانت أمي قد بكت فقد رجلين، أبوي وزوجها الثاني، رغم أن الأخير لم يكن له ضريح تزوره. بدأتْ تشعر أن الحياة لا تطاق. لا تظني أنكم وحدكم من تملكون مشاعر كهذه.

كانت شابة هشة ومنكسرة حينها. في أحد الأيام التي كان الصغار فيها أكثر شقاوة من المعتاد، حل بي أمر ما. كنت مجرد طفلة، وقد ضربتني لأنني أمضيت وقتي ألعب، عوضا عن القيام بالأعمال التي كلفتني بها. فكرت بالهروب. يمكنني أن أذهب لأخي يوجي الذي كان يرعاه جدي خير رعاية في القرية المجاورة. صحيح أن جدي كان يطلب منه القيام ببعض المهام، ولكنها لا شك أقل من التي كنت أقوم بها حينها. قررت أن أخذ التوأم

معي أيضًا. يمكن لأمي أن تفعل ما يحلو لها وأما نحن فراحلين، قضي الأمر. فكرتُ بأنه يمكنني الذهاب إلى بيت جدي مشيا على الأقدام. كنتُ أعرف الطريق الذي يؤدي إليه؛ كانت القرية المجاورة لا آخر الدنيا.

في الصباح الباكر، مضينا في طريقنا، وأنا أحمل طفلًا ذهبي الرأس في كل يد. لم نكد نتجاوز مزرعتنا حين طلب مني التوأم الراحة وتناول بعض الطعام. طلبا شرب بعض الماء لذا انطلقت إلى بئر المزرعة بالكأس الحديدي الذي أحمله معلقا حول رقبتي طوال الوقت. سبق أن تعلمت أن الصغار دائما ما يطلبون الماء، لذا لم أخرج قط دون هذا الكأس، ولم أكن لأتركه في ذلك اليوم وأمامنا طريق طويلة. كانت البئر قريبة، لكن ليس تماما. كيف لي أن أعرف أنها لم تكن قريبة بما فيه الكفاية؟ لم أكن سوى طفلة صغيرة حينها. بمجرد وصولي إلى البئر، وقعت عاصفة دونما إنذار. لم أشهد في حياتي عاصفة تحدث بهذه السرعة. لم يحدث أن شهدنا مثلها قط في مقاطعتنا. انقلب لون السماء في لحظات معدودة. لم يكن لونها أسودا كما شهدت في عواصف مضت، بل بنفسجيا يتقد كل شبر منها، كما لو كانت النار قد اشتعلت في الأعلى. دوى الرعد كما لم يدو من قبل، وكاد الصوت أن يفجر طبلة أذنيّ. ملأتُ الكأس وهرعت عائدة إلى حيث جلس الصغيران باحثة عن شعرهما الذهبي لأنني حين نظرت باتجاه مكانهما لم أر سوى ضوء البرق وهو يضرب الشجرة التي جلسا بجانبها.

حين وصلت، كان الدخان يتصاعد كثيفًا. كانا قد لقيا حتفهما حينها، ولكنني لم أدرك ما حدث لأن ما كان مكانهما لا يشبه بشرا. هطل المطر غزيرا، والتصق بجسدي مثل العرق. تجمدتُ في مكاني إلى جانب أخي وأختي، وأنا أنظر إلى الجذعين الأسودين. كانا كحطب نار متفحم، إنما أصغر وأكثر تجعدا. وقفت كالبلهاء أتلفت هنا وهناك، أين هما الرأسان الذهبيان. لا

يمكن أن يكون هذين الشيئين الغريبين أخويّ.

هل ستفاجئين إذا ما أخبرتكِ بأن أمي ألقت بنفسها في تلك البئر؟ كان ما حدث هو كل ما احتاجته لتقوم بذلك: منظر أخوي وصراخي الهستيري. كنت أصرخ بصوت سمعه من كان في الشارع الرئيسي بعد توقف العاصفة. خرجت أمي تركض على إثر صراخي حافية القدمين في قميص نومها. هرعت إلي وضربتني. لم تكن تدرك أنني كنت قد خططت على الهرب بعيدا عن دموعها ومزاجها الحاد، بعيدا عن قلقها اللا متناهي وشكواها. لم تكن تدرك ما تفعله وهي تضربني. كانت من اليأس الذي حل بها تلك الفترة، تريد ضرب أي شيء يقف أمامها وتدميره، كما لو كانت بذلك تنتقم من الحياة نفسها. وقع نظرها على التوأم، وأدركتْ سبب صراخي وندائي لها. اتقد وجهها لثانية قبل أن تنطلق راكضة تحت المطر وشعرها الجامح يتبعها على الأرض صائحا كغراب.

رأيتها وهي تركض، ولكنني عجزت عن الحركة. وقفت هكذا إلى جانب الشجرة والجثتين. كان البرق والرعد قد عبرا. لو ركضت طلبا للنجدة حينها لربما كانت حية الآن. كان بيتنا إلى جانب الطريق، وبئر المزرعة خلف حديقة المنزل، ولكنني لم أفعل شيئًا ووقفت كما لو كنت مسحورة أعجز عن التفكير حتى. لا أظن بأن أحدا حمل مثل الحب الذي في قلبي لأخويّ. بقيت أحدق في الجذعين المحترقين، منكرةِ الأمر برمته، لا يمكن أن يكونا أخويّ الصغيرين. بقيت في مكاني، أحدق بهما وأفكر دونما تركيز فيما كانت تفعله أمي طوال هذا الوقت أسفل البئر. أين ذهبت؟ فرت المسكينة مني ومن المنظر الرهيب لأخوي، فرت من قدرها. كانت قد احتملت ما يكفي. قد تشعرين بهذا أحيانا؛ الرغبة في إنهاء كل شيء بكل بساطة.

مر وقت وأنا أنظر هنا وهناك إلى أن مشيت بكل هدوء وروية. لم يكن

هناك أحد غيرنا في المنزل، لذا وقفت إلى جانب الطريق أنتظر أي عابر. أوقفت أول شخص مر بنا وطلبت منه أن يأتي ويتحدث مع أمي لأنها في البئر منذ وقت، وأخبرته أن أخوي الصغيرين اختفيا من تحت الشجرة، ووجدت مكانهما شيئين أسودين. هرع الجار إلى أمي، وتولى ترتيب كافة الأمور بعد ذلك. أخذوني إلى مدير المدرسة لأبقى معه حتى يبلغ أحدهم جدي بما جرى. أخذني جدي ولكنه لم يرغب في أن أبقى عنده مثل أخي يوجي. وافق دونما تفكير، حين أتى بعض السادة من بودابست بحثًا عن خادمة. اصطحبوني معهم فور انتهاء مراسم الجنازة. لم أكن أعي ما يدور في تلك المراسم، باستثناء رؤيتي لأمي وأخوي في تابوتيهما المفتوحين. كنتُ ذاهلة وأنا أنظر إليهم. بدا شعر التوأم الذهبي وكأنه قد ذاب؛ لم يعل رأسهما شيء، لا بل لم يكن لأ منهما رأس. لم يبدوا طفلين أبدًا. عجزت عن البكاء عليهما أو أن أندبهما. كان الأمر أكبر من أن أستوعبه. كان كل شيء حينها أكبر من أن أستوعبه.

هل تعلمين لمَ أقوم بكل هذه الأعمال ومن أجل ماذا أجمع المال؟ من أجل مدفن واسع جداً، لا يفوقه أي مدفن آخر جمالا. كل نافذة سيغطيها زجاج ملون، وستكون هناك أرفف، يحمل كل واحد منها نعشا لي ولأمي وأبي والتوأم وابن أخي يوجي إذا ما ظل مخلصا لي. بدأت أدخر المال من أجل هذا المدفن قبل أن تقع الحرب حتى. ولكنني اضطررت حينها إلى صرفه كله من أجل أمر ما. طلبوه مني من أجل هدف سام، لذا منحته لهم ولم أفكر في الأمر طويلا. بدأت أدخر من جديد حتى سُرق كله مني. لم أيأس وعدت إلى الادخار مجددا. دائما ما يتوفر لدي المال. هناك شخص ما يبعثه إلي من خارج البلاد. منذ ذلك الحين لم أتوقف عن العمل قط. لدي الآن ما يكفي من أجل المدفن. في كل مرة أحضر فيها جنازة ما، أرى ما إذا كان هناك مدفن يشبه

الذي أنوي بناءه. ولكن لم أر قط شيئًا يشابه ما في مخيلتي. سيكون مدفني مختلفًا عنها جميعها. سوف ترين كم هي جميلة إضاءة الشمس حين تخترق الزجاج الملون وتلقي بظلالها على النعوش. سوف يتسنى لورثتي بناء مدفن لم ير مثله في البلاد. سوف ترين بنفسك.

فايولا

لطالما حرصت على أن تكون علاقاتي مع الآخرين كاملة ومثالية. أريد ممن من القريبين مني أن تكون سعادتهم ظاهرة بلقائي. لم يُجرح كبريائي بعودة الأمور في اليوم التالي إلى حالها بيني وبين إيمرنس، ولكنني شعرتُ بخيبة أمل بعد الليلة المختلفة تلك التي جلست فيها إلى جانبي وكشفت الغطاء عن طفولتها. كنت قد استيقظت من نوم هانئ لم يشُبه قلق أو هم، والعالم قد استقر في نظري. لم أشك للحظة أن العملية لم تنجح، ذلك أن كلماتها كانت قد نزعت أي خوف من قلبي. قبل تلك الليلة كان غطاء رأسها يخفي كل أسرار حياتها، ولكنها الآن تقف بارزة في عيني وسط منطقة ريفية، بسماء متقدة خلفها وجثتين متفحمتين أمامها. ظننتُ أخيرا أن الحاجز الذي بيننا قد انكسر. ظننت أن إيمرنس أضحت صديقة لي لا غريبة من الغرباء.

لم أستطع إيجادها صبيحة ذلك اليوم، لا في الشقة ولا في الشارع حين خرجت إلى المشفى. ولكنني رأيت أثرا منها في مدخل البناية الذي لم يضايقه الثلج. قلتُ لنفسي لا بد وأنها الآن مشغولة تزيح الثلج عن بقية المنازل. لم أكن منزعجة منها ولا متضايقة. كل ما كنت أفكر فيه هو الأخبار الجيدة التي تنتظرني في المشفى.. بقيتُ في الخارج حتى وقت الغداء. قفلت عائدة إلى المنزل جائعة، متيقنة من أنها ستكون موجودة تنتظرني. ولكن ما كان ينتظرني شيء سوى الشعور السيئ وأنا أحمل أخبار حياة وموت وما من أحد أعلمه بها. كنتُ أقف كما وقف أول أسلافنا وحيدا يبكي فوق الوحش الذي

جره، حين لم يجد أحد يخبره بمغامرته هذه ويريه غنائمه والجروح التي علت جسده. وجدتُ الشقة خالية. دخلت الغرف كلها، واحدة بعد الآخرى، وناديتها. لم أرد تصديق ما حدث. رفضتُ تصديق غيابها في هذا اليوم من بين كل الأيام، لا وهي لم تعرف ما إذا كان زوجي حيا أم ميتا. كان الثلج توقف عن الهطول؛ لم تكن في حاجة لأن تذهب إلى أي مكان. ولكن رغم كل هذا، لم أجدها.

دخلت المطبخ رغم أن الجوع قد غادرني، وبدأت أسخن الطعام. أخبرني عقلي أنه لا يحق لي توقع كل هذا من العجوز، ولكن كيف لعقلي أن يشعر بالخيبة المفاجئة تلك والفقد؟ لم تأتِ إيمرنس ذلك اليوم لتنظف الشقة. كان الغطاء ما يزال في مكانه على الأريكة التي نمت عليها. قمتُ بترتيب الشقة بنفسي، ونظفت الأرضية أيضًا، ومن ثم ذهبت إلى المشفى لتستقبلني أخبار آخرى رائعة.

عدتُ أدراجي إلى المنزل وقد تلاشى شعوري بالخيبة، عازمة على أن لا أقول لها شيء مما أخبرني به الطبيب. لم أكن لأثير ضجرها بشؤوني الخاصة. لم يكن كل هذا ليهمها. وما أدراني ما إذا كانت تكذب حول ما قالته لي ليلة النبيذ تلك عن طفولتها؟ ما قالته يصعب تصديقه، كالقصص الشعبية التي تتناقلها الأجيال. لم كنتُ مهووسة هكذا بإيمرنس؟ هل كنت مجنونة؟

ظهرتْ أخيرا مساء ذلك اليوم، وأعلنت أن الثلج سيظل يهطل طوال الليل ولن يكون لديها وقت كي تعود في الغد، ولكنها ستعوضنا قريبا. ومن ثم تذكرتْ أخيرا وأضافت: صحة صاحب السعادة تحسنت أليس كذلك؟ ادعيت عدم اهتمامي بإعلانها وبسؤالها، وطفقت أقلب صفحات الكتاب الذي بين يدي وأنا أقول: حالة زوجي جيدة كما توقع الأطباء، يمكنكِ الذهاب الآن. خرجت وهي تتمنى لي ليلة طيبة ونوما هنيئا. لم تفعل أي

شيء في المنزل، ولا حتى أن تلقي بعلبة اللبن الرائب التي كنت قد أكلتها في سلة القمامة. لم تكلف نفسها بفعل ذلك ولا بإشعال النار لي في الغرفة. لم تعد في تلك الليلة كما قالت. لم يكن هناك نبيذ دافئ ولا قصة خيالية آخرى. مر يومّان قبل أن تأتي مرة آخرى، وتنظف كل شيء دونما سؤال حول حال زوجي. لا شك في أنها علمت أن صحته آخذة في التحسن، ولا شك أنها لم تكن من النوع الذي يحب الثرثرة.

أخذ حضورها يقل أكثر فأكثر بعد ذلك. كانت حياتي يمليها علي المستشفى، وهي يمليها عليها الثلج. لم يأتِ أي زائر إلينا، ولم أكن أقضي وقتا طويلا في الشقة. وأخيرا وبحلول عيد الميلاد آخر العام، كان زوجي قد خرج من المشفى. حيّته إيمرنس بلطف وتمنت له تمام العافية. كان الوقت قد حان لتقدم لنا الوجبة المجانية التي تقدمها لمرضى الحي. لم أحظ قط بفرصة لأتأمل الزبدية التي رآها العديد. كانت مثل قدح النبيذ ذاك، تحفة فنية فريدة من نوعها. كانت زبدية كبيرة بمقبضين وغطاء يحمل علم هنغاريا مشتعلا وقد حفر عليه اسم العظيم لويوش كوشوت ووجهه. كما كان لها حامل مستدير توضع عليه. أحضرت لنا إيمرنس هذه الزبدية وفيها حساء دجاج ساخن. كانت قد لاحظت إعجابي بها في المرة الأولى التي رأيتها فيها. قالت بأن هذه الزبدية تفيدها كثيرا. أخبرتني بأن سيدة تدعى السيدة غروسمان، وهي سيدة إحدى المنازل التي عملت فيها في وقت مضى قد منحتها إياها، وذلك حين تم فرض القوانين الصارمة على اليهود. لم تكن السيدة غروسمان قد استخدمتها للأكل، بل للزراعة. كان لديها العديد من هذه الخزفيات والزجاج الفاخر، بما فيها قدح النبيذ.

أثارت إيمرنس اشمئزازي. كنتُ متضايقة في المقام الأول من عودتها إلى البرود في التعامل معي. وزاد الطين بلة فكرة أخذها ممتلكات شخص

كان قد طرد من بيته وشرد. في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، حظيتُ بعلاقات سياسية مميزة، واختلطت بأناس ذوي اطلاع على ما كان يحدث أكثر من جيراني الهنغاريين. لو كنتُ سأتحدث عن تلك الفترة التي لا يتحدث الناس عنها كثيرا، لما توقفت. كنت أعلم يقينا من بداخل قطارات الماشية تلك، وإلى أين يؤخذون ولأي سبب. كنت سأشعر بالسعادة والرضى لو أني أعدت إليها الزبدية دون أن نمسها، ولكن كان سيتوجب علي توضيح أسبابي لذا امتنعت، ولم أرد مضايقة زوجي. كنت أحرص على مداراته، ومراقبة جرعات الواقع التي أمنحه إياها. لو كان قد علم بمصدر هذه الزبدية التعيس لكان قفز من سريره بما تبقى فيه من طاقة جزعا. لا شك في أن إيمرنس كانت ستمنح الحساء أحد غيرنا إذا ما رفضت أخذه. لذا، جعلتها تسكبه حتى آخر قطرة، وانتقمت بعدم إخبارها أن هذا الحساء كان أول وجبة يتناولها زوجي بشهية كبيرة.

ظلت إيمرنس في المطبخ وقتًا طويلًا دونما حاجة تدعوها إلى البقاء. ورغم رفضها الدائم لأي شكر مني وامتنان، شعرتُ في تلك المرة أنها كانت تنتظر شيئًا من هذا القبيل. ولكنني لم أشكرها حتى، واكتفيت بوضع الزبدية أمامها وقفلت عائدة إلى غرفة النوم. شعرتُ بعينيها معلقة على ظهري وأنا أخرج من المطبخ حينها. شعرتُ بالسعادة وهي تقف هكذا، عاجزة عن معرفة ما أشعرني بالإهانة. لا بل شعرت بالانتصار بلامبالاتي هذه وازدرائي لها. اعتقدتُ بأني اكتشفت السر وراء رفضها دخول أي أحد منزلها. كان عامل الإصلاحات مصيبا في شكوكه حول هذا الأمر. لا بد وأن يكون هناك خلف الباب أشياء ذات قيمة وكنوز نُهبت من أولئك الذين حكم عليهم بالموت. سيكون التفاخر بها فكرة سيئة لا محالة. ماذا سيحدث لو تمكن أحدهم من تمييز قطعة ما من هذه القطع؟ لم تتمكن من بيع أي من هذا الذي

نهبته خشية اكتشاف فعلتها. يا لها من صورة: السيدة غروسمان المسكينة دونما شاهد قبر حتى، وإيمرنس تدخر القرش لتحظى بالتاج محل مدفنها. لم تفتح الباب كي لا تخرج قطتها! تحبس حيوانا ليكون ذريعة لها! خطة لا بأس بها.

كانت أكثر كبرياء مني. حتى لو تفاجأتْ بأي شكل من الأشكال، لم تسألني قط عن السبب وراء الجمود الذي حل بيني وبينها. وكما ذكرتُ سابقاً، كان زوجي متحفظا بعض الشيء. ورغم أنه لم يفصح، كان الازعاج باديا عليه طيلة تلك السنوات التي كانت تأتي فيها العجوز إلينا؛ لم يكن من السهل إبقاء حياتنا الزوجية بمعزل عنها. وبتوقفها عن جلب الهدايا، لم أعد أشعر بأنها صاحبة اليد العليا. اعتقدتُ فعلًا أنني اكتشفت سرها. لم أظن أبدًا بأنها ذكية، ذلك أنه كان بوسعها بعد انقضاء عام 45 أن تدرس من جديد وبكل يسر. لو بذلت جهدا في الدراسة بعد الحرب، لكانت الآن سفيرة في بلد ما أو وزيرة حكومية. ولكنها لم تر الثقافة مفيدة. كل ما فكرت به هو كيف تجمع أكبر عدد ممكن من الأشياء، فيما هي توزع الصدقة في تلك الزبدية المسروقة، وتخدرني فجر ذلك اليوم التعيس بقصة لا شك سمعتها من حكواتي في كرنفال ما أو هي رواية تافهة عثرتْ عليها في علية بيت جدها. لم يكن بإمكاني تصديق كل تلك الترهات حول العاصفة والبرق والبئر. بدأت أشعر أن لا مبالاتها بالسياسة وكرهها للكنيسة منطقي جداً. كان من الأفضل لها تجنب جميع الجماعات. كانت العاصمة بودابست مدينة كبيرة، وقد يكون هناك من نجى من أفراد عائلة غروسمان. قد يسمع أحدهم قصة بيتها ببابه الموصد ويرتب أجزاء الحكاية كاملة كما فعلت أنا. ولماذا شخص مثلها يذهب إلى الكنيسة في المقام الأول؟ ما الذي يمكن أن تؤمن به؟

كان شتاءًا قاسيًا. وكانت إيمرنس بدون ثانية فراغ واحدة في يومها. أما أنا فقد ملأ زوجي كل وقتي بعد عودته من المشفى. أصبح من النادر آنذاك

أن نتقابل أنا وهي وجها لوجه. ولم نحظ بأي محادثة فعلية .. إلى أن حدث وعثرتُ على الكلب.

كان بوسع زوجي في ذلك الوقت الخروج مجددا، والاستمتاع بحياته كما السابق، ولكنه كان لا يزال في حاجة إلى اهتمامي. لم يكن انتصاره على الموت وكسر أنيابه المرة الأولى التي يعود فيها إلى الحياة خلال فترة زواجنا التي دامت خمسة وثلاثين عاما. كان النجاح والفوز مهما للغاية بالنسبة إليه في كل جانب من جوانب حياته.

كان يوم عيد الميلاد، وكنا أنا وزوجي عائدين من المشفى بعد أن قمنا بصرف بعض الأدوية اللازمة له. وفيما نحن نمشي بهدوءتحت قطرات المطر الخفيفة، وقعت أعيننا على كلب صغير مدفون حتى رقبته تحت الأشجار. ذكرني منظره هذا بطريقة الإعدام التي نراها تتردد في أفلام الحرب والمعتقلات في الشرق الأقصى. كانوا يدفنون الضحية حتى أذنيه، ويكون عاجزا عن التواصل بفمه. ليس بوسعه أبدًا الصراخ وطلب النجدة. لا يبقى لديه خيار سوى النشيج. كان الكلب الصغير ينشج. لا شك في أن من دفنه هكذا كان يفهم الطبيعة البشرية جيدا؛ من يقدر أن يرى المخلوق الصغير هكذا بين أنياب الموت في ليلة الميلاد ولا ينقذه؟ كانت لحظة نسي فيها زوجي كل بغضه للحيوانات. لم يكن يرغب في أي غريب في منزلنا، خاصة كلب صغير لا يكتفي بالأكل وحسب بل يطلب الحب واللعب طوال الوقت. ولكنه ساعدني حينها على إخراج الصغير من الثلج. لم نخطط لإبقائه لدينا، وفكرنا في أن أحدهم لا شك سيتبناه ويعتني به. لم نكن على استعداد لتحمل الإزعاج الذي سيسببه، ولكننا لم نستطع تركه يموت هكذا. لم يكن في حاجة إلى الطعام بقدر حاجته إلى طبيب بيطري.

قال زوجي وأنا أضع الكلب تحت معطفي: هدية عيد ميلاد غير معتادة.

كان وجه الكلب الصغير ينظر من خلال فتحة المعطف ويعب الهواء ونحن نسير إلى البيت. كنت أشعر بالثلج وهو يذوب من على قدميه وبطنه. تابع زوجي: لا نحظى دائما بهدية كهذه.

كانت إيمرنس حينها قد انتهت من تنظيف كل زاوية من زوايا البيت وتلميعها. قضينا بقية الطريق نتشاور أنا وزوجي في الغرفة المناسبة للكلب، ووقع الاختيار على غرفة أمي الراحلة، الغرفة المملوءة بالأثاث العتيق الجميل والتي لم نكن ندخلها كثيرا. قال زوجي: أتمنى أن يكون الصغير يحب القرن الثامن عشر. تحب الكلاب عض الأشياء كثيرا، ولكن يتركون هذه العادة بمجرد أن يتجاوز عمرهم الثانية هكذا دون سبب. لم أرد عليه. أدرك جيدا ما يقوله ولكن لا خيار لدي حتى لو دمر الكلب المسكين هذا الشقة بأكملها. وهكذا، قفلنا عائدين كما لو كنا جماعة دينية تمشي في مسيرة الميلاد وأنا أحمل الشيء الأسود المقدس هذا.

لم أشهد قط دفق الأمومة الذي شعرت به إيمرنس حين رأت الكلب، ولم أشهده من جديد حتى بعد أن تغير شكل علاقتنا وكانت لتمنحني حياتها لو احتجت ذلك. كانت ترتب المطبخ وتضع فطائر عيد الميلاد على الصحن. رمت السكين دونما تفكير وخطفت الصغير من بين يدي. دعكته بخرقة ووضعته على الطاولة لترى ما إذا كان في وسعه المشي، ولكنه سقط على جنبه الهزيل. كان لا يزال متجمدا من الثلج ومتصلبا. من ذعره، أحدث فوضى في كل مكان. وضعت إيمرنس أوراق صحيفة على الطاولة وبدأت تبحث معي عن أصغر مناشف الاستحمام لدينا. أدركتُ حينها أنه كان لدى إيمرنس فكرة عن أماكن الأشياء في البيت. لطالما أصرتْ هي علي أن أضعها بنفسي في أماكنها. كان أكثر ما تخشاه أن تأخذ شيئًا ليس ملكا لها. ولكنها بلا شك، علمت بأماكنها كلها. ربما لم تلمس شيئًا، ولكنها كانت حريصة على متابعة

كل شيء. لم تحب أن يكون لأحد حولها أية أسرار.

ناولتها المنشفة وأخذتْ تلفه بها برفق ولين كما لو كانت تمسك بطفل صغير. بدأتْ تذرع الردهة جيئة وذهابا وتهمس له في أذنه. تركتهما وهرعت إلى الهاتف؛ لا وقت لدينا نضيعه إذا ما أردنا إنقاذه. كان التلفاز يعمل، وكل شيء حولنا يحمل بصمة عيد الميلاد: المصابيح والموسيقى والرائحة المميزة. كنتُ قد وضعت ماضيّ بأسره خلفي ومضيت، ولكن جو عيد الميلاد الحالم هذا لم يخلفني قط، لا وهو يتمثل جليا في هذا الكلب الصغير بين يدي العذراء. كانت إيمرنس عمياء عن كل هذا. كانت لا تزال تحمل الكلب وتغني له أغنية قديمة بنبرة خشنة، في احتفال غريب ومؤثر في نفس الوقت بميلاد المسيح. بدتْ وهي تتمايل بالكلب الصغير الملفوف بإحكام تجسيدا للأمومة، وعذراء لم نشهد مثلها من قبل.

وحده الرب يعلم كم كان سيدوم الوضع بهذا الشكل، لو لم يطرق بابنا جار يطلب إيمرنس في الحال. كانت ماسورة ماء قد انفجرت في بيت السيد برودارتش، فهاتف العاملين لكي يأتوا لإصلاحها، ولكن توجب على إيمرنس أن تذهب فورا وتقفل أنابيب المياه الأساسية. بوجه استحله الغضب، ألقت بالكلب إلي وخرجت لتتصارع مع الماسورة وتمسح الأرض، ولكنها كانت تطل علي بعد كل خمس عشرة دقيقة لتطمئن على وضع الصغير. حضر الطبيب البيطري الذي سرقناه من بين الزينة والاحتفالات وتولّى أمر الكلب. استمعت إيمرنس لتشخيصه بتشكيك واضح. كانت ترى جميع الأطباء حمقى وجهلة. لم تكن لديها القدرة على احتمالهم، ولم تؤمن بأدويتهم ولا باللقاحات التي كانوا يقدمونها. كانت مصرة على أن هذه الإبر وسيلة لجني الأموال وحسب، وأن قصص القطط المسعورة والثعالب أذيعت كي يجني الأطباء المزيد.

استمرت جهودنا في مساعدة الكلب على استعادة حياته أسابيع طويلة. كانت العجوز تنظف آثار الإسهال دونما تعليق. وعندما أخرج، كانت تدس العقاقير في فم الكلب وتمسكه حين يحين وقت إعطائه حقن المضاد الحيوي، ضاربة بكل قناعاتها القوية عرض الحائط. خلال ذلك الوقت، عرضنا الكلب على كل من نلتقي، ولكن دون طائل، لم يرغب أحد في تبنيه. منحناه اسما فرنسيا رائعا لم تنطق به إيمرنس قط وتجاهله الكلب أيضًا. يومًا بعد يوم، بدأ يستعيد صحته ويكبر، كاشفًا عن كل الصفات المحببة كغيره من الكلاب الهجينة. تجاوز الكلب المحنة أخيرا، وأثبت أنه أذكى بكثير من كلاب أصدقاءنا التي أتت من سلالات نقية. لم يكن جميلًا، ذلك أنه هجين من عدة سلالات، ولكن كل من رآه، ولاحظ اللمعة العجيبة في عينيه الداكنتين، شعر بأن مستوى ذكاءه يكاد يعادل مستوى ذكاء البشر. بعد أن فقدنا الأمل في تبني أحد له، بدأنا نحبه ونتقبله بيننا. ابتعنا كل ما قد يحتاجه، مثل سلة النوم التي كان قد مزقها في ظرف أسبوعين فقط. حين كان يشعر بالنعاس، يتجاهل كل اللحف والوسائد ويتمدد على الأرض في الردهة غير مستعين بشيء سوى شعره الكثيف. بدأ مع الوقت يعرف الكلمات التي يحتاجها، وأصبح فردا يحق له كل ما يحق لأي فرد من عائلتنا. اعتاد زوجي عليه إلى حد ما، بل وكان يربت عليه إذا ما فعل شيئًا ذكيا أو مضحكا. أما أنا فقد أحببته، ولكن إيمرنس تعلقت به وأحبته أكثر مني.

في تلك الفترة، كانت مشاعري حول زبديتها تلك والقدح ما تزال حاضرة. ولكن كان لزاما علي احترام أولئك الذين يحبون الحيوانات، أولئك الذين شهدوا دونما اعتراض أو ندم عربات الحيوانات وهي تساق أمامهم مكذبين كل الشائعات حول وجود أناس داخلها! احترمتها ولكنها كانت مفارقة مضحكة وهي تطلعني بكل حماس على حقيقة أن البط والإوز

والدجاج كانوا ينجذبون نحوها. كيف يمكن أن يكون سهلا على المرء، أن يأخذ أصدقاءه المقربين والذين روضوا إلى حد أنهم يأخذون البذور من فمه، ويقفزون بكل ثقة للجلوس إلى جانبه على مقعد الحب، ومن ثم ينحرهم إذا ما حان وقت طبخهم.

لم أكن أنزعج من تعلق إيمرنس بالكلب طالما كان نابعا من شغفها بالخدمة، بل كان هذا يسعدني. ولكنني حنقت حين أدركت أنها أصبحتْ سيدته الأولى. كان الكلب يتصرف بشكل مختلف مع كل واحد منا. كان ودودا ولطيفًا معي، وهادئا ومهذبا مع زوجي. وحين تأتي العجوز إلى الشقة، كان يركض إلى الباب ويحييها بسعادة لا مثيل لها. تشرح إيمرنس كل شيء له بنبرة مرتفعة ونطق واضح تمام الوضوح وكأنها تعلم طفلا صغيرا كيف يتحدث. لم تخفي عنا ما كانت تعلّمه، بل كانت تردده أمامنا كما لو كان قصيدة. ولم تكترث بما قد نشعر به. كانت تقول له: مع سيدتك، يمكنك أن تفعل ما يحلو لك. يمكنك أن تقفز حولي، وتلعق وجهي ويديّ، ويمكنك أن تنام إلى جانبي على الأريكة. يمكنك أن تفعل كل هذا لأني أحبك. ولكن صاحب السعادة ساكن كالماء، تجهل ما في أعماقه، لذا لا تعكر صفو الماء يا كلبي العزيز، لا تزعج صاحب السعادة لأنك هنا لكي تخدم. إنك محظوظ في أن تكون في بيت جيد كهذا، وأفضل شقة يمكن أن يقطنها كلب أبدًا. لم تكن تعطيه أي أوامر. كان يفهمها دون الحاجة إلى كلمات، ومنحته أخيرا اسما. أسمته فايولا متجاهلة كونه ذكرا لا أنثى. من وقت لأخر، كانت تلقي عليه بعض التعليمات بحزم مثل: فايولا، لن أمنحك إي سكر حتى تجلس، اجلس.. اجلس!

حينما رأيت كيف كانت تكافؤه، ذكرتها بنبرة حادة أن الطبيب قال لنا بأنه لا يصح إعطاء الكلاب السكر، لترد علي قائلة وهي تربت على كتف فايولا

بحزم: الطبيب أحمق. إذا جلس الكلب فلا بد أن يكافأ بشيء رائع، شيء حلو، وسيكون ذلك السكر. هيا يا فايولا اجلس. فيجلس الكلب في سبيل الحصول على السكر، ولكنه مع مرور الوقت أصبح يجلس دونما تفكير حين يسمع هذه الكلمة منها.

من حين لآخر، كانت إيمرنس تستأذننا في أخذ الكلب ليحرس منزلها وهي تزيح الثلج عن الطرقات. كان زوجي يوافق في الحال، حتى لا يزعجه فايولا بحركته في المنزل ونباحه. سألتها ما إذا كانت تخشى على قطها من فايولا لتقول لي بأنه ما من أمر يدعو إلى القلق من هذه الناحية. سوف تعلمه كيف يتعايش مع الحيوانات الأخرى دون أن يؤذيها، وكان يتعلم بسرعة كبيرة. وإذا ما أساء التصرف، كانت العجوز تضربه ضربا مريعا، رغم نهيي القاطع لكل هذا وحبها اللا محدود له. لم أضربه قط خلال الأربعة عشر عاما التي قضاها معنا. ولكن في نهاية المطاف كانت إيمرنس سيدته لا أنا.

وددتُ لو رأيتُ فايولا وهو يدخل للمرة الأولى محيط إيمرنس، الإمبراطورية التي لم تفتح أبوابها لأحد قبله قط. أدركتُ من البراغيث التي أحضرها معه إلى بيتنا أنه التقى بالقط. منذ ذلك الحين، حظينا بشرف وجود هذه البراغيث بيننا أيضًا. لا شك في أن دخوله الأول للإمبراطورية كان مليئا بالأحداث. كان هناك جرح يعلو أنفه، وخدش غائر في أذنه. أوحى سلوكه في ذلك اليوم بأنه قد خاض معركة، ويبدو أنه الخاسر فيها. كان لإيمرنس أساليب متطرفة في غرس قانون عدم إزعاج القط لدى فايولا. ولكنه لم يأخذ الأمر بشكل تراجيدي، بل عاد بصحبتها إلى منزلنا وخديه الممتلئين يداعبان قدمها في كل خطوة. لم تحدث أي مشكلة بعد ذلك. لاحظت سلوكه الغريب وأنا أخذه لنسير قليلا في الخارج. وقف حائرا من منظر القطط المشردة وهي تركض فارة منه رغم أنه لم يظهر أي غضب أو عداء لهم، ولم ينو إيذاءهم.

حرس فايولا منزل إيمرنس طوال فصل الشتاء. ولكنني رفضت أداءه هذه المهمة بعد أن عاد إلى البيت في إحدى ليالي السبت وهو ثمل. عجزت عن تصديق ما رأته عينيّ حين أحضرته إلينا. كان الكلب يترنح، وبدت بطنه برميلا ممتلئا، وأخذ يلهث بشدة ويقلب عينيه. لم أستطع رفعه لأنه ظل يسقط في كل مرة. جلستُ على الأرض لأفحصه، فشممت رائحة البيرة. صرخت بها: إيمرنس الكلب ثمل! لترد علي بنبرة هادئة: لن يقتله هذا، كان يشعر بالعطش.

وقفتُ وأنا أصرخ قائلة: هل جننتِ؟ لن تأخذيه معكِ أبدًا.. أبدًا. بعد كل ما فعلناه من أجل أن يستعيد صحته، ستجعلينه سكيرا هكذا؟ لترد علي بمرارة فاجأتني بها: وكأن القليل من البيرة سيقتله. شاركتهُ البط المشوي والبيرة لأنه توسل إلي، ما كان في وسعي أن أفعل؟ لقد كاد أن يتحدث. كانت الوجبة والبيرة شهية جدًا بالنسبة له وأحبها. إنه ليس كغيره من الكلاب. أوه سيموت الآن بسبب عشاء تناوله معي أليس كذلك؟ لأنه وبكل احترام لم يشته القمامة التي تمنحونه إياها، طعام الحمية الصحية ذاك في أوقات محددة، لا في غرفة الطعام ولا من أيديكم مباشرة رغم أن الأكل الحقيقي هو الأكل الذي يأخذه من يدك لا من صحن ما. أأنا التي سأقتله؟ أنا التي أرعاه وأتحدث معه وأعلمه الصواب والخطأ؟

كانت تتحدثُ بنبرة جدية، كما لو كانت معلمة جرحت مشاعرها السامية. تابعتْ قائلة: أأنتِ التي علمته أن يجلس و يقف ويركض ليحضر الكرة ويعبر عن شكره؟ كل ما تفعلّانه أنتِ وزوجكِ هو الاختباء خلف جدران هذا المنزل وكأنكما تمثالان. إنكما لا تتحدثان مع بعضكما حتى! لا تقومان بشيء سوى النقر على الآلة الكاتبة في غرفتين منفصلتين. حسنا إذن، فايولا في عهدتكِ الآن، لنرى ما ستفعلين معه.

كان إعلانها قد انتهى هكذا. نعم كان إعلانا لا حديثا عاديا، ف إيمرنس تتحدث بشكل مختلف حين يكون الأمر ذا أهمية. أدارت ظهرها وخرجت. أما فايولا الذي فقد وعيه وغط في نوم عميق. كان ثملا إلى درجة أنه لم يدرك أنها تخلت عنه.

لم تبدأ المتاعب في الظهور على الفور، بل في صباح اليوم التالي حين لم تأتِ إيمرنس من أجل إعطاءه الفطور كما جرت العادة وأخذه للمشي قليلا. كان قدصبر لبعض الوقت ولم يتسبب بالفوضى. ولكن ما إن تجاوزت الساعة السادسة والنصف، حتى بدأ في النباح والتذمر عاليا، حتى استيقظتُ مجبرة. مر وقت قبل أن أدرك أنه لا جدوى من انتظار إيمرنس. كان عقابها طويلا.

كان الحرج قد بلغ مبلغه لدي حين اقتربنا من بيتها، وأصر فايولا على الذهاب هناك، كما يفعل كل صباح. لم أفهم قط لم يفضل الجلوس معها في ذلك الحصن وليس معي في منزلنا بغرفه الواسعة التي يمكنه أن يركض فيها كما يشاء. حينما أدرك أن جذبه للرباط لم يدفعني لأن أخذه هناك، تمرد وبدأ يسحبني بشدة وانطلق سريعا وأنا خلفه. كان كلبا قويا، وكنت أنا عابرة طريق مذعورة فوق شارع لزج بفعل الثلج. كنت خائفة من السقوط وكسر عظامي، ولكنني لم أستطع ترك الرباط، خشيت أن تصدمه سيارة عابرة.

عرفتُ في ذلك الصباح مسار إيمرنس وفايولا. أخذني الكلب في منطقة إيمرنس. كنت نصف عمياء بسبب الثلج الذي ما انفك يهطل، ولاهثة بسبب وتيرة مشيه السريعة. عبرنا كل البيوت التي تزيح الثلج عنها. ووصلنا أخيرا إلى محطته التي ينشدها بعد أن جذبني بشدة. وجدنا الشخص الذي كان يبحث عنه. كانت إيمرنس تقف مديرة ظهرها لنا، ويقف فايولا باتجاهها وكاد يطرحها كما لو كان يطرح جدارًا. ولكنها كانت قوية جداً، أقوى مني بكثير. التفتت ورأتني حين وقعت على الثلج، وأدركتْ ما كان قد

فعله فايولا. جذبتْ الكلب إليها ممسكة بالرباط، وبدأت تضربه في كل مرة يعوي فيها. نهضت وأنا أشعر بغصة من أجله.

كانت تصرخ عليه كما لو كان إنسانا يدرك ما يقال وتقول: اجلس أيها المخلوق اللعين. لا يجدر بك أن تتصرف هكذا كحيوان وضيع. أخذ فايولا يحدق بها مذهولا. نظرت في عينيه كما لو كانت تروض أسدا وتابعت: إذا ما أردت أن تسمح لك صاحبتكُ بالمجيء هنا فعليك أن لا تثمل مرة آخرى، معها كل الحق، ولكنها لم تفكر في أنني أقضي أعياد ميلادي وحيدة دونما أحد يحتفل بي، وأنك يا فايولا الوحيد الذي يعلم تاريخ هذا اليوم، لأنك الوحيد الذي أفشيت له به. لم أخبر ابن أخي ولا شوتو ولا أديلكا أو بوليت. أما حضرة المقدم فلا بد أنه نسيه. ولكن لا يمكن لنا أن نتصرف هكذا حين نستفيق من الثمالة وكأننا رعاع، بل نستأذن. هيا قم يا فايولا.

كان الكلب طوال هذا الوقت جاثما على الأرض يعوي. لم يحرك عضلة واحدة وهي تضربه، ولا حتى فكر لثانية بالفرار. وقف أخيرا على قدميه فقالت له: هيا اعتذر. لم أكن أعلم أنه كان يعرف كيف يؤدي يمين القسم، ولكن بدا وكأنه فعل. وضع يده اليسرى على قلبه، وبيمناه أشار إلى السماء كتمثال وطني. أمَرتهُ بأن يقولها فنبح. أعادت عليه إيمرنس أمرها من جديد لينبح مرة أخرى وعيناه معلقتان عليها ليرى ما إذا كانت راضية عنه. لا بد وأنه شعر بأن مستقبله يعتمد على كل هذا. قالت له: عدنا أنك ستتصرف ككلب جيد. صوب فايولا يده تجاهها ولكنها قالت له: باتجاه سيدتك يا فايولا لا باتجاهي، أنا أعرف أنك ستحسن التصرف. التفت الكلب إلي فذكرني منظرنا هذا بصور القديس فرنسيس والذئب. والذنب يغمره، مد لي يده اليمنى ولكنني لم أخذها. كنت أشعر بألم شديد في ركبتي، وغضب عارم تجاهها.

مدركا أن توسلاته لم تجد معي نفعا، حاول القيام بحيل جديدة. دونما إرشاد من إيمرنس، حياني ووضع يده اليسرى من جديد على صدره. استسلمت له. مرة أخرى، استطاعا أن يغلباني. تحدثت إيمرنس أخيرا وقالت: لا تقلقي بشأنه. سوف يتناول الغداء معي، وسأعيده إليكما حين يحل المساء. لا تنسي غسل رجليكِ، إنهما ينزفان. كوني بخير.

أتاه الأمر من عينيها وبحركة بسيطة من رأسها. نبح مرتين باتجاهي معبرا عن شكره وامتنانه. ربطت إيمرنس الكلب بالسياج وتابعت الكنس. كان هذا إذنها لي بالانصراف. عدتُ وحدي إلى المنزل، أشق طريقي عبر الثلج الكثيف.

الأصدقاء والجيران

اتسعت دائرة معارفنا، بعد أن أصبح فايولا فردا من أفراد عائلتنا. فحتى ذلك الحين، كانت علاقاتنا محدودة بأصدقائنا فقط. ولكن الآن، حتى ولو كان ذلك بشكل سطحي، تعرفنا إلى جميع من هم بالجوار. كانت إيمرنس تخرج وتأخذ الكلب في جولة كل صباح وعند الظهيرة وأخيرا حين يحل المساء. ولكن في بعض الأحيان وبسبب عمل طارئ، لم يكن في وسعها أخذ الكلب وقت الظهيرة، فنضطر نحن إلى القيام بذلك. وسواء كان مع زوجي أو معي، فقد كان فايولا يقود الطريق دائما. يبدأ عادة في سحبنا إلى باب إيمرنس ليتأكد بنفسه أنها لا تختبئ عنه. كان أنفه يدله لهذه الحقيقة، دونما حاجة إلى الذهاب حتى الباب، ونستطيع بعدها أن نتابع طريقنا. ولكن في بعض الأحيان، تكون إيمرنس موجودة في المنزل؛ مشغولة بأمرٍ ما. في هذه الحالات، كنا ننتظر مع الكلب خارج منزلها والخجل قد تمكن منا. كان فايولا يعوي ويحك الجدار بجسده حتى تخرج وهي تشتم وتأمره بأن لا يزعجها هكذا. لم تكن تكتف في بعض الأحيان بضربه، بل تطرده كضيف لا يستحي. كان تقول له: لم تزعجني هكذا؟ قضينا الصباح سوية وسوف نلتقي من جديد عند المساء! ومراتٍ آخرى كانت تربت على كتفه عدة مرات وتدس السكر في فمه، وتلعب معه ومن ثم تدفعه إلى الخارج.

حين لا نجدها في بيتها، كان يأخذنا لنبحث عنها في كل منزل تعمل به. وإذا وجدها ، كانت تلعب معه وتدس السكر في فمه كعادتها وتدفعه إلى

الخارج. بهذه الطريقة، تعرفنا على العديد من جيراننا الذين لم نكن لنعرفهم لولاه.

حين تستضيف إيمرنس أحدهم، ويحدث هذا عادة عندما يكون الجو رائقا، وتكون قد وضعت الكراسي في حديقتها، كانت تأمر فايولا بالبحث عن طعامه وشرابه الذي خبأته في أماكن عدة، ليستمتع ضيوفها برحلة البحث هذه. لطالما تعجبت من تقبل أولئك الأشخاص لحدود مدينتها المحرمة، وعدم ممانعتهم الجلوس في الشرفة الأمامية. جميعهم تقبلوها دونما اعتراض .. معارفها وأصدقاؤها وحتى ابن اخيها الذي هو من لحمها ودمها.

كانت الشرفة الذي تستضيفهم فيها مستطيلة وشاسعة، تطل عليها غرفة حفظ اللحوم والحطب والحمام الخارجية بأبوابها المفتوحة. وبحكم قدسية هذه المدينة المحرمة، كنت أتصور أنها قد أثثتها بكل ما هو فخم وعظيم أخذته من عائلة غروسمان. كانت الشرفة نظيفة دائما. تغسل فناءها الحجري مرتين كل يومين إذا ما كان الموسم مناسبا للقيام بذلك. وإذا ما أصبح لديها ساعة فراغ أو ساعتين، فإنها تحب أن تستضيف الناس وتخدمهم. كنت أراها من نافذتي أو حين أمر ببيتها لدى خروجي. تقدم الشاي والقهوة لأشخاص ذوي أعمار وطبقات اجتماعية مختلفة. و المشروبات تقدمها في فناجين خزف بمهارة شخص قام بهذا مئات المرات وتعلّم آداب الضيافة من شخص رفيع. حضرتُ مرة افتتاح مسرحية جورج برنارد شو "الإنسان وسوبرمان"، والتي مثلت فيها فنانة مشهورة دور بلانش. ظللت أتساءل طوال وقت العرض بمن ذكرتني به هذه الشابة الجميلة في مشهد تقديم الشاي للضيوف. وأخيرا تذكرت، إنهاإيمرنس وهي تسلي ضيوفها عند حدود المدينة المحرمة.

في وقت مضى، كانت تقطن في الحي شخصيات سياسية بارزة، من بينها ضابط شرطة يعبر شارعنا بشكل دائم. ومع انتقال هؤلاء الساسة من الحي،

أو ربما بعد موتهم، اختفى ضابط الشرطة وكل من كان يقوم بالمراقبة لدينا. وعندما أتت إيمرنس للعمل لدينا، كان الشخص الوحيد الذي يعبر الحي بزي رسمي هو حضرة المقدم. لسنوات طويلة، تساءلتُ عن العلاقة بينهما ولمّ لم ينزعج المقدم من حرمة الدخول إلى منزل قد تخفي فيه شيئًا ما. ولكنني اكتشفت لاحقًا أنه دخل منزلها، واطّلع على كل أسراره. بالإضافة إلى كل الاتهامات ضد إيمرنس من تسميم الحمام وتدنيس القبور في حديقتها، استلمت الشرطة معلومات حول إيمرنس ووجهت لها اتهامات ذات دوافع سياسية. لم يكن أمام ضباط الشرطة خيار سوى رؤية ما يخفيه هذا المنزل. بعد تذمر ودمدمة، فتحتْ الباب لحضرة المقدم الذي كان ملازم ثانٍ حينها والكلب الذي يرافقه. لم يجدوا شيئًا سوى قط متهالك، هو قطها الثالث منذ أن سكنت هذا المنزل. قفز القط بمجرد رؤيته للكلب فوق خزانة المطبخ. لم يكن هناك أي جهاز إرسال سري أو هارب من العدالة أو ممتلكات مسروقة. كل ما رآه حضرة المقدم طاولة طعام نظيفة للغاية، وغرفة إحتوت على أثاث جميل وضعتْ عليه غطاء، ولم يبد أن أحدا يقطنها، ذلك أنها خلت من أي ممتلكات شخصية تشير إلى ذلك.

بدأت الصداقة بين إيمرنس وحضرة المقدم بجدالٍ. بدأت هي بالصراخ بعد أن خرجوا وأغلقت الباب خلفها. كانت تقول بغضب: هل هناك قانون يجبرني على فتح باب بيتي لكل من يعبر الشارع؟ هل يجب علي أن أدخلهم لمجرد أنهم طرقوا الباب؟ لم لا تذهبون وتبحثون عن الشرير الذي يقدم كل هذه الاتهامات ضدي؟ كانت الإهانة الحقيقية لها هي زياراتهم المتكررة لبيتها. أول الأمر بسبب القط الميت، والآن الأسلحة وما يهدد البلاد والسكان. لقد صبرت كثيراعلى هذه الزيارات..

تبنت الشرطة إثر كلامها هذا موقفًا دفاعيًا وحاولتْ استرضاءها. سخّر

المقدم ما لديه من بلاغة وحسن قول في أن يهدأ من غضبها ولكن ظل صوتها يعلو أكثر فأكثر. أخبرته بأن الساسة الذين يقطنون الحي لديهم أسلحة، ولم يكن لديهم ما يفعلونه فقاموا بتصيد الغربان وقتلها. منحتهم الشرطة كامل حمايتها على حد قولها، وتركتهم يفعلون ما يحلو لهم وأتت لتفتش منزلها برفقة كلب. قالت لهم حينها: أتمنى أن تحل عليكم لعنة من السماء، جميعكم ما عدا هذا الكلب المسكين. لم يكن ذنبه أنه اسُتغل ليعمل معكم. لم تكن إيمرنس غاضبة من الكلب، بل من حضرة المقدم ولا أحد سواه. لقد أذاقتهم كأس المهانة وتجرعوه حتى آخر قطرة. وعوضا عن إخراج جثة آخرى من الحديقة، أو العثور على أي دليل يدينها، انتهك الكلب أخلاق المهنة كلها، واقترب منها لكي تربت عليه، وظل يحدق فيها بحب وحيرة، دونما خجل أو حياء من الشرطة. أطلق الكلب تنهيدة لسيده حضرة المقدم طالبا منه الغفران، لم يكن له حيلة أمام القوة العجيبة التي دفعته إلى قدمي هذه العجوز الغريبة. ضحك المقدم ضحكة عالية، وبدأ الغضب ينسحب من ملامح إيمرنس، فتوقفتْ عن الصراخ. وبطريقة ما، وللمرة الأولى، انتبه كل منهما للآخر. لم يحدث قط أن ذهب ضابط شرطة إلى منزل أحدهم دون أن يكون أهل هذا المنزل خائفين منه. تلك هي المرة الأولى التي تقابل فيها إيمرنس مسؤولا يحمل حس فكاهة كهذا ولطفًا في التعامل. استحسن كل منهما الآخر، واعتذر منها المقدم وغادر منزلها، ولكنه عاد بعد ذلك وبرفقته زوجته. ظلت صداقتهما قوية حتى بعد موت زوجة الشابة المفاجيء. أخبرني فيما بعد أن إيمرنس وقفت معه خلال ذلك الوقت الصعب وكانت خير عون له.

أيامنا تمضي، يمليها علينا فايولا والعجوز، بدأت أتراجع عن إيماني بسرقتها ممتلكات عائلة غروسمان. فحضرة المقدم كان قد تفحص كل ما في بيتها، ولا شك في أنه سألها عن مصدر كل شيء فيه. لا بد وأن العائلة

قد منحتها إياها مقابل خدمة ما وإلا فإن المقدم اعتقلها. غالبا ما تتخذ المساعدات أشكالا غريبة هكذا.

خلال ذلك الوقت، زاد عدد معارفنا، وتعرفت إيمرنس وفايولا على الكثير من الناس الذين صاروا يحيونا إذا ما التقينا. وأما أصدقاؤها الثلاثة منذ زمن بعيد، أصبحوا يتوقفون ويتبادلون معي بعض الأحاديث. كان هؤلاء شوتو التي تدير كشكا للخضر والفواكه، وبوليت التي كانت تكوي الملابس، وأديلكا أرملة فني المختبرات. في ظهيرة صيف ما، دعتني إيمرنس لأنضم لهن وأتناول بعض الفطائر الشهية وأحتسي القهوة. كنتُ في الخارج أمشي مع فايولا، عاجزة إلى حد ما عن تجاهلهن ورد دعوتهن. ولكن الكلب لم يدع لي فرصة كي أجيب؛ كان قد سحبني إلى شرفة إيمرنس الأمامية، وتوقف لدى طاولة الطعام يستجدي. لم يكتف بهذا، بل ورفض أن نغادر إلى المنزل بعد أن انتهينا فازداد غضبي.

في ذلك المساء، حين أتت العجوز لتأخذه إلى الخارج للمرة الأخيرة قبل أن ينام، سألتها ما إذا كانت تود أن تأخذه ليسكن معها دائما. كانت نيتنا أن نبقيه لدينا حتى يسترد عافيته، لا أن نتبناه. لن يتوجب عليها إذا ما أخذت فايولا قفل الباب، ذلك أنه سيحمي البيت وسيقوم باللازم.

وفيما أن أتحدث، كانت إيمرنس تربت على عنقه بحب ورقة من يلامس وردة أو رضيعا. ولكنها في نفس الوقت كانت تهز رأسها. لم يكن الأمر ممكنا. لم يكن مسموح لها امتلاك كلب، وإلا لكان لديها واحد منذ زمن طويل. قالت بأن العقد الذي وقعته ينص على السماح لها بإبقاء حيوان واحد فقط داخل البيت، ودجاجة أو بطة إذا ما كانت تهيئها للطهي. الكلب على حد قولها يستحق حرية ومساحة كبيرة كحديقة مثلا، لا أن يبقى محبوسًا في البيت كسجين. قفل الباب هكذا لم يكن سهلا على القط الذي لديها، ولن يكون

ممكنا لكلب فضولي ويحب تكوين الصداقات والاستكشاف كفايولا. لم يولد هذا الكلب ليكون خادما، حتى لو كان سيسعده أن يحرس منزلي. وعلى أية حال، لا يجدر بكبار السن امتلاكها، لأنهم سيموتون سريعا وستتشرد هذه الكلاب، ولن يكون أمامها خيار سوى الشارع. وأضافت أخيرا بأنه إذا ما كان يزعجني تعلق فايولا بها، فإنها ستضع حدا لذلك؛ يمكن تنفير الحيوان كالبشر تماما.

شعرتُ بأنها تتملص من المسؤولية، مما أثار حنقي. لم تعلقه بها هكذا إن لم تكن تنوي أخذه؟ استغرق الأمر مني زمنا طويلا لأدرك أن لا أحد منا تخيل موت إيمرنس يومًا. بدأتُ أدرك هذه الحقيقة أخيرا بعد عدة دلائل منذرة. لطالما شعرتُ بأنها سترافقنا مدى حياتنا، وأنها تتجدد بتجدد الطبيعة عند الربيع. ولطالما أحسستُ أن رفضها التماشي مع البشر لم يكن مقصورا على الحظر الذي فرضته على بيتها وحسب، بل وشكل العلاقة بينها وبين الموت. في ذلك اليوم، كنت أرى أنها تتحجج بمسألة كبر السن هذه وتشرد الكلب بعدها. جعلتُ فايولا يدفع ثمن ضعفي أمام إيمرنس، وحرمته من دخول غرفة التلفاز. كان يحب مشاهدة التلفاز، ويحرك رأسه إلى اليمين واليسار مع الكرة في مباراة ما، وتنتصب أذناه مع تغريد العصافير في وثائقي عن الحياة البرية.

بحلول نهاية ذلك الأسبوع، شعرتُ بخجل كبير من نفسي؛ لمَ ألومه على شيء لا ذنب له فيه؟ وحتى لو كان له يد في الموضوع، ما كان يجدر بي أن أعاقبه هكذا. لذا وجدتُ نفسي أقبل بالأمر، واعترف أن الكلب والعجوز ينتمي كل منهما إلى الآخر. كان نعاس الصباح، والأعمال التي تنتظرني في الظهيرة، والتعب آخر اليوم تمنعني من أن أمنحه الاهتمام والرعاية التي كان يحتاجها، أو التنزه معه بانتظام. وحتى زوجي، لم يكن في صحة جيدة

تساعده على القيام بذلك، ناهيك عن سفرنا الدائم خارج البلاد. احتاج فايولا لإيمرنس. لا يمكنني إنكار هذا. كان من كل النواحي العملية، كلبها الأليف لا كلبي.

بدأت أتساءل في ذلك الوقت، لم ولأول مرة تتحدث عن عمرها؟ لم نتطرق له قط. كانت إيمرنس تحمل أشياء يعجز جماعة عن حملها، وتصعد بها الدرج بقوة بطل أسطوري، ولم تذكر قط كم هو عمرها. كنا قد توقعنا عمرها من بعض المعلومات التي أخبرتنا بها مثل أنها كانت تبلغ الثالثة من عمرها حين توفي والدها، والتاسعة من عمرها حين تم استدعاء زوج أمها إلى الجيش، ولقي حتفه بعد وقت قصير جدًا عام 1914. إذا كانت تبلغ التاسعة في ذلك العام، فلا بد أنها ولدت في عام 1905. كانت كبيرة في السن بشكل مريع ومثير للصدمة. لذا كان من المنطقي أن لا تفكر في العمر إلا عندما انهارت أخيرا. لم يكن الآخرون الذين خفيت عنهم هذه المعلومات يعلمون عمرها الفعلي، بل كانوا يتوقعونه فحسب. حين حل ذلك اليوم المشؤوم العصي على النسيان، لم يكن بوسعنا دفنها دون مساعدة حضرة المقدم. في كل أدراج خزائنها التي فُرغت بالكامل من أجل تطهيرها، لم يكن هناك أثر لأي ورقة رسمية تثبت هويتها. كانت تقريبًا الشخص الوحيد في البلاد الذي تمكن من عزل كل السلطات عن حياته. ولكن في وقت مضى، كان حضرة المقدم قد رأى بعض أوراقها الثبوتية، وتصفح سجل العمل الخاص بها الذي كان معتمدا آنذاك كهوية رسمية. اكتشفنا لاحقًا ولأسباب لم ندركها حتى الآن أنها تخلصت من كل شيء. كانت تبغض جوازات السفر والشهادات وحتى تذاكر الترام. كان علينا أن نتجاهل كل التُرهات التي كتبتها عن نفسها بخط يصعب قراءته في سجل المستأجرين الذي عثرنا عليه في منزلها. كتبتْ في إحدى الصفحات أنها ولدت في مدينة سيغيشوارا في

الخامس عشر من آذار عام 1848 . كان هذا نوع التعليقات التافهة والوقحة التي ترد به عادة على كل سؤال تطفلي من الغير. كانت طرق إيمرنس في الانتقام فظة ولكن متنوعة بشكل متقن.

كانت شوتو مراهقة حين أتت إيمرنس إلى الحي. في تلك الفترة، أي قبل الحرب وبعدها، لم يمكن ممكنا للأخيرة أن تشغل هذا المنزل أو تنتقل خارجه دون أوراق ثبوتية. ورغم ذلك، تمكنت من أن تسكن بيت الخادمة في الفيلا، وجلبت الأثاث الأسطوري معها. كان المالك قد عينها قبل أن يهاجر إلى الغرب. لا بد من وجود أوراق تتعلق بها وبرفيقها الدائم آنذاك. كان هذا الصديق الجاف هو السر وراء هوسها بإغلاق الأبواب. لم تسمح بأحد أن يدخل، وراقبته بغيرة وكأن أحدهم يرغب في سرقته منها. كان رفيقها هذا مريضا كما هو متوقع، ويحمل أوراقا تعفيه من الخدمة في الجيش. لم يكن يخرج من البيت إلا نادرًا. كان عاجزا عن الخدمة في الجيش والعمل أيضًا. وعلى حد وصف إيمرنس، كان التهاب المفاصل قد أنهكه. لطالما كان هذا نوعها: الأشخاص والحيوانات المتعبة. لطالما جذبها الحطام. إنه الأمر نفسه الذي جذبها إلى السيد سلاوكا أيضًا حتى مات. لم يكن رجلا كاملا، بل وحيدا دونما عائلة.

غصت الحكاية التي أخبرتني بها شوتو بالكثير من التفاصيل الرهيبة التي دعتني إلى أن أطلب منها إعادة سردها علي عدة مرات، حتى تمكنت من استيعاب ما قد حدث. فهمتُ منها أن إيمرنس كانت تعيش مع شخص ما خلال فترة الحصار وبعده. لذا لم تكن وحدها مع القط وحسب، بل يقطن معهما مستأجر. بالإضافة إلى ذلك، فقط تضمنت دائرة معجبيها السيد سلاوكا الذي عجز عن الفرار من البلاد أو إعالة نفسه وذلك بسبب مرض قلبه الحاد. كان لا يقدر على القيام بأي عمل، حتى لو كان ذلك مجرد

تنبيه الطائرات بأي خطر يحدق بها. جاء موته في أكثر الأوقات تعقيدا. كان الوضع آنذاك صعبا، حين بدأ الحصار، ولم يبق باب إلا وطرقته إيمرنس لتجد أحدا يساعدها في دفن السيد سلاوكا. ولكن لم يحالفها الحظ ذلك أن عطلة وطنية كانت قد بدأت ذلك اليوم. لذا، كان عليها أن تتخلص من جثة المسكين بنفسها بمساعدة بعض الأصدقاء. وافقت إيمرنس على أن تدفنه في حديقتها مقابل حصولها على دراجته، ولكن الدراجة اختفت بعد مدة. ربما سرقها صديقها ذاك الذي حيّر اختفاؤه شوتو أيضًا. دفنتْ إيمرنس السيد سلاوكا تحت شجرة الأضاليا، وتحللت جثته دونما إزعاج حتى استخرجها المجلس البلدي في صيف عام 1946.

حتى ذلك الوقت، كان قاطنو البناية يتغيرون باستمرار، وأتوا من بلدان عدة. قامت إيمرنس بغسل ملابس الألمان، ومن ثم الروس من بعدهم. عاد بعد ذلك الوضع إلى ما كان عليه، وعاش الناس في سلام. بدأت تتوافد تقارير كيدية ضدها لدى الشرطة. لم تكن بشأن تسميم الحمام ولا الافتراءات السياسية، بل لانتهاكها حرمة القبور بدفن القط مع السيد سلاوكا. رغم ذلك، وبعد أن وضّحت إيمرنس لحضرة المقدم أن القط كان عائلتها الوحيدة هنا، وعدها بأن يجعل الجيران الذين أضاعوا وقت الشرطة وجهدها يتعلمون معنى الاحترام. وقد حافظ على وعده وكلفهم بخدمات مجتمعية وتنظيف حديقة فيرميزو. كان في تلك الحديقة العديد من الخيول النافقة والأشخاص أيضًا. أمرهم بأن يفرقوا بين هذه الجثث، ويدفنوا الناس في الأماكن الملائمة، والحيوانات أينما أمكنهم دفنها. كان لديهم أمور أهم من إيمرنس يفكرون فيها خاصة وأن البلاد كانت تعاني لتقف كما كانت من جديد من بين الدمار؟ كم كان يبغضهم! لو استمروا في قصصهم حول القط، لاستمر هو في التحقيق بشأن الوضيع الذي لم يحتمل قط إيمرنس

فقتله بالطريقة الفاشية الفظيعة تلك عوضا عن التفاهم معها. كانت هناك قوانين ضد الوحشية تجاه الحيوانات.

***

في أحد الأيام، لم تأت إيمرنس لأخذ فايولا بجولة في الخارج. لم يكن هناك سبب يمنعها من المجيء، ولكنها غابت طوال ذلك اليوم. كان موسم الخريف قد حل، ولا ثلج تساقط لتزيحه. اضطررت أخيرا إلى أخذ الكلب بنفسي، والمشي تحت المطر الخفيف. كان فايولا قد بحث عنها في الصباح مستعينا بأنفه الخارق، ولكنه علم أنها لم تكن خلف الباب المغلق، لذا ذهبنا لكل بيت تعمل فيه. أخذني حتى المتجر، ولكن سلوكه أخبرني بأنها لم تكن في الجوار، وربما المنطقة حتى. لم تكن قريبة، وأدرك فايولا ذلك.

حين عدنا إلى المنزل، ظل فايولا جاثما بكل تعاسة، وأنا أنظف. حين تغيب إيمرنس، لا يتوقف الناس عن قرع باب بيتنا بحثًا عنها. جميع من عرفها يشعر بالقلق عليها. ماذا حدث لها يا ترى؟ لم تكنس أوراق الشجر من على المدخل، ولم تخرج صناديق القمامة كالعادة. لم تحضر الملابس المغسولة، ولم تظهر في الليلة الماضية لتعتني بأطفال عائلة ما، بل لم تقم حتى بشراء حاجيات البيت. فتحت باب بيتي وأغلقته طيلة ذلك اليوم. أما فايولا فقد ظل يعوي، ويرفض الأكل، ولا يكف عن انتظارها.

طبق زجاج مورانو

حين حل الليل ، ظهرت إيمرنس أخيرا وأخذت فايولا في نزهته. كانت صيحات الراحة التي أطلقها تفوق التصور. وحين عادا، طرقت إيمرنس الباب، وطلبت مني أن أرافقها إلى منزلها. قالت بأن هناك أمر تود أن نتناقش فيه بعيدا عن مسامع صاحب السعادة زوجي. كان بوسعنا التحدث في إحدى غرف شقتنا، ولكنها أصرت أن أذهب معها. انطلقنا نحن الثلاثة، أنا وهي وفايولا الذي يتقدمنا بخطواتٍ سعيدة وراقصة. لم يكن هناك داعٍ في وقت متأخر كذلك الوقت لربط فايولا ومنعه من الدخول في عراك مع الكلاب الآخرى في الحي. عندما وصلنا إلى الشرفة الأمامية، دعتني للجلوس على طاولتها التي علاها مفرش بالغ النظافة من النايلون. وبمجرد جلوسي، هاجمتني تلك الرائحة المعتادة والكثيفة لخليط الكلور وسوائل التنظيف ومعطرات الجو المثير للغثيان. كان المنزل بأكمله هادئا، ولم يتسلل نور أي مصابيح من نوافذه. لم تكن ساعة السحر قد حلت، ولم تكن فكرة كهذه لتخطر على بالي خلال النهار، ولكنني شعرتُ حينها بحضورٍ ما يملأ بيت إيمرنس. سمعتُ من بين الصمت الذي طغى صوتا ضعيفا وناعما. قرّب فايولا أنفه من الفراغ الذي سكن أسفل الباب وبدأ يشم بفضول. اعتاد حين يود الدخول إلى مكان ما إصدار هذه الإشارة المميزة التي تشابه أنين البشر أو التنفس الثقيل المؤلم.

كانت ليلة غير اعتيادية من كافة النواحي. لا متناغمة بل مشحونة بها

ينذر بالشر. عادة لا أجد نفسي أحلل أي وضع أكون فيه، ولكن في تلك المرة فكرتُ بمدى جهلي بحقيقة هذه العجوز، وما يقبع خلف جنونها وأجوبتها المراوغة على كل أسئلتي.

بدأت إيمرنس بالكلام وقالت:

-في وقت ما في الأيام المقبلة سيأتي أحدهم لزيارتي.

كان صوتها كصوت من أفاق للتو من التخدير. تنطق الكلمات بدقة ووضوح مبالغ فيهما كمن كان عقله تائها ينشد النور. تابعتْ:

-تعلمين بأنني لا أستضيف أحدا في منزلي، ولا أستطيع أن أستضيف هذا الشخص هنا على هذه الطاولة، لا يمكنني فعل ذلك أبدًا.

تعلمتُ مع الأيام أن لا أستجوبها عن أي شيء، ذلك أنها ستخاف مني وتتراجع عن الإفصاح لي إذا ما فعلت. لا بد وأن هذا الذي لا تستطيع استضافته هنا ناهيك عن مدينتها المحرمة شخصا مميزا. هل من الممكن أن يكون التوأم الملائكي الذي احترق واستحال رمادا؟ ربما لم يكونا سوى شخصيتان لرواية ما. أم هو الرب الذي رفضت هي الإيمان به، لأنه منحها فستان سهرة لا ملابس صوفية رثة؟ هذا الشخص لا شك أهم من ابن اخيها وحضرة المقدم.

-هلا سمحتِ لي باستضافته في شقتك؟ أعلم أنكِ لن تتحدثي عن الأمر كما سيفعل الآخرون. سوف نتصرف كما لو كان الضيف ضيفك. سيكون صاحب السعادة في الخارج يعمل ذلك المساء. هو لا يمانع أي طلب منكِ. هلا قمتِ بهذا من أجلي؟ أعدكِ بأني سأعوضك.

ظللت أحدق بها ومن ثم قلت:

-تريدين استضافة أحدهم في بيتنا؟

كان سؤالا عبثيا. رسمت إيمرنس خطتها بدقة، وهذا لا شك ما أرادته.

-ولكن يجب عليكِ أن تجعلي هذا الشخص يصدق بأنني أعيش معكم. سوف أحضر كل شيء. سأحضر الفناجين والقهوة والمشروبات. لن يتوجب عليكِ توفير أي شيء سوى المكان. أرجوكِ وافقي، وسأعوضكِ عن كل هذا. لن نكون في الشقة حين يعود صاحب السعادة من العمل. يوم الأربعاء عند الرابعة مساء، هل يناسبكِ هذا؟

كان المطر يهطل خفيفًا، وكان المشهد العالمي قد عاد إلى سابق عهده منذ سنوات قريبة. كان في وسع إيمرنس أن تستضيف الرئيس الفرنسي إذا ما أرادت، دونما خوف من أي تبعات سياسية. ولكن عدم قدرتها على استضافة هذا الشخص في بيتها زاد من كثافة الغموض التي تحيط نفسها بها كوشاح. هززت كتفيّ، ووافقت على طلبها. كل ما تمنيته هو أن لا أنتظر حضور هذا الضيف، ولكنها طلبت مني أن أكون موجودة حتى لا تكون وحدها معه.

وأنا عائدة إلى شقتي، احترت وأنا أفكر في الطريقة التي سأقنع بها زوجي. كان يبغض اللف والدوران، خاصة حين لا تكون هناك نهاية واضحة للأمر، وشكوك. ولكن عوضا عن الاعتراض والرفض القاطع، تفاجأت به يضحك. وجد الفكرة غريبة وتحرك مخيلة الكاتب فيه. إيمرنس والضيف الذي تود استقباله هنا؛ قد تكون هذه محاولتها في البحث عن زوج لها. ربما كانت هذه الزيارة إجابة لإعلان منها تبحث فيه عن شريك. ربما تود إحضاره هنا لسبر أغواره. وافق زوجي على الأمر، بل وكاد أن يعبر عن أسفه عن اضطراره للعمل في ذلك اليوم. لم يكن قلقا بشأن مجيء هذا الغريب إلى المنزل، ففايولا سوف يقطعه إربا إربا إذا ما فكر في إيذائنا. منتبها لاسمه الذي ذكر، لعق فايولا يد زوجي بحماس، وانقلب على ظهره لكي نلعب معه. كان من الصعب علينا الاعتياد على فهمه لما يقال حوله.

وفي اليوم الموعود، كانت إيمرنس تعمل كالمجنونة بإرادة حديدية. وحتى فايولا الذي أدرك مزاج الجميع من حوله، لم يكن كعادته. أحضرت العجوز صحونا وأوعية من مختلف الأنواع والأشكال على أطباق مغطاة، الأمر الذي أغضبني. سألتها لم تستعرض بكل هذه الأشياء أمام مرأى الجميع في الشارع، وهي تطلب أن تكون هذه الأمسية سرية. لم تكن لا هي ولا ضيفها مصابين بالجذام، لم لا تستخدم ما لدينا من أوانٍ؟ كان بإمكانها أن تستخدم أواني أمي الفاخرة. هل اعتقدت بأنني سأرفض ذلك؟

لم تشكرني على عرضي هذا، ولكنها لم تنسه قط. كانت دائما ما تقدر لفتات الآخرين، سواء كانت طيبة أو سيئة. قالت لي بأنها لم تكن تحاول إخفاء أي شيء، كل ما في الأمر أنها لم ترد أن يعرف الضيف أنها وحيدة دون عائلة، ولم ترغب في تفسير السر خلف مدينتها المحرمة له وطريقتها في العيش.

كانت تجهز طاولة العشاء في غرفة والدتي حين قررتُ أن أخبرها بأمر لطالما أردت إخبارها به. كانت تصفّ شرائح اللحم البارد والسلطة بمهارة وسحر حين سألتها ما إذا فكرتْ يومًا بزيارة طبيب والتحدث إليه عن أعراضها، فرسم حدود كهذه بينها وبين العالم لا يمكن أن يكون طبيعيا. لا بد وأن الأطباء قد وضعوا اسما لهوس كهذا، ولا شك في أنهم توصلوا إلى علاجه. ردت علي وهي تحملق بي وتلمّع كؤوس الشمبانيا التي تحتفظ بها للمناسبات المميزة:

-طبيب! أنا لست مريضة، وطريقتي في العيش لا تضر أحدا. تعلمين كم أبغض الأطباء. دعيني أعيش كما أريد؛ تزعجينني حين تلقين عليّ محاضرات كهذه. حينما أطلب منكِ أمرا ما، افعليه دون وعظ ومحاضرات، وإلاّ فلا حاجة لي بكل هذا.

تركتها وذهبتُ إلى غرفتي وبدأت أستمع لبعض الموسيقى؛ إذا لم يكن لي

الحق في أن أرى ما يجري، فلا حاجة لي بالاستماع لهما إذن. فاض بي الكيل حينها من هذا الاتفاق. وبدأت أفكر فيها وفي المتاعب التي قد تجلبها لنا يومًا. لا شك في أنها فقدت صوابها. من ذا يا ترى الذي ستحضره إلى بيتي؟ إذا لم يكن فايولا معي في تلك الليلة، لكنت قلقت كثيرا. لم تحتاج إلى كؤوس شمبانيا في لقائها السري هذا؟ كنتُ أضيق ذرعا بأسراري، ولا طاقة لي على احتمال أسرار الآخرين.

شهدت الموسيقى التي غمرت الشقة ما كان يجري. كان بين غرفتي وغرفة أمي التي أقامت فيها العجوز المأدبة غرفتان. قرأت أو بالأصح تصفحت خمسين صفحة من كتاب ما، قبل أن تبدأ الشكوك في مساورتي. وضحت لي إيمرنس بأنها تود مني مقابلة ضيفها، ولكن مر بعض الوقت ولم يحدث شيء. أين ضيفها؟ ما الذي يجري طوال هذا الوقت؟ حتى فايولا كان هادئا. هل أتى الضيف يا ترى؟ مضت ساعة بعد الموعد المحدد لوصول الضيف حين سمعت فايولا ينبح. كم كان هذا اللحم البارد خيارا عمليا لها، وهي تنتظر وصوله؛ خيار غير صحي ولكن لن يفقد رونقه بعد كل هذا الوقت. تابعت الاستماع إلى الموسيقى، ودون سابق إنذار، فُتح باب غرفتي بقوة، وكان من فتحه فايولا الذي صعد إلى سريري وبدأ يقفز بجنون محاولا لفت انتباهي لأمر ما. كان ذلك غاية في الغرابة؛ لو كان ضيفها يخشى الكلاب لكانت أرسلت فايولا للغرف البعيدة في الشقة لا إلى غرفتي. ما الذي كانا يفعلّانه يا ترى حتى تبعد العجوز فايولا هكذا.

علمتُ ما حدث بعد وقت قصير. ثوان بعد أن دخل إلى غرفتي، لحقت به إيمرنس. كان وجهها خاليا لا يبوح بأي شيء. لطالما كان في وسعها أن تتصرف هكذا، وكأنها صماء بكماء. في ذلك الحين، كان فايولا قد تمدد على بطنه إلى جانبي على السرير، ولم تكن قد رأته. أعلنتْ أن قارع الباب لم يكن

الضيف الذي لن يحضر، بل عامل الإصلاحات الذي هاتفه الفندق الذي يقطن به الضيف وطلب منه أن يوصل رسالة لإيمرنس. أخبرها العامل بأن زيارة الضيفة قد ألغيت في اللحظة الأخيرة، لانشغالها بعمل ما، كما أنها لم تأتِ إلى بودابست في المقام الأول، وفي حال قيامها بزيارة المدينة في المستقبل القريب فسوف تطلع إيمرنس بالموعد المناسب حينها.

ألغيت جميع ارتباطاتي وأجلت عملي من أجل ضيفة لم تحضر. لم يضايقني الأمر كثيرا، ولكن إيمرنس صرفت الكثير من المال من أجل هذه الزيارة. خرجت العجوز مثل الإعصار من غرفتي، وأغلقت الباب بشدة خلفها. سمعتها تصرخ على فايولا الذي خرج يلحق بها، كما لم تصرخ من قبل. دفعني صراخها إلى الخروج ورؤية ما كان يجري. لم يكن قد فعل شيئًا. سمعتُ من غرفة والدتي ضجة عالية. لأول مرة أقف مذهولة أمام لغة العجوز. كانت تلقي بالشتائم واللعنات كما لم تفعل من قبل. دفعتُ باب الغرفة، وتجمدت في مكاني. لم يكن الكلب من يتلقى الشتائم، بل شخصًا آخر. كان فايولا جالسًا على الطاولة في مقعد والدتي ويأكل، بعد أن وضعت إيمرنس الطبق أمامه. كان يلتهم قطعة لحم بنهم كبير. وضع إحدى يديه على مفرش الطاولة، وحاول بالأخرى إحكام القبضة على الطبق المصنوع من زجاج مورانو الذي لطالما ثمنته ولم أضع عليه أي شيء قط حتى في أكثر المناسبات أهمية بالنسبة لي. وكان الشمعدان الفضي ذو شموع الخمسة يهتز على الطاولة مع كل حركة من فايولا. كان الطعام من حين لآخر يسقط من فمه ليعود ويحاول التهامه، مخلفا أثار الزيت على الطبق. لا أعتقد بأني غضبت يومًا يومًا مثل غضبي حينها.

-مرآة أمي! طبقها! فايولا ابتعد .. ابتعد! ما الذي يحدث هنا يا إيمرنس! هل جننتِ؟

لم يحدث أن رأيتها تبكي قبل ذلك اليوم، ولا حتى بعده. بكت أمامي دونما تفكير. لم أعرف ما توجب علي فعله حينها، ذلك أن الكلب لم يكن ينفذ أيا من أوامري في مثل تلك الأوقات الحرجة ما لم تعد عليه هي الأوامر ذاتها. تابع فايولا الأكل غير آبه بما يجري حوله، وتابعت إيمرنس النحيب على الطرف الآخر من الطاولة. كان من حين لآخر ينظر لها بتعاطف، ومن ثم يعود لطبقه عاجزا عن مقاومة الطعام الشهي. لا شك في أنها علمته كيف يتناول طعامه على الطاولة. بدا وكأنه ممثل في مسرحية ما؛ الطريقة التي أكل بها، وجلوسه على المقعد واضعا كفيه على الطاولة كما نفعل نحن البشر. لم يكن هناك من خطأ سوى تناوله الأكل من الطبق الكبير لا من طبق خاص به، واستخدامه فمه عوضا عن يديه لأخذ قطع اللحم.

كان المنظر غريبًا ومستفزًا في الوقت ذاته بشكل يفوق الوصف والكلام. كلبنا الذي يجلس على طاولة أمي الراحلة في غرفتها يرفض أن يطيعني. ينظر من حين لآخر إلى الكعكة الكبيرة البعيدة عنه، ويفكر بلا شك في الطريقة التي سيصل بها إليها. كانت إيمرنس ما تزال تبكي دون عزاء من أحدنا. وفايولا يوشك أن يقضي على الوليمة كلها، ولكن كان بوسعي مما تبقى أن أدرك المبلغ الكبير الذي دفعته هي من أجل كل هذا. لا بد وأن هذه الضيفة كانت غالية على العجوز. شعرت بالغضب يستفحل داخلي، وأوشك أن أنفجر إلى أن توقفت إيمرنس عن البكاء، ومسحت عينيها بظهر كفيها. ظلت ترتجف كما يفعل من استفاق من أثر التخدير. هرعت بعد ذلك إلى فايولا الغارق في لذة الأكل، وأوسعته ضربا بشوكة تقديم الطعام، قذفته بشتائم لا أول لها ولا آخر مثل الوحش الجاحد والرأسمالي المتحجر القلب وغيرها. عوى فايولا ومن ثم نزل من الكرسي واستلقى على الأرض، حتى تتم تنفيذ حكمها الغامض عليه. لم يحدث أن فر وهي تضربه، ولا أن يحمي

نفسه منها. شعرت وأنا أشهد هذا الرعب بكل جنونه أنني في حلم. انكمش فايولا، وانتفض وهو يضرب، مرعوبا حد أنه عجز عن ابتلاع اللقمة التي في فمه. سقطت اللقمة من فمه على سجادة والدتي المفضلة. ظننت و إيمرنس تضربه بالشوكة، أنها في لحظة ما ستطعنه بها. حدث كل هذا في لمح البصر. تملكني الذعر حتى بدأت أصرخ. عندها، جلست العجوز إلى جانب فايولا، ورفعت رأسه وقبلته. بكى الكلب لانقضاء هذا الكابوس، ولعق اليد التي ضربته.

لم أطق ما رأيت حينها. عليها أن تجد جمهورًا آخر يحضر ثورات غضبها هذه. وفي سبيل الهروب من هذا الكابوس سريعا، طلبت منها بأدب أن تزيل بقايا كل شيء من غرفة أمي، و أن تعفينا فضلًا لا أمرًا من أن نلعب أدوارًا داعمة، أو أن تستخدم منزلنا مسرحا لكل هذه الحلقات التي لا تطاق من حياتها الخاصة. لم يكن هذا ما قلته لها بالتحديد، بل صغته لها بطريقة تفهمها هي، وفهمتها.

سمعت وقع خطاها وأنا في غرفة النوم، ولكنني لم أستطع تبين ما كانت تقوم به. عرفتُ بعد ذلك أنها كانت تضع الحلويات والشمبانيا وطبق شرائح اللحم البارد في الثلاجة من أجلنا. وأما الطبق الذي أكل منه فايولا، فقد أفرغته في حاوية الطعام الخاصة به. لم يحرك فايولا بعد تلك العاصفة عضلة واحدة، بل بقي ساكنًا. هدأ كل شيء أخيرًا. ظننت بأنها غادرت، ولكنها كانت تستعد للخروج وتضع الرباط حول رقبة الكلب. اعتادت أن تأخذه في جولة مشي طويلة بعد كل مرة تضطرب فيها علاقتهما. تقوم بذلك حتى لو كان يعني تراكم أطنانِ الملابس التي عليها أن تكويها أو العجين الذي لا بد أن تعده. كانت قد عادت إلى طبيعتها حين نادتني لتخبرني بأنها ستذهب إلى الغابة معه، واعتذرتْ عن كل شيء. لم يمر علي أحد يعتذر بكرامة هكذا،

ودون ذل أو حتى شعور بلوم الذات. لم يفارقني بعدها الشعور بأنها كانت تسخر مني لا تعتذر، وأنني أنا لا هي من كان قد وقع في الخطأ. وبالطبع، لم تقدم أي تفسير لما حدث، وغادرت مع فايولا.

في ذلك المساء، وبعد أن أخبرت زوجي بما حدث، هز كتفيه غير آبه بما حدث. قال أنني أجلب المتاعب لنفسي، وأنني آخذ كل شيء وأي شخص بجدية كبيرة، وأنني لطالما تدخلت في شؤون الآخرين. كان يتوجب على إيمرنس أن تستضيف الزائرة السرية هذه في حديقتها. الزائرة التي كانت أهم بكثير من حضرة المقدم، الذي لم يستحق غرفة أمي. لقد طبخت وخبزت دونما توقف، وبلا فائدة لضيفة لم تحضر. يجب علي أن أعيد لها كل ما وضعته في الثلاجة. لم تكن لدى زوجي أي رغبة في بقايا طعام ضيفتها؛ لم يكن مثل فايولا.

شعرت بأنه كان محقًا ومخطئا في الوقت ذاته فيما قاله. حققت رغبته، ووضعت في طبق ما كان في وسعي أن أحمله من طعام لأعيده لها. كنتُ غاضبة إلى حد كبير من العجوز، ولكنني رأيت في عينيها أيضًا ذلك المساء أن ما حدث كان أسوأ كابوس بالنسبة لها. لم أنس نحيبها ذاك. في الساعات التي انقضت بعد خروجهما، هدأت أعصابي ، وبدأت أفكر في الأمر بشكل مختلف. ربما كانت هناك مسألة أهم وأعمق من أن نظل نغذي مشاعرنا السيئة تجاه بعضنا. ربما لم يكن ما شهدتُ في تلك الليلة، وفايولا على طاولة الطعام يأكل، مسرحية عادية. ربما عبرت المأدبة عن شعور أعمق، أمر أشبه ما يكون بالأساطير. عندما قلّبت الأمر في رأسي، لم أعد أنظر لإيمرنس على أنها سيدة تمنح كلبها مكافأته، بل كانا أشبه ببطلين من أسطورة إغريقية، يؤديان دورين في احتفال فظيع. لم يكن اللحم الذي أكله فايولا مجرد طعام، ولا مجرد أحشاء حيوان ما، بل تضحية بشرية وكأن إيمرنس بهذا الفعل

تطعم الضيفة نفسها للكلب، مع كل مشاعرها وذكرياتها العزيزة. الضيفة التي لم تحضر تلك الأمسية، وأرسلت تعتذر دونما تكلف أو تقدير، جرحت أهم جزء من إيمرنس. الجزء الذي لم تتحدث عنه أبدًا. كان فايولا البطل الإغريقي الغافل جاسون، وتحت غطاء رأس الساحرة ميديا -إيمرنس- نار الجحيم تصطلي.

لم أكن سعيدة بإعادة الطعام لها، ولم أكن راضية في المقام الأول عن إعطائها إيانا هذه البقايا. إنني من الريف أيضًا؛ وتزعجني بعض الأمور مثلها تماما. أدركت بأنها ستشعر بالإهانة حين أعيد لها الطعام، ولكنها يجب أن تعرف أنها تجاوزت الحد معنا.

كان الطبق الذي حملت فيه الطعام ثقيلا جداً، وشق علي معه فتح الباب. ظل الناس يحدقون في وأنا أقطع الطريق بيننا. لم يكن هناك من أثر لإيمرنس في الخارج، ولكن سمعت صوت حركتها من خلف الباب الموصد. سمعتها تتحدث، وتفسر الأمور على ما يبدو لقطتها، كما تفعل عادة مع فايولا. رفعت صوتي حتى تسمعني واعتذرت منها وقلت بأنه لا يمكننا تناول الطعام، وأنني سأضعه على طاولة الحديقة لكي تخرج وتأخذه. فتحت العجوز الباب، وخرجت بسرعة من الفجوة الضيقة حتى لا يخرج قطها أو أنظر أنا إلى الداخل. خرجت مرتدية ملابسها العادية لا تلك الأنيقة التي ارتدها للضيفة، ولم تنطق حرفًا. ذهبت إلى المخزن وأحضرت مقلاة كبيرة ووضعت فيها كل البقايا .. الكعك مع شرائح اللحم والسلطة. توجهت بعد ذلك إلى الحمام وسمعتها وهي ترمي بكل شيء في المرحاض وتسحب ماءه. كان فايولا يقف بالقرب، ولكنها لم تمنحه شيئًا. ومنعته من الاقتراب منها. بدا الأمر وكأنها لم تره من قبل، حتى أنها طردته بعيدا.

مرة آخرى، تملكني خوف عظيم منها. أحكمتُ قبضتي على رباط فايولا،

رغم يقيني من أنه سيقف في صفها إذا ما عاودتها تلك النوبات الهستيرية مجددا. بعد أن تخلصت من بقايا الطعام، بدأت في سكب الشمبانيا بالقرب من الباب. بدأ الكلب ينبح بجنون مع صوت انفجار القناني وهي تفتحها. رمتها جميعا في سلة القمامة، بعد أن غسلت الأرض بكل هذا الخمر. أضحت حديقتها حانة مع كل تلك الرائحة. خلال هذه الخمس عشرة دقيقة، جلبت الصدفة شوتو وأديلكا وبوليت، ولكنهن عدن أدراجهن حين رأيننا. لم يفهمن ما كان يجري، ولم نوح لهن بأية راحة أو ثقة في أن الوضع طبيعي، لا إيمرنس وهي تسكب الخمر الأحمر على الأرض، ولا فايولا وهو ينبح، ولا أنا الواقفة كتمثال. كلما ابتعدن أكثر، كان الوضع أفضل بالنسبة لهن. لم يقتربن أبدًا.

أيقنتُ حينها أن ما حدث في تلك الأمسية في غرفة والدتي، كان جريمة قتل لا محالة. اتخذت إيمرنس الوليمة وسيلة لتصفية حساباتها مع الضيفة. بعد عدة سنوات من تلك الحادثة، سنحت لي الفرصة للقاء هذه الضحية، شابة ممشوقة القوام وجذابة، تمشي إلى جواري متعثرة في موكب يوم الصلاة للأرواح. ربما كانت تعرف كيف تتكيف مع مصاعب أشد من مجرد زيارة لمرقد إيمرنس الأخير، ولكنها اختارت أسوأ الأوقات للقيام بذلك. وضعتْ باقة الورد التي كانت تحملها في المدفن الذي كان تحفة من خيال. وضعتها دون تفكير في أنه باقة الورد البديعة تلك سيسرقها أحدهم حين يحل الظلام. أخبرتني بمدى أسفها على عدم تمكنها من تلبية دعوة إيمرنس في ذلك المساء. كان في وسعها المجيء ورؤية العجوز ولكنها سيدة أعمال، تولت أمور المصنع بعد أن تقاعد والدها وعمها. كان موعد زيارتها تلك قد ألغي بعد أن عُلقت كل الاتفاقيات الأوروبية. لم يكن من داع للمجيء إلى بودابست لزيارة العجوز وحسب؛ لم تكن نيويورك قريبة من بودابست إلى

هذا الحد.

تناولت الشابة وجبة العشاء لدينا. لم يكن ما قدمته لها يضاهي مأدبة إيمرنس تلك. أخبرتها عن مدى ألم العجوز حين تخلفت هي عن تلبية الدعوة، وأثار هذا استغرابها؛ لم تغيير بسيط في الأوقات يسبب كل هذا؟ إنه أمر يحدث كثيرًا في عالم الأعمال كما قالت. شعرتُ ونحن في المدفن قبل أن نعود إلى المنزل بريح باردة ومخيفة. بدا الأمر وكأن العجوز كانت ترفض الشمعة التي أشعلتها لها الشابة. بمجرد اقترابها من قبر إيمرنس، هبت الريح وتساقطت قطرات المطر من فروع الأشجار على رقبتها. كنت في مواقف آخرى لا تحصى، أشعر بشبح إيمرنس غاضب ينهرنا بوقاحة على ضميرنا الذي يؤنبنا.

أكثر ما كان يزعجني هو أن العجوز كانت لتتفهم الأمر وتقبل اعتذارها لو أن الشابة التقت بها وبينت لها نواياها الطيبة وأنها لم تقصد باعتذارها عن الحضور إهانتها، لو أخبرتها بأنها لم تكن مراهقة لا تستحق كل هذه التحضيرات من أجلها. لو قالت لها بأنها لم تعد تلك الطفلة الصغيرة، بل سيدة أعمال تحاول الموازنة بين حياتها وعملها.. سيدة تدرك فضل العجوز الخادمة عليها وعلى عائلتها.

لم يكن هناك استغراق في الذكريات ولا دموع، ونحن نتشارك وجبة العشاء قليلة السعرات تلك. كانت آسفة على عدم لقائها بالعجوز، فهي لا تتذكر أي ملامح لها. كانت صغيرة حين كانت إيمرنس تعمل خادمة لديهم، ونسيت ملامحها رغم حبها العظيم لها آنذاك. ماذا كانت لتقول هذه الشابة يا ترى لو علمت ما فعلته العجوز في تلك الأمسية وغضبها الهستيري بعد أن شعرت بحبها يرفض من قبلها. ماذا ستقول لو علمت عن إيمرنس التي قتلتها برمي اللحم لفايولا وكأنه لحمها، لحم الطفلة التي أنقذتها يومًا،

ووجدتها بعد سنين طويلة لا تستحق أي شيء.

أشعر أن دهرًا انقضى منذ ذلك المساء .. زمنا طويلا جداً. أحسستُ ليلتها بعد أن قفلت راجعة إلى المنزل أنني أخطأت، وفعلت أمرًا مهينا. كان علي أن أرفض طلبها استضافة أحدهم في منزلنا. ما كان علي أن أعاونها في جعل أي أحد يعتقد بأنها عاشت مع عائلة لا وحدها؛ بفعلتي تلك أقمتُ للغموض المنيع الذي يحيط بها جدارًا آخر. وحين فعلتُ ما فعلت وسايرتها، لم يكن من الصواب أن أرمي في وجهها شيئًا لم ترد رؤيته أبدًا، شيئًا منحته لنا .. يا لهذا الكبر الأحمق الذي يحتلنا في أوقات كتلك! ربما كان في وسعها تجاوز الأزمة التي كنت أجهل سرها بشكل أسرع، لو أننا قبلنا البقايا وشعرتْ أن كل جهودها لم تذهب سدى. كانت أصناف الطعام التي أعدتها مميزة ونادرة، لا ترى حتى في أشهر الفنادق. كان من الخطأ رمي كل هذا في وجهها .. في ذلك اليوم كسر أحدهم قلبها سواء كان ذلك بسبب أو دون سبب. ربما كان هناك تفسير بسيط ومنطقي لما حدث. لم تكن إيمرنس ترى الأمور من الزاوية ذاتها التي أراها. كانت قادرة بشكل مذهل على التقاط العديد من الأمور التي لم ينتبه لها أحد؛ وكانت في نفس الوقت عاجزة عن التقاط العديد غيرها. لم عاملتها بهذه الشكل؟ حتى فايولا الذي أوسعته ضربا لم ينقلب عليها. فهم الكلب كل شيء. التقط كل تفصيل بطريقة عجيبة وغامضة.

كنت مستلقية على السرير، وزوجي غط في النوم منذ مدة. لم يكن مزاجي رائقا، ولم أستطع الاسترخاء أو النوم. نهضتُ من فراشي وارتديت ملابسي. سمعتُ صوت فايولا في الغرفة الثالثة وهو ينام بالقرب من سرير أمي، عندما بدأت أتحرك في المنزل. قام بلمس الباب بهدوء، وكأنه لم يرد إيقاظ زوجي. استحسنت فكرة أخذه معي. صحيح أن وجهتي لم تكن بعيدة ولكنني أخشى الخروج ليلا لوحدي. هيا بنا يا صغيري، لنذهب معا.

خرجنا مثل أبطال مغامرات طفولتي في الملحمة الشعرية الإنياذة، مثل البطل أينياس في المجلد السادس. ربما كانت هذه هي اللحظة في علاقتنا، وحياتنا أيضًا التي تحتم علينا فيها فعل أمر ما. في الظلام الدامس، مشينا الهوينا. كانت البوابة مغلقة. قمت برن الجرس، وانتظرتها لتأتي. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير، ولكن كان في وسعي أن أرى مصابيح حديقتها مضاءة حتى ذلك الوقت. لا بد وأنها مستيقظة؛ لا ينتهي يومها حتى تطفئها. خرجت فور سماعها الجرس، ووقفنا تفصلنا أعمدة البوابة الحديدية. كان فايولا يلهث بشدة، مقدما يديه على الدرجة الحجرية للبوابة.

سألتني بنبرة عملية، ولكن ملطفة بعض الشيء قائلة:

-هل صاحب السعادة مريض؟

-لا يشكو من شيء. أود أن أدخل.

سمحت لي بالدخول، وأغلقت البوابة خلفنا. صحيح أنها للتو خرجت من بيتها، ولكن حتى في ذلك الوقت المتأخر من الليل، حرصت على إغلاق الباب خلفها. اقترب فايولا من الفجوة بين الباب والأرض، وبدأ يدس أنفه بحثًا عن القط. كنت أود أن أنطق كلمات موزونة استرضيها بها. وددت لو قلت لها أنني كنت أجهل ما حدث حينها ولكنني آسفة على عدم تفهمي حزنها في تلك الأمسية. كنت أود أن أبين لها أنه رغم عدم علمي سر كل حزنها هذا، إلا أنني شعرت بالأسف من أجلها. ولكن تلاشى كل هذا حين وقفت أمامها. لا أجيد الكلام سوى على الورق، وأما في الحياة فلا قدرة لي على تقصي الكلمات المناسبة والإمساك بها.

قلت أخيرًا:

-أنا جائعة. ألديكِ ما يؤكل؟

ضد كل التوقعات المنطقية، جاءت ابتسامتها التي اضاءت على وجهها مثل أشعة الشمس حين تخترق السحب الرمادية بعد عاصفة. أدركت لحظتها وللمرة الأولى أنها نادرًا ما تبتسم. هرعتْ إلى الحمام أولا، وسمعتُ صوت الماء. لا بد وأنها تغسل يديها -لم تكن تمس الطعام إلا بعد أن تغسلها- ومن ثم ذهبتْ إلى مخزن المؤن الذي لم تضع فيه الطعام وحسب، بل وأقمشة الكتان أيضًا. أراد فايولا أن يتبعها ولكنني أحكمت قبضي على الرباط، وأمرته في أن يبقى في مكانه. عادت إلي وهي تحمل مفرش مائدة أصفر ومطرز من الجهتين، وأطباق وملاعق وشوك وسكاكين، وطعام غير ذاك الذي بقي بعد الضيفة. جاءت تحمل قطعة لحم مشوية ومتبلة بكرم.

كانت لذيذة بشكل يفوق الوصف. أكلت بنهم كبير، واستولى فايولا على العظم. قدمت لي العجوز، إلى جانب قطعة اللحم، كأس نبيذ لا من العبوات التجارية العادية بل من دمجانة فاخرة، وشربته بنهم أيضًا. لا أميل إلى شرب الكحول كثيرًا، ولكنني في تلك الليلة توجب علي أن أقبل أي شيء تقدمه إيمرنس لي، وإلا فلا نفع من زيارتي لها. لم أعرف من مثلتُ بالنسبة لها على تلك الطاولة، ولكنني كنتُ أحل محل شخص ما، محل الضيفة التي لم تحضر، الشابة التي تكبدت من أجلها العجوز كل هذا العناء في التحضير والطهي. حاولت جهدي لعب دور شخص لم أقابله قط. لعبنا لبعض الوقت مع فايولا، وحين كنت مستعدة للعودة إلى منزلي، رافقتني إيمرنس إلى هناك. لم نتحدث في أمر غير فايولا، وكأنه أهم ما نملك. تحدثنا عن طريقته في المشى، واثنينا على قوامه الجميل وفطنته. لم نتحدث عن الضيفة أبدًا. حين وصلنا إلى منزلي، ناولتني هي رباط فايولا وانتظرتني حتى دخلت حديقة البناية،

وقالت معطية كل كلمة حقها في النطق وكأنها تقطع عهدا بأنها لن تنسى ما فعلتُ من أجلها في هذه الليلة العجيبة.

لم يشعر زوجي بشيء وأنا أعود أخيرًا إلى الفراش، ولكنني عانيت طويلا حتى يعود فايولا إلى مكانه المعتاد. كان يضج بالحماسة بعد كل ما حدث في ذلك اليوم. استسلم أخيرًا للنوم ولكن ليس في غرفة أمي، بل في الممر الذي يؤدي إلى الحمام. تيقنت من أنه نام حين بدأ يشخر كالرجال.

التخلص من الخردوات

منذ ذلك اليوم، أحبتني حق الحب، دون قيود أو حدود، حبا عميقا وإدراكًا حقيقيًا لما ينطوي عليه من التزامات ومخاطر على حد سواء. صبيحة يوم الأم من ذلك العام، دخلت إيمرنس غرفة نومنا على حين غفلة. حاول زوجي جاهدا الاستيقاظ والاعتدال في جلسته دونما حظ، لذا اعتدلت أنا سريعا وبقيت أحدق فيها متعجبة، وهي تقف أمام النافذة المفتوحة ونسيمها العليل. جاءت في أبهى حلة، وقادت فايولا إلى السرير. كانت قد وضعت على رأسه قبعة سوداء رخيصة بطرف مقوس، ومزينة بوردة قطفت للتو من الحديقة. وأما طوق رقبته فقد زينته بالكامل، بإكليل من الورد. وأصبح هذا من التقاليد التي تقوم بها في منزلنا كل عام، وهي تردد إحدى الأغاني التقليدية التي يغنيها الناس في الأعياد.

كانت تردد تلك الأغنية التي يُقدم فيها الشكر للرب و الآباء والأمهات والمعلمين على الحب والطعام والسرير الدافئ، والتي اعتادت أن تلقيها شعرًا في المدرسة في المناسبات العامة، لأساتذتها في المدرسة الريفية البدائية في وقت ما بين عام 1905 إبان الثورة الروسية وبداية الحرب العالمية الأولى. ترددها في كل عام بصوت قوي وصاف. كان فايولا يحاول في كل عام التخلص من القبعة التي الرب وحده يعلم من أين أتت بها، ولكنها لم تكن تسمح له. وفي كل عام، كانت تردد الخاتمة نفسها: أنا الطفل الصغير، أشكركِ على كل ما قدمتهِ لي .. تفضلي هذه الوردة التي في قبعتي يا سيدتي.

كانت هناك وردة تزين قبعته في كل عام. ومنذ ذلك الحين، يتردد علي منظرهما في يوم الأم، في كل مرة تقع فيها عيني على قبعة سوداء. أتذكر ساعات الصباح الأولى والنسيم العليل العطر، وإيمرنس في أبهى حلة وكلبنا بطوق عنق مزين بالورد، وبأذنين تتدليان تحت القبعة. كانت العجوز قد حددت وقتها الأبدي على الأرض معي. كل فجر هو لها، بضيائه الناعم ونداه.

كان تقليدها هذا قد أثار غضب زوجي، حد أنه أصبح يتحاشى النوم على السرير ليلة يوم الأم. كان ينام على كرسيه في المكتب أحيانا، أو ينعزل في غرفة أمي ويغلق الباب خلفه في أحيان آخرى. إن ما جعله يبغض زيارة الصباح هذه، هو أن تراه إيمرنس في السرير دون بدلته الأنيقة. ولكنني أعتقد أن للحب الذي أغدقته علي العجوز حينها، دورًا كبيرًا في انزعاجه.

لم يكن حبها لي عاديًا أو مرتجلًا، بل يبدو وكأنها تعلمته من الكتاب المقدس، رغم أنها لم ترد إمساكه قط، ولم تفضل الجلوس بالقرب من رجال الكنيسة والدين خلال سنواتها الثلاث في المدرسة. لم تكن إيمرنس تعرف كلمات القديس بولس، إلا أنها عاشتها. لم أتخيل بأنه في وسع أحد أن يحبني دون شروط، كما يحبني أركان حياتي الأربعة والديّ وزوجي وأخي المتبنى أغانتشوش. دفعتني مشاعرها إلى التفكير في فايولا، وهو يتخبط وحيدا في متاهة مشاعره الخاصة دون أن يستطيع التعبير، ولكنه ليس كلبي بل كلبها. كانت، بغض النظر عما بين يديها من عمل، ترمي كل شيء وتهرع إلي إذا كنت في حاجة لأمر ما، ولا تغادر حتى تتيقن من أنني لم أعد أحتاجها. وكانت كل مساء، تحضر طعاما تعلم أنني أحبه وسأستمتع به. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت تحضر معها هدايا غير متوقعة أو مُستحقة.

قام بعضهم في منطقتنا، بتحديد يوم ليخرج الناس كل ما تحمل منازلهم

من خردوات، ويتخلصون منها. وقضت إيمرنس ذلك اليوم وهي تجوب الشوارع، بحثًا عن كل ما هو مثير للاهتمام بالنسبة لها، أو مصمم لغرض غريب وغير اعتيادي. غسلت الغنيمة التي حظيت بها جيدا، وأصلحتها وهرّبتها إلى منزلنا. كان هذا قبل أن تضرب موجة الحنين إلى الماضي البلاد، ويرتفع ثمن كل ما كان يعد خردة. كانت العجوز ماهرة في تصيد هذا النوع من الخردوات. في صباح أحد الأيام، استيقظت لأجد في مكتبة المنزل التالي: لوحة بإطار منكسر، اكتشفتُ أنها ثمينة بعد مدة، وفردة حذاء شتوي واحدة من الجلد، وصقر متشبث بجذع شجرة، ووعاء لغلي الماء مزخرف بتويج دوق ما، وأخيراً صندوق زينة لممثلة قديمة، أيقظنا العطر القوي الذي فاح منه. كانت هذه بداية يوم صادمة بالنسبة لنا. كان فايولا ينبح عاليا، بعد أن رافق إيمرنس في جولتها هذه بين الخردوات، وشم كل شيء جيدا. ولكنها حين عادا إلى المنزل أدخلته إلى غرفة أمي، وأغلقت الباب حتى لا يزعجها، وهي تجهز الغنيمة التي أحضرتها كمفاجأة لنا، وتنظفها للمرة الثانية، وتضعها في مكانها المناسب. كان من بين الغنائم أيضًا قزم حدائق أسطوري، وتمثال كلب بني متهالك نوعا ما. كان الحماس الذي أظهره فايولا، هو ما دعانا إلى النهوض من السرير أخيرًا. وما جعل الجميع يفقد أعصابه في ذلك اليوم، هو أن زوجي كان أول من يخرج من غرفة النوم لا أنا. كان الكلب ينبح أمام باب غرفتنا، راغبًا في الدخول. وأما إيمرنس وبطريقتها المتقنة في تقديم الهدايا، كانت قد وضعت الكنوز التي عثرت عليها في أماكنها واختفت. فقد زوجي صوابه حين دخل إلى المكتبة التي كانت الكتب فيها تغطي جميع جدران الغرفة، ووجد فردة الحذاء والقزم وقد وضعتهما العجوز على السجادة يحدقان به، قبالة كلاسيكيات الأدب الإنجليزي الخاصة به. كانت إيمرنس قد أزاحت رواية يوليسيس للخلف، حتى تضع وعاء الماء الذي ملأته بأزهار بلاستيكية. وأما الصقر فقد وضعته فوق المدفأة.

سماع نبرته غير الملطفة للمرة الأولى دفعني إلى الإسراع نحوه. لم أشهد زوجي قط يعبر بهذه القوة، ولم أدرك من قبل الغضب النامي تحت دثار الهدوء الذي يلفه. لم يكتف بتقديم تفسير منطقي لما أوقظه من نومه، بل أخذ نقاشنا منحى فلسفي واسع. قال ما جدوى العيش إذا أمكن حدوث كل هذا؛ أن يستحل قزم أسطوري سجادة مكتبه، وتقف إلى جانبه فردة الحذاء العجيبة تلك. كان يقفز في الكلام من موضوع إلى آخر، وكان صباحنا ذاك فظيعا. لم أكن أعلم ما يتوجب علي فعله. حاولت عبثا أن أبين له أن إيمرنس عبرت عن نفسها، بطرق تتواءم مع اهتماماتها. كانت كل الخردوات التي يجب أن يقبلها، نابعة من حبها. كانت هذه هي طريقتها العجيبة في إظهار مشاعرها، واختياراتها هذه ما هي سوى انعاكس لنظرتها الخاصة. وأضفت بأنه ما من داع للتحدث عبثا هكذا دون منطقية، ولا حاجة للصراخ. كان الوضع رهيبًا. قلت له أخيرًا بأنني سوف أجد حلًا لكل هذا.

اندفع زوجي خارج المنزل. شعرتُ بالأسف عليه؛ لم أره قط مستاء إلى هذا الحد. وبعد مرور زمن على ذلك اليوم، وحين بدأ يمزح حول الأمر، أخبرني أنه رأى إيمرنس تكنس الشارع، حين خرج من المنزل غاضبا. حيّته ولكنه أسرع بعيدا عنها. ابتسمت له كما لو كان ولدا صغيرًا عديم التربية، فرجل مثله حري به أن يرد التحية. لا بأس سيتعلم مع الوقت. كانت علاقتنا الزوجية لغزا محيرًا بالنسبة للعجوز. لم تفهم قط لم ورطت نفسي بها. ولكن توجب عليها أن تقبل حالنا تمامًا كما هو، كما قبلت أنا بابها المقفل. إذا كانت طبيعة صاحب السعادة بهذا الشكل، فما باليد حيلة؛ ليس هناك من رجل عاقل في هذا العالم.

من بين كل الهدايا التي أتت بها إيمرنس، كانت هناك هدية واحدة لزوجي، فشلت في الانتباه لها من بين كل تلك الخردوات. كانت هديته نسخة

رائعة ملفوفة بالجلد، من أعمال الكاتب الإيطالي توركواتو تاسو. خبأتُ هذا الكتاب في رف بين كتبه، وبدأت أفكر في أمر الخردوات الآخرى. احترت في البداية حيال ما سأفعل بها. أين أضع القزم الذي كان يحمل مصباحا، ويرتدي مئزرًا أصفرًا رثا، وقبعة على قمتها شُرّابة. كنتُ قد زينتُ مطبخي بشكل يرتبط بي وبتاريخ عائلتي؛ بقطع ورثتها من جدتي الكبرى. كان يضم كل شيء: علبة للدقيق، وأداة لتشكيل قواقع من المعكرونة، وآلة لصنع السجق، وميزانا معلقا بأوزان قديمة، ومطحنة قهوة من طراز بيجو. كانت المساحة الفارغة تحت حوض الغسيل تتناسب وحجم القزم. وأما وعاء غلي الماء الصغير، فقد كان مناسبا لوضع مساحيق الجلي، وفي صندوق الزينة، قررت وضع مستحضرات التجميل الخاصة بي.

بقى أن أجد حلا لتلك اللوحة، والصقر والحذاء الشتوي. أوليت مشكلة الصقر لفايولا، الذي أثبت أنه كان جديرًا بحلها. ففي ظرف دقائق من السماح له بالخروج من غرفة أمي، كان قد مزق الصقر ولم يبق منه سوى الفتات. تمنيت سرًا أن لا تضره المواد الكيميائية التي استخدمت لتحنيط الصقر، ولكنه كان قديما جداً، وفقد السم فيه أثره لا محالة. التفتُ بعدها إلى اللوحة وأخرجتها من إطارها. كانت اللوحة رسما لشابة مضطربة، تقف بالقرب من محيط أسود يتخبط موجه، تقف وهي تحدق في الزبد بنوايا كئيبة، ومن خلفها قصر، وصف من أشجار السرو المائلة على منحدر حاد. قمت بتعليقها على نافذة باب المطبخ الزجاجية. وأما الحذاء الشتوي الطويل، فقد وضعته عند مدخل البيت. لا نملك مكانا نضع فيه مظلاتنا حين نعود، ولكن هذا الحذاء الذي لمعته إيمرنس، يبدو مكانا مناسبا لها. إن لوحة الشابة المضطربة على نافذة باب المطبخ، ومطحنة القهوة العتيقة، والقزم تحت حوض الغسيل، ووعاء شحم الخنزير، الذي نقش عليه بحروف كبيرة:

تحب زوجها من تطبخ بشحم الخنزير، وزين في زمن مضى مطبخ عمتي، كان مفاجئا لزوارنا، ويدفعهم إلى التصرف بإحدى طريقتين. إما الاندهاش حد العجز عن الكلام، أو الضحك المفاجئ. حتى جدران مطبخنا كانت غير عادية. لم تكن مغطاة بورق الجدران أو الطلاء، بل ورق مشمع ومزين برسومات لسناجب وإوز ودواجن آخرى. كان معظم زوارنا فنانين، وجدوا الجنون الذي في المكان، مألوفا بالنسبة لهم. وبالنسبة لأقاربي الذين لا يخطئون أبدًا، ولا يعرفون طريق الخيال، فقد قطعت علاقتي بهم منذ زمن بعيد. كانت جهة المعارضة الوحيدة لكل هذا في اعتقادي هي إيمرنس.

كان من المنطقي أن ترفض قلب المطبخ ومدخل البيت بكل جنون هكذا، ولكنها سعدتْ منذ المرة الأولى التي رأت فيها كل شيء، واستمتعت بالتنقل بين مقتنيات المسرح الخاص هذا. كانت لتستمتع بالعالم الغريب والخيالي للألماني إرنست هوفمان. كانت العجوز تميل لكل شيء يشذّ عن المألوف، وكان منحي إياها تمثال عرض الأزياء الخاص بالخياطين، والذي كان يعود لأمي من أعظم أحداث حياتها. حملتْ التمثال حمل الفارس المنتصر علم بلاده، ومضت إلى بيتها. لم أفهم سر ميلها لجمع خردوات لا نفع منها، ومن ثم امتناعها فتح باب بيتها. كنتُ ودون مبالغة، مصدومة حين منحتني شرف أن تطلب مني شيئًا. فكما قلت سابقاً، كانت ترفض قطعا أخذ أي شيء منا. لم أر هذا التمثال إلا بعد وقت طويل، وفي أكثر اللحظات التي عشتها سريالية، وأنا أمشي بين خراب حياتها. كان التمثال عديم الملامح، والمصمم وفق قياسات جسد أمي الجميل، واقفا في حديقتها. تمكنت من ألمحه قبل أن يرشوه بالبنزين ويشعلوه، لأرى رموز حياتها. كانت صورنا جميعا معلقة على صدر التمثال: عائلة غروسمان وزوجي وفايولا وحضرة المقدم وابن أخيها والخباز وابن المحامي وصورة لها وهي شابة بشعرها الذهبي ورداء

الخدم وهي تحمل طفلا بين ذراعيها.

***

لم يكن شغف إيمرنس بالغريب من الأشياء جديدا. ما كان جديدا بالنسبة لي صباح ذلك اليوم، هو أنها كانت تجمعها لا لنفسها، بل لي. لم أكن أجرؤ على الاساءة لها، ولم تكن لدي نية لفعل ذلك في المقام الأول، ولكن تمثال الكلب بأذنه المكسورة لا يمكن أن يبقى ظاهرًا للأعين. كان حاله بائسا، ويمثل خطأ ارتكبه فنان هاو ذو نظرة مضطربة للعالم. ما كان أمامي خيار سوى أن أخفيه خلف المِدقة والهاون. كنت متيقنة من أن زوجي سيلقي به في حاوية القمامة، لو حدث ورآه. كان هذا التمثال يفوق الاحتمال.

لدى عودة إيمرنس، كنتُ أكتب على الآلة الكاتبة وحدي. جاءت وسألتني:

-هل رأيتِ ما رمى أولئك الأغبياء من أشياء في الشارع؟ نجحتُ في أخذ جميع الأشياء المميزة ولم أبق شيئًا، ألستِ سعيدة بها لديكِ الآن؟

كيف لي أن أكون سعيدة؟ لم يمر علي صباح رائع كهذا الصباح من قبل! لم أجبها وتابعتُ النقر على الآلة، وكتابة جمل لا معنى لها ولدت قبل أوانها، تحت أصابعي المستاءة. ذهبت إيمرنس وجابت المنزل غرفة غرفة، لترى أين وضعت كل شيء. أبدت اعتراضها على وضعي القزم الأسطوري واللوحة في المطبخ، وضربت فايولا على رأسه لتدميره الصقر. لم يستطع المسكين أن يخبرها، أنني أنا من وضع الضحية عند أرنبة أنفه. لم يثر استيائها أي شيء مما سبق، ولكن أكثر ما كان يهمها حينها، هو المكان الذي وضعتُ فيه التمثال الجميل للكلب. أخبرتها أنني خبأته، لأنه لم يكن جميلًا كفاية. وقفتْ قبالة مكتبي وصرخت في وجهي:

-لهذا الحد إذا أصبحتِ أسيرة رأيه، وتخشين القيام بأي شيء من أجلكِ؟ أ لأن صاحب السعادة لا يحب الحيوانات، لا يمكنكِ الاحتفاظ بتماثيل لهم؟ أهي محرمة هنا؟ هل تظنين بأن هذه الصَدفة القبيحة أجمل من التمثال؟ تبقينها على مكتبكِ، ولا تخجلين من وضع الرسائل والدعوات فيها. ترفضين الكلاب إذن وتقبلين بالأصداف! أبعديها! لا أريد أن أراها وإلا هشمتها يومًا. كم أبغض ملمسها.

انتزعتْ الصدفة من أمامي. كانت صدفة لحيوان النوتيلوس، ومثبتة على قاعدة من المرجان. كان بيتها الأول هو منضدة ماريا ريكل قبل أن تحظى بها أمي، بعد أن أقتُسم كل ما في شقة عائلة كيسمستر من تحف. حملت إيمرنس الصدفة بكل تقزز، ووضعتها في المطبخ بكل الرسائل التي تحملها، بين دقيق السميد وبودرة السكر. وعادت تحمل الكلب، ووضعته على مكتبي مكانها. كان ما فعلته يفوق صبري واحتمالي. كنتُ قد قبلتُ بها في بيتي وفي حياتي، ولكن لا يمكن لها أن ترتب ما حولي كيفما تشاء. قلت لها بنبرة أكثر جدية من المعتاد:

-إيمرنس! أعيدي هذا الكلب إلى الشارع الذي وجدته فيه من فضلك، أو أعيديه مكانه إن لم ترغبي في التخلص منه. إنه ليس سوى خردة تجارية، وتعكس ذوقا فظيعا ولا يمكن أن تبقى هنا. ليس صاحب السعادة وحده من لا يطيق رؤيته، بل وأنا أيضًا. إنه ليس تحفة فنية بل فنا هابطا.

-فن هابط! ماذا تعنين بالفن الهابط تحديدا؟ وضحي لي.

حاولت جاهدة أن أجد طريقة أبين لها عيوب هذا الكلب البريء، وحجمه غير المتناسب، والمصنوع برداءة.

-إن الفن الهابط يتمثل في شيء مزيف إلى حد ما، صُنع ليمنح سعادة

مبتذلة وسطحية. إنه شيء مقلد لا أصالة فيه، يوجد لحل محل الأصل.

سألتني بنبرة ساخطة:

-هل تقصدين أن الكلب مزيف؟ يفتقد الأصالة؟ ألا ترين بأنه يمتلك كل شيء؟ يمتلك الأذنين والأقدام والذيل! رغم كل هذا لا ترين عيبا في امتلاك رأس أسد من النحاس، دون أن يكون له جسد، ليس هذا وحسب، بل وتظنين بأنه جميل، ويصفق زواركِ إعجابا به ويقرعونه كالأغبياء. ما تقولينه هو أن الأسد، برأس دون جسد ليس مزيفًا، بينما الكلب الذي يملك كل ما يملكه كلب هو كذلك! لم تكذبين علي بهذا الشكل؟ أخبريني بكل صراحة أنكِ لا تريدين أي هدية مني، ولا تأبهي بشأن أي شيء. وماذا لو كانت أذن الكلب مكسورة؟ لا تكذبي على نفسكِ على أقل تقدير. أنتِ خائفة من صاحب السعادة. يمكنني تفهم هذا الأمر، ولكن لا تخفي جبنكِ وراء تسمية الأشياء فنا هابطا!

ما كان صادمًا بالنسبة لي هو أنها لمست وترًا حقيقيًا إلى حد ما. صحيح أنني وجدت تمثال الكلب قبيحا، ولكن السبب الحقيقي وراء إخفائي له هو ما قالته. كنت خائفة من زوجي، أو بتعبير أدق خائفة عليه. لم تكن مقتنيات متحف هيراكليون الأثري بأسرها لتدفعني لتجاهل عودة مزاجه السيئ، فضلا عن تمثال كلب قبيح، لذا رحت أثرثر دون تفكير كناقد فني يساري. لم تنطق إيمرنس حرفًا واحدا، وفضّلت الصمت الساخر. قررت أن تغادر أخيرًا، بعد أن وضعت تمثال الكلب في الحقيبة التي تحملها دائما. وفي طريقها نحو الباب رأت الحذاء الشتوي، والمظلات التي يحملها. حملته ورمت ما فيه عند قدميّ. استشاطت غضبا حد أنها صرخت في وجهي:

-هل جننتِ؟ هل رأيتِ عاقلا يضع مظلات في حذاء كهذا من قبل؟ هل ظننتِ بأنني أحضرته من أجل أن تستخدميه صندوقا؟ هل أنا غبية بالنسبة

لكِ إلى حد أنني لن أعرف ما هو صحيح ولائق؟

فتحتْ باب خزانة الممر على مصراعيه، وأخرجتْ مفك براغ من صندوق الأدوات، وبدأت تفعل شيئًا ما بالحذاء. كانت تقف مديرة ظهرها لي، وهي تشتمني دون توقف. كانت هذه تجربة لم أعشها من قبل قط، ذلك أن أحدهم لم يوبخني في صغري. كانت طريقة والديّ في العقاب أكثر تهذيبا. كانا يوبخانني بالصمت لا الكلمات. كان يؤلمني كثيرًا أن لا أستحق الكلام منهما. أمسكت إيمرنس بالحذاء تحت ذراعها، كما لو كانت تنوي أخذه معها، ورمت المهماز الحديدي للحذاء على الطاولة.

-لأنكِ عمياء وحمقاء وجبانة .. الرب وحده يعلم لم أحبك، ومهما يكن هذا، فإنكِ لا تستحقين هذا الحب. ربما حين تتقدمين في العمر، ستكتسبين ذوقا رفيعا، وبعض الشجاعة.

غادرت العجوز بعد ذلك، تاركة المهماز الحديدي للحذاء خلفها. قمتُ بالتقاطه سريعا، فقد كان زوجي سيعود في أي لحظة، ولم أرد أن ينقلب مزاجه مرة آخرى. وهو في يدي، لمعت القطعة الحمراء الكبيرة التي تتوسطه. وقفتُ في حالة ذهول وأنا أمسك بهذه التحفة الفنية، كان المهماز قد زين بحجر من العقيق. لا بد وأن إيمرنس التي نظفت كل شيء بدقة، لاحظته على الحذاء. لم يكن فردة حذاء وحسب، بل ما رأته وسط المهماز، هو الذي دفعها لأن تقدمه لنا هدية. يمكن لصائغ ذهب أن يصنع منه حلي جميلة، فقد كان الحجر الكريم ذاك يحبس الأنفاس.

كل ما شعرت به وأنا أتأمل حجر العقيق الأحمر، هو الخجل نفسه الذي شعرت به من قبل. كدتُ أن ألحق بها، ولكن وقفت في طريقي هذه الفكرة: لا بد أن أدفعها للكف عن التعبير عن تعلقها بي، بهذه الطرق المجنونة. ولكن أدرك الآن، بعد مرور كل هذا الوقت، أن التعبير عن الحب لا يقتصر

على الطرق المتزنة والواضحة، وأنه لا يمكن لأحد أن يلزم غيره بالطريقة المناسبة، كما لو كانت وصفة دواء.

عاد زوجي وهو يحمل العديد من الصحف. كان قد خرج ليمشي، وينفض الغضب الذي تملكه، ومن ثم يعود إلى المنزل الهادئ. راح فور عودته، يبحث في كل الغرف ليتأكد من أن تلك الخردوات المهينة قد أبعدت. صحيح أن ما رآه في المطبخ كان مفاجأة له، ولكنه كان قد هدأ حينها، وأدرك أيضًا أن ذلك المكان، لا يمكن بأي حال من الأحوال إصلاحه. بدأت تتكشف منذ انتقالنا إلى هذا المنزل، طبيعتي المرحة، وصرت أجمع أغرب القطع. لذلك، لم يكن ليكون هناك فرق، حتى لو علقنا دمية حوت من السقف. كانت لوحة السيدة المضطربة، ووعاء غلي الماء إضافات بسيطة، تماشت مع الجو العام، الذي بدا كجو متحف علاج وظيفي صمم ليبدو كمطبخ. من حسن الحظ أنه لم ينتبه للقزم الذي كان يطل من تحت حوض الغسيل. عاد السلام إلى بيتنا أخيرًا. وأخفقت أنا مرة آخرى، في قراءة هذا الهدوء الذي كان يسبق العاصفة. كنت غافلة أستمتع به رغم وجه فايولا البائس. لم يفلح سلوكه الفاتر في تحذيري من أزمة تلوح في الأفق.

بحلول ظهيرة ذلك اليوم، تيقنت من أنه لا مناص من اصطحاب فايولا في الجولة المعتادة. لا بد وأن إيمرنس أرادت معاقبتي لذا لم تأت. قلتُ لنفسي حينها: لا يهم، سوف أخرج به أنا، وخرجت. كان الكلب يتصرف وكأن شيطانا تلبسه؛ كاد أن يفصل كفي عن ذراعي وهو يركض. ولسبب أجهله، كان هناك موكب لرجال الشرطة يقطع الشارع، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى المساحة الخضراء. وأما الرصيف، فقد كان ما يزال ممتلئا، بكل تلك الخردوات التي رماها الناس. وكان فايولا يريد شم كل شيء. وفيما نحن نقطع طريقنا بين كل هذا، وقعت عيني على العجوز التي

كانت تنحني، لالتقاط صندوق فاقع اللون. أدرت ظهري سريعا، وجررت الكلب الغاضب إلى البيت.

لم تأتِ إيمرنس ذلك المساء، بل أتانا ابن أخيها الذي يتردد على زيارتها، ومعه زوجته خبيرة التجميل بيديها الصغيرتين. كنا قد تعرفنا عليهما منذ مدة، وذلك حين أحضرتهما إيمرنس لتقدمهما لنا. كان ابن أخيها طيب القلب، لم ينزعج قط من إبعادها له مع الآخرين، عن مدينتها المحرمة. كانت العجوز تحبهما حبا جما، وتلح عليهما في الوقت نفسه، راغبة في معرفة السبب الذي يمنعهما من إنجاب المزيد من الأطفال. كان الزوجان يدخران المال من أجل شراء بيت لهما، وقضاء العطل في الخارج، ولم يكن من المناسب بالنسبة لهما إنجاب طفل آخر. لم تنفك إيمرنس عن أبدّاء اعتراضها على هذه الفكرة، ولكنها كانت تمنحهما المال، سواء كان مبلغًا بسيطًا أو كبيرًا، ليقضيا العطل أو يبتاعا سيارة جديدة. كانت قد ادخرت الكثير من المال، وكان تصلها في كل شهر حوالة مالية من أحدهم من خارج البلاد. سألتها مرة عن هوية هذا الشخص، ولكنها نهرتني وقالت بأنه لا شأن لي في الموضوع. كانت محقة.

في ذلك المساء، كانت هناك نبرة جادة تلف ضحك ابن أخيها. طلبت منه عمته أن يأتي ويخبرنا بأنه يتوجب علينا البحث عن خادمة آخرى، وأنها لن تعاود العمل لدينا أبدًا. وأضاف بأنه لا مانع لديها من العمل خلال العشرة أيام المتبقية من الشهر، حتى نجد خادمة غيرها.

لم يبد على زوجي اكتراثه بما سمع. فمفاجآت الصباح لم تسهم في تقوية علاقتهما. لم أستطع أخذ كلماته على محمل الجد. لم أصدق أنني لن أراها مجددا في منزلي. سوف تعود، قلت لنفسي. لا بد وأنها منزعجة من محاضرتي تلك عن الفن الهابط. سوف تأتي من جديد، لا شك في ذلك. إذا لم تعد من أجلي، فإنها ستعود من أجل فايولا. ولكن ابن الأخ لم يكن متفائلًا مثلي.

-أرجو أن لا تستهينا بقرارها هذا. إنها لا تعرف الهزل أبدًا. إذا ما قررت أمرًا ما، فإنها لا تتراجع عنه ما حيت. الآن وبما أنها اتخذت قرارها، فإنها لن تعود لبيتكم. لم تخبرني بما أزعجها، ولم أحاول أنا فهم الأمر أو التأثير عليها، ذلك أني يئست وتوقفت عن القيام بهذا من زمن بعيد. إنه لمن المستحيل أن أفهمها، أو أن أغير رأيها. إنها لا تدرك أي شيء من العالم الحديث، وتفهم كل أمر تقريبًا بشكل خاطئ. عندما حاولت أن أبين لها في إحدى المرات أهمية الإصلاح الزراعي، صفعتني وصرخت في وجهي قائلة بأنها لا تكترث لما حدث في عام 1945، ولا شأن لها بأي من هذا، ذلك أن التغيير الذي طرأ لم يعد عليها بأية فائدة. لذا أرجوكم، لا تحاولوا إقناعها بأي شيء. كاد الأشخاص الذي أتوا معلنين عن قرض السلام من أجل بناء البلاد من جديد، يفقدون صوابهم معها. كانت الوحيدة التي لم تقدم قرشا واحدا لهم. يؤلمني حتى الآن مجرد التفكير بالموقف الذي أنقذها منه حضرة المقدم آنذاك. وبالمناسبة، فقد طردتني اليوم، وأمرتني أن أغرب عن وجهها ولا أعود، بعد أن أخبركم برسالتها.

رد عليه زوجي قائلا:

-إننا لن نتضرع إليها ونرجوها. إنها مواطنة حرة. وفي كل الأحوال، أنا من أهانها اليوم، حين رفضتُ أن تحيل بيتي إلى سوق حراج بذوقها الرخيص.

لم يتعجل الشاب في الرد وصمت لبعض الوقت، ثم قال وهو يحدق في زوجي بعينين ثابتتين:

-إن لها ذوقا لا مثيل له يا أستاذي. كنتُ أظن بأنك أدركت هذا الأمر. كل ما في الأمر هو أنها حين تبحث عن هدية لكما، فإنها لا تختار لشخصين بالغين، بل لطفلين صغيرين.

تبادر إلى ذهني وأنا أستمع إلى كلامه، منظر طاولة الطعام والطريقة التي رتبتها بها والطعام نفسه. لم يكذب حين قال بأن ذوقها لا مثيل له، وربما قد تكون فعلًا تفكر فينا كطفلين حين تنتقي لنا شيئًا ما. ربما لم يكن حجر العقيق الأحمر ما جذبها نحو الحذاء، بل اعتقادها أن الصبيين سيسعدان بفردة الحذاء الجميلة هذه. ربما ظنت بأني سأسعد بتمثال الكلب، ذلك أنني أنا من وجد فايولا وأنقذه من الثلج أول مرة.

تابع الشاب حديثه، وذكر لنا نية عمته كتابة وصيتها، وكانت هذه المهمة حينها قد أوليت لحضرة المقدم. بعدما حدث صباح ذلك اليوم، لم تعد إيمرنس تفكر في طلب المساعدة مني أنا وزوجي، ولم يكن في وسع الشاب كما ذكر أن يساعدها أيضًا، وذلك لأنه كان مستفيدا من الوصية. كانت عمته قد أخبرته بأنها ستترك له كل مالها. قال بأن المبلغ لا شك سيكون ضخما، فهي لم تدفع إيجارًا قط، وأضاف بأن شخصا ما لم تفصح عن هويته، كان قد منحها ما يكفيها عمرها كله، من الملابس وأقمشة الكتان ومفارش الأسرة والأثاث أيضًا. كان الجانب الوحيد من حياتها، الذي أنفقت فيه المال هو الطعام. وحتى الوقود، لم تكن في حاجة لدفع أي مال من أجله؛ كانت تجلب الحطب بنفسها من الغابة. ربما كان أثاث بيتها قد أتلفه قطها حسب ما قال، ولكنه كان يملك هو زوجته ما يغنيهم عنه من أثاث. كل ما كانا في حاجة له هو المال، ليبنيان منزل أحلامهما. ورغم آمالهما هذه، تمنى الشاب لو تعيش عمته ألف عام، ذلك أنه من النادر أن تلتقي شخصا طيبا وصادقا مثلها. قال هذا رغم أن زيارته لنا أوضحت لنا كم هي متقلبة الطباع وحادة أيضًا.

ودّعنا وطلب منا رغم كل ما حدث بيننا وبين عمته، أن نهاتفه إذا ما احتجناه، أو لاحظنا حاجة العجوز لشيء ما أو مرضها. طلب منا هذا مع العلم بأنها لم يشهدها تمرض قط. لم تكن تمرض أبدًا، حتى وهي تؤدي مهام

خمسة شبان بأسرهم. مهما كان الذي حدث بيننا، لم نكن لنكن لها البغض؛ كانت امرأة طيبة.

لم يكن هناك من حيز للكره بيننا وبينها. ولكن زوجي رغم عدم إظهاره التبجح بالأمر، شعر برضى مقيت. وأما أنا فقد تمكنت مني الكآبة بغيابها. لقد اعتدنا على النظام المطلق في منزلنا. كلانا، وعلى الأخص أنا، استطعنا تولي أعمال أكثر، وذلك لأننا ضمنّا وجود أحد قائم على تقويم شؤوننا. لم يكن ما أقلقني هو انهيار النظام في حياتنا بعدها، أو عدم تمكني من الكتابة لأسابيع، أو حتى عجزي عن تولي مهام المنزل. ما شغلني هو أنني أدرك مدى حبها لنا، نعم حتى زوجي كانت تحبه، وإن كان ذلك بتحفظ. كيف لنا بعد كل هذا الحب أن نهينها، وما قواعد السلوك الخاصة بها والصلبة التي انتهكناها؟ يستحيل أن تعاقبنا هكذا لمجرد أننا رفضنا الكلب وأذنه المكسورة.

كان وقع الأمر أشد على فايولا، كان كم فقد عقله. أدرك بعد حين أن ما في اليد حيلة، ويجب عليه أن يرضى بنا. ما انفك منذ ذلك الحين، يتمدد على الأرض كما لو كان قد سمم. لم أفهم حتى الآن كيف أدرك معنى كلمات ابن أخيها تلك. بدأ زوجي يحلل الأمر وقال بعد أن رفعت الأقلام وجفت الصحف، إن ما حدث لا يمكن أن يكون مقبولا. لا يمكن لإيمرنس أن تعترض على الأشياء التي نقرر أنها تعكس ذوقنا، ونحيط بها أنفسنا. إذا كانت لديها مشكلة في هذا الشأن، فلا حاجة لنا بها. شعرتُ بتعب شديد، رغم عدم قيامي بأي مهمة شاقة. وجدت الطعام جاهزا في الثلاجة كما السابق. عجزت عن كتابة سطر واحد، ولكن حتى في الأيام العادية، فإن مد الكتابة وجزرها يرتبط بحالة الصفاء التي نكون فيها. كان الوضع الذي كنت فيه قد سلب طاقتي. إن البهجة هي ما تبقيني مفعمة بالحياة، عكس

الحزن الذي ينهيني. كنتُ حقًا تعيسة. لا لأنه سيتوجب علي أن أبحث من جديد عن خادمة آخرى. كانت المشكلة أبسط من هذا بكثير. قبلتُ أخيرًا بأن إيمرنس لم تكن وحدها من تعلق بي، تعلق الشخص بعائلته، بل وأنا أيضًا أحببتها وتعلقت بها.

أي شخص بعين ثاقبة، يستطيع أن يرى أن حبي الدائم للاختلاط بالناس، ليس سوى قناع يخفي فشلي التام في إقامة علاقة تتجاوز حدود الصداقة العادية، وأن الأشخاص الذي أحسبهم مقربين لي، لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد. كانت إيمرنس الوحيدة التي سمحت لها بالاقتراب مني بعد وفاة والدتي، ولم أكتشف هذه الحقيقة إلا حين فقدتها بسبب تمثال كلب.

كانت ليلتي تلك عصيبة، رغم محاولات زوجي. أخذ فايولا في الجولة المسائية مع يقيني من أن القيام بذلك، هو العذاب بعينه بالنسبة له. كان الكلب يسحبه خلفه ويرفض أن يطيعه، وهذه عادته دائما عندما يصحبه زوجي. وبعد أن عادا، جلس زوجي معي وشاهدنا التلفاز سوية، رغم أنه يفضل الاستماع إلى المذياع. حاول جاهدا أن يخرجني مما أنا فيه. لم يذكر أحدنا اسم إيمرنس؛ كنا نقع في قاع لا قرار له من الصمت، عندما يتعلق الأمر بها. كان زوجي يحتاج إلى ذلك الشعور بالفوز، الذي أعاد له حيويته ومنحه قوة مختلفة، بل وحسّن صحته. كان اليوم الذي أعلنت فيه هي الحرب، يوم نصره وسعده. كنت أرى إكليل النصر يزين رأسه، وهو يجلس بالقرب مني. وأما فايولا فقد تجاهل كل اقتراحاتنا، وقرر أن يذهب ويضطجع. كان ذيله المتدلي يعكس مدى تعاسته. خرجنا نحن لنجلس في الشرفة، وذهب هو إلى غرفة والدتي، وسقط على الأرض بشكل مسرحي كالجريح.

كانت ذلك اليوم هو اليوم الثاني للتخلص من الخردوات. في مثل تلك الأوقات، كان هناك عابرون كثيرون يأتون للتنقيب وجمع الأشياء، وذلك

بعد أن يحل الظلام. لا شك في أن أمرًا ما كان يحدث مع إيمرنس، ذلك أن المجموعة التي عادة ما تعمل تحت إمرتها في التنقيب، كانت تعمل دونها. كان من بين الذين تعرفهم العجوز جمعا وفيا لها من الزوار والمعجبين ومن هم تحت حمايتها. من بين كل هؤلاء كانت هناك مجموعة تحظى بجمائل خاصة منها وهم: شوتو التي كانت تقوم على كشك يزود سكان الشارع بالفواكه والخضروات، وأديلكا أرملة فني المختبرات، وبوليت العانس العجوز ذات الظهر المنحي بعض الشيء، والتي كانت تكوي ملابس السكان. أخبرتني إيمرنس مرة أن بوليت عملت مربية في فترة ما، ومن ثم بدأت تدّرس اللغات، وكانت حياتها جيدة قبل أن ينهار كل شيء. كان الجنود قد سرقوها ولم يبقوا لها شيئًا، وبعد أن انتهت الحرب، لم يكن هناك أحد يحتاج إلى مربية أو معلمة لغات. كانت العائلة التي عملت لديها قبل الحرب، قد فرت إلى الغرب، دون أن يمنحوها أي شيء، بما في ذلك مرتب الشهر الأخير. لا شك في أن قدر هذه المسكينة كان حالكا. كانت تبدو على الدوام جائعة، رغم أن سكان الشارع كانوا يطلبون منها أن تكوي ملابسهم مقابل المال؛ لم تكن معدمة. كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة، وينعكس حضورها الدائم لاحتساء القهوة مع إيمرنس في زيادة المخزون اللغوي للأخيرة. فمن بين كل مواهب العجوز ومهاراتها المتعددة، أنها لم تكن تنسى ما يمر على مسامعها، وتستخدم تعابير أجنبية وبشكل سليم تمامًا.

في ذلك المساء الثاني من جمع الخردوات، لم أر من شرفتي سوى شوتو وأديلكا وبوليت. كانت كل واحدة منهن تحمل كيسًا كبيرًا، وتنقب بين الأكوام وحدها. كان ذلك الوقت بالنسبة لإيمرنس وقت الذروة للبحث عن الكنوز والأشياء الغريبة، ولكنها لم تكن بينهن. كنت أتمكن دائما من تحديد مكانها من الأعلى، حتى لو كان الظلام حالكا، وذلك من طريقة

مشيها. كانت تتمايل تقف وتهبط بين القطع المرمية مثل قائد وهو يجوب أرض معركة لم ينتصر فيها، بحثًا عن أمل حياة في جرحاه.

لم يكن فايولا بحيله البدائية والمثمرة في الوقت ذاته، هو الذي حل الأزمة بيننا. كانت تلك المرة هي المرة الأولى التي أشعر فيها بقوى إيمرنس العظيمة. لم تأخذ العجوز أي خطوة تجاه منزلنا، ولكنها من خلال رادار ما وبقواها العجيبة، شلت حركة الكلب تماما. يمكن لقوة الإرادة لدى الشخص أن تظهر ب العديد من الأشكال، ولكن مع إيمرنس في تلك الفترة لم تكن واضحة أبدًا. كانت تحب فايولا حبا جما، وفي سبيل أن تستعيده، نفته بهذا الشكل. مضت الأيام تمشي بتثاقل، وهرعت أنا أبحث عن أحد يساعدني في المنزل. ومن حيث لا أعلم، ظهرت امرأة عديمة الفائدة اسمها آني، وعملت لدينا لبضعة أيام. كان نشاطها الوحيد لدينا هو أن تقضي الوقت في حوض الاستحمام بعد كل نصف ساعة تعمل بها، وتلعب بالصابون والماء. وبعد أن تنتهي من الحمام، تتجول في منزلنا عارية، كيوم ولدتها أمها، متحججة بحرارة الجو. لا شك عندي في أن قوى إيمرنس السوداء، كانت خلف ظهور آني في بيتنا. حرصت أن لا أخبر أحدا أنني وحدي في المنزل، لا الجيران أو غيرهم، ومع ذلك، ظهرت لي هذه الخادمة وهي تحمل توصيات ممتازة. ظهرت وأنا غارقة في كم من الأعمال التي لم يكن في استطاعتي إنهاؤها. وافقتُ على أن تعمل لدي لبضعة أيام، حتى أتأكد من كونها مناسبة لنا، ولكنها لم تكمل أسبوعا واحدا. لم يكن السبب خلف ذلك هو مسألة حوض الاستحمام تلك، بل فايولا الذي كان يعوي دون توقف حين يراها، كما يفعل حين يقترب أي أحد من المكنسة الكهربائية أيضًا.

اختفت إيمرنس من حياتنا، ولكنها شلّت حركة كل شيء حولنا. كانت كبطل قصيدة عظيمة تلاشى في العدم. لم نصادفها خلال تلك الفترة قط.

كانت تعرف روتين حياتنا جيدا، وحرصت على أن تبقى بعيدة عن الأنظار، حين يحين موعد خروجنا. وعندما اضطررت إلى رفض عمل أدبي ثالث لضيق الوقت، وبعد عشاء سيء وبتفوق، أعلن زوجي بطريقته الرزينة والهادئة أن تمثال الكلب كان قد كلفنا أكثر بكثير، مما قد تكلفنا إياه كلمات استرضاء بسيطة. لم يعد هناك مناص من الإقرار بحاجتنا لإيمرنس. لا حل أمامنا سوى أن نضع التمثال في مكان بارز، ونخبئه عندما يأتينا ضيوف. لا يمكن لروايات غير مكتملة أن تعلق من أجل أمر تافه كهذا. عجز كلانا عن الالتفات إلى أعمالنا بشكل كامل، خاصة أنا، ذلك أن المنزل كان يقع ضمن نطاق صلاحياتي. يجب علينا أن نقبل بشروطها.

لم أصطحب فايولا وأنا ذاهبة إلى المدينة المحرمة، ولم يظهر هو أي رغبة في الذهاب. لا بد وأن لعنة إيمرنس عليه كانت ما تزال فعالة، ذلك أنه لم يحاول الوقوف بل ظل في مكانه، يحدق في كإنسان حقيقي. بدا وكأنه يتساءل ما إذا كنت شجاعة بالشكل الكافي، لأن أذهب فعلًا، ويفكر في الأسباب التي دفعتني إلى ذلك. هل كنتُ أسعى لاستعادة أركان عالمنا الإبداعي، أم هو شعوري بأنني أدين لكرامتها بالاعتذار؟

لم تكن تجلس في حديقتها، ليس في تلك الأيام. طرقت الباب ولكنها لم تجبني، لذا توجهت لنافذتها وبدأت أطرق وأقول:

-إيمرنس هلا خرجتِ؟ يجب أن نتحدث.

اعتقدت أول الأمر بأنها تؤجل المواجهة، ولكنني تفاجأت بها تقف أمامي، بمزاج جاد وكئيب إلى حد ما.

-هل أتيتِ لتعتذري؟

سألتني دونما غضب يلوح في أفق صوتها.

كان الوضع أشد من أن أحتمل. توجب علي أن أنتقي كلماتي بعناية وحذر، حتى لا نفقد المنطق تماما. جاوبتها:

-لا. إن ذوقنا يختلف، ولكن هذا لا يهم. لم نقصد أن نجرح مشاعرك. سوف يبقى تمثال الكلب في بيتنا، إن كانت هذه هي رغبتك. ولكننا لن نستطيع متابعة حياتنا دونك. هلا عدتِ؟

-ستحتفظين بتمثال الكلب؟

كانت الثقة تنبع بقوة من صوتها. كانت ثقة رجل دولة يملي شروطه.

-نعم سوف أفعل.

-أين ستضعينه؟

-في أي مكان ترينه مناسبا.

-حتى لو كان هذا مكتب صاحب السعادة؟

-مثلما قلت، في أي مكان يرضيكِ.

وهكذا انطلقنا عائدتين إلى منزلي.

لم يبدر من فايولا أي ردة فعل، ليس قبل أن تصل إيمرنس إلى المدخل وتنادي باسمه. خلت بأنه سيكسر الباب لحظتها. قابلتْ العجوز زوجي، وتمنت له ليلة سعيدة، وصافحته مثل المرة الأولى، وكأنها تجند نفسها من جديد لخدمتنا. ومن ثم التفتت إلى فايولا الذي كاد يطير من الفرح، وربتتْ على ظهره. جالت ببصرها المكان، حتى وقعت عينها على تمثال الكلب الذي وضعناه على منضدة في المطبخ. كانت تنظر إليه ومن ثم تنظر إلينا، واستمرت تفعل ذلك حتى ابتسمت لنا إحدى ابتساماتها النادرة، والتي كانت تخبئها للمناسبات المميزة. رفعت التمثال بعد ذلك من على المنضدة،

وألقته على الأرض. لم ينبس أحدنا ببنت شفة. لم يكن هناك من صوت أو حرف يمكن أن يعبر عما فعلت. ألقت به على الأرض، ووقفت بين القطع الصغيرة المتكسرة كالملكة.

ولسنين بعد ذلك، عشنا لا في سلام وسكينة وحسب، بل وبسعادة في أوديسا.

بوليت

نجح زوجي و إيمرنس في احتمال بعضهما بعضا. وشيئًا فشيئًا وبطريقة ما، أعجب كل واحد منهما بالآخر، الأمر الذي كان مفاجئًا بالنسبة لهما. كان أساس كل هذا في بادئ الأمر، هو حبهما الشديد لي ولفايولا، والذي لا سبيل لهما من الخلاص منه، ومن المسؤوليات التي تأتي معه أبدًا. وبعد ذلك أصبح كل واحد منهما يفهم إشارات الآخر. تمكن زوجي وببراعة تامة من التقاط المعاني خلف إشاراتها اللا لفظية. وهي بدورها قبلت أمورًا كانت عصية على الفهم بالنسبة لها، مثل الخمول الذي نركن إليه أحيانا، ونمضي نصف يوم بأكمله، دون أن ننطق حرفًا، وأحدنا يحدق في أشجار الحور في الحديقة، والقول بأننا لا نزال نعمل دون أن نقوم بشيء تراه العين المجردة. كنا رغم كل هذا نعيش بتناغم حقيقي، وكنت سعيدة حقًا بتلك الحياة. كان زوارنا يعتقدون للوهلة الأولى حين يرون العجوز تقلب الأواني في المطبخ، أنها خالة لي أو عرابتي. لم أكن أنفي أيا من هذا، وذلك لصعوبة تفسير طبيعة العلاقة التي تربطنا بها، أو كيف أصبحت كالأم لنا، رغم أنها تختلف جذريا عن أمي وأم زوجي. لم يحدث أن استجوبتنا إيمرنس يومًا، ولم نقم نحن بذلك أيضًا. أخبرتنا بما تراه كافيا عن نفسها، وكانت مثل الأمهات جميعهن حين لا يحكين سوى القليل عن ماضيهن الذي فقد جوهريته، ذلك أن مستقبل أطفالهن أصبح كل شيء.

وبمرور السنين، أضحى فايولا أكثر جدية، ولكن بمهارات مصقولة

أكثر. أصبح بإمكانه فتح الباب عن طريق المقبض، وإحضار الصحف أو خفي النوم حين نأمره بذلك. وكان في وسعه أن يهنئنا خلال أعياد ميلادنا، وغيرها من الأعياد الدينية. كانت إيمرنس قد وضعت القواعد لكل واحد منا، وكان نصيب زوجي من الحرية الأكبر عندها، ومن ثم فايولا وأخيرًا أنا. اعتادت أن تستدعيني من وقت لآخر لاحتساء القهوة، وذلك حين يحتاج أحد من دائرة مناصريها إلى أمر ما، وخاصة أديلكا التي كانت تفضل استشارتي وطرح مشاكلها علي. كانت بعد أن أقدم لها الحلول والنصائح، تستشير ثلاثة أو أربعة أصدقاء لها وتناقش الأمر إلى ما لا نهاية. كادت العجوز أن تضربها، بعد أن اكتشفت عادتها هذه. وأما شوتو وبوليت فلم يكن لديهما الكثير ليقولانه، والأخيرة على الأخص كانت تغوص في الصمت أكثر فأكثر. كانت تفقد الوزن بشكل ملحوظ، حتى غادرت حياتنا بين ليلة وضحاها.

أتت شوتو تركض حاملة خبر الانتحار. كانت قد استيقظت بحلول الفجر، وابتاعت الخضر والفواكه من السوق لتملأ الكشك الخاص بها. لم يستيقظ أحد قبلها في الشارع بأسره، سوى إيمرنس. جاءتني شوتو في أسوأ الأوقات، وفتحت الباب لها مترددة. كان ما أخبرتني به قد جلب لي الحزن والكآبة، ففي ذلك الوقت كنت قد عرفت بوليت حق المعرفة. وكانت قهوة إيمرنس هي ما جمعتنا. شعرتُ بأننا لعبنا دورًا في انتحارها؛ وكنت متيقنة تمامًا من أننا كنا لندرك نيتها الانتحار، لو لم نفشل في الملاحظة. أتتني شوتو لأساعدها في الطريقة التي ستخبر بها إيمرنس عن موت بوليت.. بوليت التي تناولت معها وجبة الغداء يوم الأمس. كانت العجوز أقرب واحدة للراحلة، وعلمت عنها الكثير مما لم تكن لتفصح به لشوتو أبدًا. طلبت مني شوتو أن أخبر إيمرنس، لا يمكنها أن تقوم بذلك؛ كان يتوجب عليها أن

تتواجد مع الشرطة، وذلك لأنها كانت ولسوء حظها أول شخص يرى بوليت المسكينة. يا لمراعاتها لنا، حتى في موتها، لم تجعل الأشياء أكثر تعقيدا، مثل أن تختفي على سبيل المثال. لم تقم بذلك، ولم تشنق نفسها داخل بيتها حتى، بل في الحديقة، من شجرة الجوز، حتى لا نضطر إلى كسر الباب. ما كان مثيرًا للاهتمام هو أنها كانت ترتدي قبعة، وذلك بلا شك من أجل أن لا يفزع أول من يجدها. ولكن رغم كل هذا، بقي منظرها وهي تتدلى من الشجرة، وعلى رأسها قبعة يوم الأحد الجميلة التي ارتدتها مئات المرات مفزعا. كانت أديلكا من أوائل الذين عرفوا الخبر، ومرضت بسببه. استأذنتني شوتو للمغادرة، فهي لا تستطيع إبقاء الكشك مغلقا كل هذا الوقت. وتوجب علي أن أذهب إلى إيمرنس على الفور، وأطلعها على ما كان قد حدث. لو لم نخبرها سريعا، فسوف تشعر بأننا أسأنا لها، وهذا يعني غضبها السيئ الذي عشت سواده من قبل.

أخبر إيمرنس شيئًا! أطلعها على أمر ما! كانت تعلم كل شيء.

عندما وصلت إلى منزلها، وجدتها في الخارج، تخرج حبوب البازلاء من قشورها. كنتُ قد رأيت وجهها هكذا من قبل، كالمرآة تماما، وهي تنكب على الوعاء. لم يبد على وجهها أية تعابير، وكان أكثر شحوبا من العادة. حتى وهي طفلة صغيرة، لم تكن الحمرة قد زارت وجنتيها.

-هل أتيتِ من أجل بوليت وحسب؟

فهمتُ من نبرة صوتها اعتقادها بأنني أتيت من أجل السؤال عن فايولا، وجولته الصباحية. كانت قد رأت جسد بوليت آناء الفجر، عندما صدرت من الكلب الإشارة. خرجتْ عندما سمعتها. ألم يوقظنا الصوت؟ بلا. كان زوجي نائما، ولكنني كنت أستمع باهتمام، ذلك أن فايولا قد أحدث ضجة حقيقية، ونبح لبعض الوقت بعد أن انتصف الليل. بقيتُ مستيقظة

طوال تلك المدة، متعجبة من كم الأصوات المختلفة التي تستطيع الكلاب أن تصدرها. كان بأصواته تلك يعلن موت أحدهم. قالت لي إيمرنس بنبرة الصوت نفسها التي لا تشي بشيء، إنها قررت الخروج لحظتها، والبحث عن الميت. جابت الحي كله، لا بد وأن يدلها مصباح مضاء لنافذة ما، ويطلعها على الخبر الحزين. كانت تظن بأن الميت هو السيدة بوور التي كانت، وطوال أسابيع كاملة تمثل دور من حفروا قبره وجهزوه. ولكن باء بحث إيمرنس بالفشل، ولم تهتد لأي نور. فقررت أن تبحث في الحديقة، ووقعت عينها على بوليت بالصدفة. لو لم تترك الأخيرة باب بيتها الصغير مفتوحا، لما شكت إيمرنس. كانت بوليت خائفة على الدوام في الكوخ الذي جعلت منه بيتها، ولم تنم والباب مفتوح قط. لذا أدركت العجوز أن أمرًا ما ألم بصديقتها. دخلتْ وأضاءت المصابيح ولكنها لم تجد أحدا، وكان كل شيء فيه مكانه، حتى الأغطية. خرجتْ لتبحث عنها، ورأتها في تلك اللحظة تحت الشجرة. بدت القبعة البنية التي غطت رأسها سوداء كالفحم، تحت ضوء القمر.

ظللت أحدق في إيمرنس، عاجزة عن الكلام، لا بسبب الحزن الذي لم يزرها، بل لعدم اكتراثها التام بما كان قد حدث. تابعت العجوز الحديث، وهي تقلب البازلاء بين أصابعها.

-لم نناقش أمر القبعة. لم تقل لي بأنها سترتديها. كل ما اتفقنا عليه كان الرداء الذي ستضعه، وطريقة دفنها. لم تكن تملك رداءا أسودا، لذا أعرتها واحدا. بدت غريبة والقبعة تغطي وجهها كله. كان حذاؤها قد وقع، هل عثروا عليه؟

شعرتُ بأنه يجب علي أن أسألها هذا السؤال، رغم كل ما نطقت به:

-كنتِ تعلمين إذا؟

ردت علي بينما هي تقلب البازلاء وتفكر ما إذا كانت الكمية كافية للجميع:

-وكيف لا أعلم عن أمر كهذا؟ إننا اتفقنا حتى على أن لا تستخدم السم. كنتُ قد عملت مع المحقق المسؤول عن قضايا الانتحار، والذي قال لي يومًا بأنهم غالبا ما يعثرون على معظم من انتحروا بواسطة السم، ميتين عند أبواب بيوتهم، وكأنهم تراجعوا بعد ابتلاعهم إياه. ففي اللحظة التي يجدون أنفسهم فيها يختنقون ويغصون، يبحثون عن سبيل للتراجع والخلاص. إنها طريقة انتحار مؤلمة حقًا، ولكن للعامة فحسب، لا الأثرياء الذين تتوفر لهم طرق ومواد لا يمكن لطبيب أن يصرفها. لا توجد طريقة أفضل من أن يشنق الشخص نفسه. إنها عملية سهلة وسريعة. لقد رأيتُ من عمليات الشنق ما يكفي في هذه المدينة. عندما كان الجيش الأبيض إبان الحرب الروسية الأهلية يتولى زمام الحكم، شنق أفراده العديد، وعندما انقلب الوضع وتولى الجيش الأحمر القيادة فعلوا المثل، وكانت خطاباتهم قبل عمليات الإعدام هذه هي نفسها، وأقدام الضحايا التي تركل كانت تركل في الجانبين بنفس الشكل، لا فرق يحدث في من يعلق من. إن الشنق ليس بذلك السوء، إنه أهون من الرصاصة. لا ينجح الإعدام بالرصاص دائما. تراهم إذا لم يمت الضحية، يعيدون العد ويرمونه من جديد، يفعلونها مرارًا إلى أن يموت. وإن لم يمت، كانوا يضربونه حتى يلقى حتفه أو يصوبونه في مؤخرة الرأس. أعرف طرق الإعدام هذه جيدا؛ رأيت منها ما يكفي.

كانت المرة الأخيرة التي شعرت فيها بما شعرتُ به في ذلك اليوم من شهر حزيران، هي عندما زرت ضريح أجاميمنون الذي قتلته زوجته في مدينة موكاني الأثرية في اليونان.

وجدتُ نفسي وهي تقلب حبات البازلاء بين أصابعها القاسية، أعود لا

في الزمن وحسب، بل وفي المكان أيضًا. رأيتُ إيمرنس الطفلة الصغيرة قبل وفاة والدها، وحورية الماء والدتها، وزوج أمها الذي لم يعد قط من غاليسيا، والتوأم الذي استحال جذعا أسودا. رأيتُ الطفلة اليافعة التي أصبحت، وكما أفشت لي هي قبل قليل خادمة للمحقق، لا محقق واحد على الأغلب بل العديد، خاصة أن الذي شنق الحمر، لا يمكن أن يكون نفسه هو الذي اعتقل البيض.

سألتها ما إذا حاولت تغيير قرار بوليت عندما علمت بنيتها الانتحار، فقالت:

-لم تخطر على بالي هذه الفكرة. هلاّ جلستِ؟ هيا اجلسي وساعديني في إخراج حبات البازلاء. لم أخرج ما يكفينا نحن الأربعة. إذا أراد الناس أن يذهبوا، فيجب أن ندعهم يذهبوا. لم نبقيهم عالقين هنا؟ حرصنا على أن يكون لديها ما يكفيها من الطعام، ولم يحدث أن حاول أحد سرقة بيتها. تركوها تعيش في زريبة الخنازير تلك دون مقابل. كما أنني حاولت أن أجد لها رفيقا. ولكننا لم نكن كافين بالنسبة لها، لا أنا ولا شوتو أو أديلكا. كنا نستمع لكل الهراء الذي كانت تقوله مبدين تعاطفنا، حتى لو لم نفهم ما قالته، ذلك أنها كانت تتحدث بالفرنسية. كنا ندرك، رغم حاجز اللغة الذي بيننا، أن معظم ثرثرتها كانت حول الأمر نفسه. كانت تشتكي وحدتها. من ذا الذي لا يشتكي من الوحدة؟ أود أن أعرف، حتى أولئك الذين يكون حولهم أشخاص يحبونهم، ولا يلحظون وجودهم، يشعرون بها. ابتعت لها قطة صغيرة، ولكنها غضبت وقالت بأنها لا تغني عن الأشخاص. لا أعلم ما الذي كان سيكفيها، إذا لم نكن نحن أو القطة نكفيها. كانت للقطة عين زرقاء وأخرى خضراء، ويمكنكِ إذا ما حدقتِ بهما فهم ما تريده دون أن تحتاج إلى المواء. لم يكن أي من هذا كافيا لبوليت. لم تكن القطة إنسانا

كما تقول، وكأننا نحن أنفسنا لسنا حيوانات؛ إن الفرق بيننا وبينها هو أن الحيوانات أكثر كمالا منا. لا يمكن لحيوان أن يشي بنا، أو ينشر الأكاذيب عنا، وحين يسرقون فإنهم يسرقون لسبب وجيه، وهو أنهم لا يستطيعون الذهاب ببساطة إلى محل أو مطعم. كنت قد رجوتها أن تتبنى القطة، حتى لو لم تكن الحل لوحدتها، فإنها قطة يتيمة رماها شخص فظيع في الشارع. قطة مسكينة لا مكان يضمها. كان من الممكن أن تموت. كانت صغيرة جداً. ولكن لا. كان ما تحتاجه بوليت هو إنسان. نهرتها وقلت لها حسنا اذهبي وابتاعي واحدا من السوق، ليس لدينا هنا سوى القطط.

وتابعت:

-ها هي الآن تملك صديقا، تملك مقبض المجرفة. لم تعد وحيدة. هل هي شوتو التي بعثتكِ إلي؟ أم هي الحمقاء أديلكا؟ كانتا غبيتين حقًا، كلتيهما. لم تفطن أي واحدة منهما لنية بوليت. صحيح أنها لم تخبرهما كما أخبرتني، ولكنني كنت سأعرف وحدي أنا وفايولا. لم أرفع قبعتها عن وجهها، لم أر وجهها. هلّا ألقيتِ نظرة على وجهها وأخبرتني ما إذا كان موتها سهلا؟ لن أفعل هذا بنفسي. لم أسامحها بعد. لتشنق نفسها. لقد أعرناها كبير اهتمام نحن الثلاثة. حتى فايولا كان يحبها. كنا نقعد ونستمع لشكواها. جلبت لها حيوانا تأنس به ولكنها رفضته. إذا أرادت الذهاب، فلم لا ندعها تذهب؟ لم يكن هناك شيء ينتظرها هنا. كانت تشتكي على الدوام من معدتها، ولم تستطع أن تؤدي الأعمال المسندة لها، رغم أنها كانت تتغلب علينا ثلاثتنا في كي الملابس. كان يتوجب عليكِ أن تريها وهي تكوي الملابس. انتهيت من البازلاء. هل ستظلين هنا أو تغادرين؟ اطلبي شوتو إذا رأيتها أن تأتي إلي. يجب عليها أن تأتي فور إغلاقها الكشك لتساعدني. سوف أملأ العلب بالكرز من أجل موسم الشتاء.

تحرك الأسدان اللذان يحرسان مدخل مدينة موكناي الأثرية، وظهرت في واحد منهما عين زرقاء والأخر خضراء، وبدآ بالمواء بصوت خفيض. وقفتُ متخبطة لأغادر، ودعوتُ سرًا أن لا أقابل شوتو. بدأتُ أفكر فيما سأقوله لها. لن تخفي إيمرنس عنها ما قالته لي. لا بد أن أقنعها على الأقل بأن لا تخبر الشرطة بأي من هذا. ما الذي سيتبادر إلى أذهانهم حين تنتشر القصة، ويعلمون أن العجوز قد تركت بوليت تنتحر، وقدمت لها نصيحة عملية، وهي مدركة تمام الإدراك ما كانت الآخرى تنوي القيام به.

بدأت إيمرنس تحضر لتعبئة الكرز، فأخرجت المرجل الذي كانت تغلي فيه قطع القماش أول مرة قابلتها فيها. توقفت في مكاني، وبدأت أتحدث بحذر.

-إيمرنس، ألا تظنين بأنه من الأفضل أن نفكر فيما سنقوله لرجال الشرطة؟ قد تقول شوتو أمرًا غبيا دونما تفكير.

-لا تكوني ساذجة. أتعتقدين بأن أحدهم سيضيع وقته من أجل بوليت؟ من ذا الذي يهتم لأمر عجوز شنقت نفسها، ليس هذا وحسب بل ويكتب لنا رسالة يخبرنا فيها لم فعلت ذلك! أتعتقدين بأنني لم آمرها أن تكتب رسالة انتحار؟ يجب أن يُنفذ كل شيء بإتقان، حتى الموت. اتفقنا حول كل شيء، الملابس والرسالة. كل ما آسف من أجله الآن هو أنني لا أستطيع منع أولئك الحيوانات، وقت فحص الجثة من تحسسها. لم يرها رجل عارية قط. سيكون أولهم رئيس التشريح ذاك. لن يكون جسدها وعذريتها أمرًا جديدا بالنسبة له، فهو يعرف كل شيء يمكن معرفته، عن الأجساد الميتة. كنت قد عملت تحت إمرة أحدهم في وقت مضى.

لقد حط قبر أجاميمنون في قاع جديد. لم تخبرني قط عن رئيس التشريح.

-إن الناس الذين لا يعرفوكِ، لن يصدقوا مدى غفلتك. رغم أنني أخبركِ بكل هذا مرة بعد آخرى، ولكنكِ تعتقدين أن الحياة تستمر إلى الأبد، وأنها تستحق العيش إذا ما دامت. تعتقدين بأنه سيكون هناك على الدوام من يطبخ لك وينظف لك. سيكون هناك طبق طعام ساخن ينتظركِ، وورقة تخربشين عليها. تعتقدين بأن صاحب السعادة سيظل يحبك، وأن الجميع سيعيشون إلى الأبد، مثل القصص الخيالية تلك، وأن المشكلة الوحيدة التي ستعكر صفو حياتكِ، هي الكلام السيئ الذي يكتب عنكِ في الصحف. لا أنكر أن هذا الذي يكتبونه أمر مخزِ، ولكن لم اخترتِ مهنة منحطة كهذه، يستطيع من يعمل فيها أن يلقي بالقاذورات على رأسك؟ الإله وحده يعلم كيف بنيتِ لنفسكِ اسما. لستِ ذكية بما يكفي، وتجهلين الكثير عن البشر، وبوليت منهم. كم مرة احتسيتي القهوة معها؟ ليس بينكم غيري من يفهم البشر.

ألقت بالكرز في المرجل. كنا حينها قد دخلنا عالم الأساطير. بدأت حبات الكرز بالذوبان، وتدفقت عصارتها كما يتدفق الدم من جرح، و إيمرنس التي تمَّثل الهدوء فيها، تعكف على القدر مرتدية مئزرها الأسود، وعيناها تستظل بغطاء رأسها.

-لقد أحببت بوليت. كيف فشلتِ في الإحساس ذلك؟ لم يكن حبي لها كافيا. وأحبتها شوتو، ولم يكن حبها كافيا. وحتى الغبية أديلكا احترمتها. أحبها ثلاثتنا بصدق. مقارنة بحالنا قبل موتها، فإننا أفضل الآن بذهابها. لدي أنا وشوتو أعمال نحصل منها على قوت يومنا، وفي حالة أديلكا فإنها تستلم راتبا تقاعدي، وكنا نساهم جميعا في مبلغ يكفيها، إذا لم يطلب أحد منها كي ملابسه. كان لديها الطعام، والحطب ووجبات العشاء معنا. لقد اعتنينا بها، ولكنها أرادت المزيد، أرادت شيئًا آخر لا أعلم ما هو. رفضت أخذ القطة

رغم أنني تكفلت بإطعامها، وكنت بهذا قد وصلت آخر صبري معها. لم لم تكف عن التذمر والشكوى؟ إذا لم يكن في الإمكان مساعدة أحدهم، فإن ذلك يعود لعدم رغبته بهذه المساعدة. إذا كانت قد اكتفت من الحياة، فليس من حق أحد أن يمنعها من مغادرتنا. أخبرتها بما يجب أن تكتب في رسالة الانتحار تلك للشرطة حرفًا حرفا، وكتبته كله. «أنا، العانس بوليت دوبري، وبسبب المرض والشيخوخة و فوق هذا كله الوحدة، قررت بإرادتي إنهاء حياتي، وأترك ممتلكاتي ليتخلصن منها صديقاتي إتل شوتو فاموش و أديلكا أرملة أندراش كورت، و إيمرنس سيرداش.» كان كل شيء واضحا. أخذتُ المكواة الخاصة بها عندما عدت من بيتها، حتى لا نتجادل من أجلها. ما الذي يمكن للشرطة أن تسأل عنه بعد كل هذا؟

تولى مسألة انتحار بوليت، ككل المواقف الصعبة التي تكون إيمرنس ودائرة معارفها طرفًا فيها، حضرة المقدم، والذي أخبرني أن ملفات الحاسوب كشفت في وقت لاحق، أن بوليت هورتينس دوبري ولدت في بودابست عام 1908، وكان والدها مترجما قانونيا، ووالدتها كاتلين كيمنش امرأة دون تعليم عملت آخر حياتها في كي الملابس. لم يكن لها انتماء ديني في الملفات، ولكن إيمرنس تقسم أنها كانت البروتستانتية الإصلاحية. لم يكن الكاهن سعيدا حينما طلب منه أن يحضر مراسم دفنها. قال بأن بوليت مثل إيمرنس، لم يحدث قط أن زارته، وأن الإله لا يرضى عن البشر حين يقررون ساعتهم. لحسن الحظ أنه لم يسمع تعليقات إيمرنس. لقد قصت العجوز من جديد ما حدث مع السيدات اللاتي تولين أمر التبرعات تلك والفساتين. قالت بأن بوليت قد حضرت ذلك اليوم، ولكنها تلقت أقل بكثير من فستان السهرة الذي تلقته هي. وأضافت بأن السيدات كن لا يحببنها، ذلك أنها كانت تمشي منتفخة جدًا بذاتها وذكائها. بغض النظر عن هذا، فإنهم لم

يروها تحضر مراسم العبادة في الكنيسة قط مثل إيمرنس. وهذا صحيح، لأنها كانت تكوي الملابس يوم الأحد و خلال أيام الأسبوع. كانت تستعين بمكواة تسخن بالفحم، لأنه في تلك الأيام لم تكن الكهرباء تعمل بشكل كامل في الحي، بل تعمل لأوقات محددة في اليوم فقط. كاد رأسها أن يطير بسبب بخار مكواة الفحم تلك. لا شك في أنه هذا ما قصدنه السيدات حين وصفن بالانتفاخ.

***

كنت في تلك الأيام ما أزال متمسكة بكل عناد بنمط حياتي ذاته عندما كنت طفلة صغيرة. ففي الاحتفالات الكبيرة، كنت أذهب إلى الكنيسة مرتين، كما اعتدت أن أفعل حين كنت في بيت أهلي، أو بعيدا عنهم في المدرسة الداخلية. وإذا ما رأتني إيمرنس وأنا في طريقي، فإنها تحدق بي باشمئزاز، لأمشي بتخبط وخطوات قصيرة و متسارعة، مثل طالبة مدرسة مذنبة، لكي أتحاشى خطبتها التي ما تنفك ترددها حرفًا حرفًا دونما تغيير، وتقول إن الذين يذهبون للكنيسة ليس لديهم أمر أفضل يقومون به. بغض النظر عن بقية محاضرتها، فإن ما قالته غير صحيح أبدًا، ذلك أنني لم أكن أملك الوقت الكافي للقيام بأي شيء. وكل مساء أضطر إلى تعويض الساعات التي قضيتها في النهار بعيدا عن الآلة الكاتبة. إن الكتابة ليست ربة عمل متساهلة؛ فالجمل التي لم تكُمل، لا يمكن أن تنهى كما بدئت بجمال وسلاسة. والأفكار الجديدة تثني جذع النص، فلا يستقيم تمامًا مع منبته.

استطعتُ على كل حال أن أقنع الكاهن، وأخبرته أن بوليت روح مسنة وبسمعة لا تشوبها شائبة. وفكرتُ في إن تأبينه لها قد يكون لائقا، لأنها كانت ستدفن كالفقراء. أي أحد مشى برفقة الراحلة إلى وجهتها الأخيرة إلى مقبرة فاركشرت، انصدم بلا شك من طريقة وداع إيمرنس الأخير لها.

فبدل أن تضيف إكليلا لباقة الورد المتواضعة، وضعت أصيصا يحمل أزهار نبتة إبرة الراعي، والتي ربطتها بشريط جنازة أبيض مصفر، تحت الجرة التي تحمل رماد الراحلة. كان قد نقش على الأصيص الكلمات التالية: هنا تنتهي الوحدة. فلترقدي في سلام. إيمرنس. وأما الجرة التي ضمت رماد بوليت فقد كانت من أرخص الأنواع، علاوة على موقع القبر السيء، وقلة المشيعين، والمراسم التي انتهت سريعا. ذهبنا بعد ذلك لزيارة قبور من نعرف، ولكن إيمرنس بقيت هناك، قبالة الشاهد الصغير، تراقبهم وهم يدفنون الجرة. قابلناها بعد ذلك، ونحن نمشي نحو مدخل المقبرة. كان جليا أنها أنهت للتو مراسمها الخاصة. كانت عيناها تغصان بالدموع، وشفتاها متورمتان. لم يحدث وأن رأيتها منهارة إلى هذا الحد من قبل.

في ذلك المساء، أتت العجوز من أجل فايولا، الذي كان مكتئبا مثلها. لم يقم بالقفز كما يفعل كعادته، حين تأتي هي لتصطحبه. وأمرته عندما عادا بأن يذهب للنوم، ولم يبد هو أي اعتراض. كنت أرتب إحدى الخزائن، حين قالت:

-هل قتلتِ حيوانا من قبل؟

التفت وقلت لها بأنني لم أقتل شيئًا في حياتي.

-سوف تقتلين. سيتوجب عليكِ إنهاء حياة حياة فايولا. سوف تطلبين أن يحقن إذا ما حل الوقت. حاولي أن تتفهمي الأمر. لا تمنعي أحدهم من الذهاب، إذا ما نفد الرمل من ساعته. لا تملكين ما قد يعوضهم حياتهم. هل تظنين بأني لم أكن أحب بوليت؟ وبأن الأمر لم يعنني حين اكتفت، وقررت أن ترحل؟ كل ما في الأمر هو أنه يتوجب عليكِ أن تعرفي كيف تقتلينهم تمامًا كما أحببتهم. لن يضركِ تذكر كلامي هذا. اسألي لي ربكِ -خاصة وأنكما على وفاق- عما قالته بوليت له عندما التقيا.

هززت رأسي. لم هي هكذا معي؟ لم يكن الوقت مناسبا أبدًا لأي مزاح أو سخرية. عادت مرة آخرى وقالت:

-أحببت بوليت حقًا. لا أعلم لم أتعب نفسي وأعيد ما كنت قد قلته قبل قليل. أنتِ غبية جدًا حد أنكِ لم تفهميني حتى الآن. لو لم أحبها لمنعتها من الانتحار. عندما أصرخ على الناس فإنهم يستمعون لي. تجاهلتني لأنها تعلم أنها سوف تكون في مشكلة، إذا ما عصتني. هل تظنين بأن أحد غيرها أخبرني قصصا عن باريس، والمقبرة التي يزورها الناس لوضع الزهور على ضريح امرأة ما، والمكان الذي دفن فيه إمبراطور ويتوجب عليك أن تنظري للأسفل حتى تريه. من غير بوليت يستطيع إخباري بكل هذا، دون أن يكون قد فقد الأمل من الحياة؟ كيف كان في وسعي أن أشكرها على كل الأمور التي علمتني إياها؟ عندما شعرت بأنه لا سبيل لمساعدتها، كان علي أن أشجعها وأدفعها لقول الكلمة الأخيرة في حياتها، لا أحد آخر، أو التعاسة التي ما انفكت تكبر وتمدد ألما في عمودها الفقري، أو هوانها الدائم وحاجتها للغير.

لم تكن شوتو تحب بوليت حقًا. بل كانت تحتقرها بسبب كل ما حدث لها. لم أخبرك بهذا الأمر من قبل ولكن كان من أسلاف المسكينة بوليت -رغم أن هذا لا يشكل فرقا الآن- واحد من السارقين أو المجرمين، الذي قطع رأسه أمام الجميع. كانت عائلته كلها هاربة من السلطات، وهكذا وصلوا إلى هنغاريا. لم تخجل بوليت من هذا الأمر، وتحدثت عنه بكل صراحة. ولكن أديلكا لم تتوقف عن ذم عائلة الآخرى والانتقاص منهم، وكأن نسبها هي كان مدعاة للفخر! فوالدها سُجن زمنا بتهمتي الطعن والسطو. صحيح أنهم لم يشنقوه، ولكنه لم يكن أفضل من قريب بوليت. عندما سمعت الأولى عن رأسه الذي قطع، ضحكت. كم هي غبية. لم تكن تحب القصص التي ترويها الراحلة. لقد قتلت أديلكا العديد من الدجاجات، وتعرف جيدا أنه

إذا ما فعلتها بشكل صحيح، فإن الرأس يسقط مباشرة. لقد أقسمت بوليت أن قريبها ذاك لم مجرما، ولم يجلبه إلى هنغاريا سوى السياسة التي تورطوا فيها حتى حدث ما حدث. لقد صدقتها أنا و شوتو، لأننا رأينا هذا الأمر يتكرر. كم من الأبرياء قتلوا هنا في هنغاريا؟ أتذكر وأنا شابة كيف أنهم لم يكتفوا بقطع رأس خطيبي الخباز، بل ومزقوا أطرافه وجسده. ألا تصدقيني؟ لا يهمني. لقد قطعوه. لم يقم بأي جريمة. كل ما فعله هو أنه فتح مخبزه، بعد أن أمره ضابط القيادة أن لا يبيع الخبز لأي أحد سوى الجنود. لم يستطع إتباع الأوامر وتعاطف مع الناس، وشاركهم الخبز. لم يصدقوه حين قال بأن الخبز قد نفد، وسحبوا إلى الخارج وقتلوه. مزقوه كما لو كان قطعة خبز. هذا ما يفعلونه عندما يقررون التعامل معك، يستغرق الأمر وقتا. إنه موت بطيء. حسنا، سأغادر الآن. هذا ما لدي لأقوله. لو كان لدي سرير لنمت عليه الليلة. ولكن منذ أن أخرجوا الصغار، وأُنقذت إيفا، ومنذ أن شرب جدًا عائلة غروسمان السيانيد وعثرت عليهما ميتين في فراشهما، عجزت عن النوم في أي مكان غير المقعد ذي الذراعين أو أريكة الحب تلك. عمتِ مساء. لا تقدمي لفايولا أي طعام يأكله؛ لقد أكل ما يكفي.

خرجتُ لأجلس في الشرفة التي تطل على الحديقة، ورحت أتأمل الزهور والسماء. في ذلك المساء العطر، توقف الزمن، وكان الصمت مطلقا. بوليت الفرنسية الهوغونوتية. الخباز الذي كانت إيمرنس ستتزوجه. استقروا جميعا في عقلي، مع جد وجدة عائلة غروسمان المجهولين بالنسبة لي، والذين فشلا في التعايش مع وجود هتلر في العالم. الدجاجات بالقرب من المقصلة، وهي تشهد حدوث الموت. رائحة الخميرة القوية.

لم تتحدث إيمرنس بعد ذلك قط عن الخباز. ولكنني وبعد سنوات طويلة، رأيت صورته معلقة على دمية أمي تلك. استغرق الأمر مني وقتا حتى عرفت هوية صاحب الصورة.

السياسة

لم تتحدث إيمرنس بعد ذلك قط عن بوليت، وكأنها لم تكن يومًا موجودة بيننا. لم تتحدث عنها وأصبحت تقضي معظم وقتها في بيتنا، وكانت تفضل لو قضته كله معنا. إن الرابط بيننا، والذي شكلته قوة يستحيل تقريبًا تعريفها، بدا كالحب تماما، رغم أن الأمر تطلب تنازلات لا نهاية لها، حتى يتقبل أحدنا الآخر. فقد كان أي عمل لا يتطلب قوة جسدية بالنسبة لها، مجرد تسكع ومضيعة للوقت، وأعلى بدرجة واحدة من الخدع الخفية. ولطالما أقررتُ أنا بالإنجازات الجسدية، ولكنني لم أصنفها قط بمرتبة أعلى من تلك العقلية. وإن كان قد حدث و استحوذت علي فلسفة جان جيونو في فترة ما من فترات حياتي، فتلك السنوات من تأليه الزعيم وتمجيده في البلاد لا شك حررتني من تأثيره.

لقد شكلت الكتب الأساس لعالمي، وكانت الوحدة التي اعتمدتها في القياس هي الكلمات المطبوعة، ولكنني لم أعد كل هذا سبيل خلاصي الوحيد، كما فعلت هي مع ما تؤمن به. دونما توصل منها إلى مصطلح مناهضة الفكر بوعي وإدراك لمعناه الصحيح واستخدامه، كانت هي نفسها مثالا حيا على المصطلح؛ كانت إيمرنس مناهضة للفكر. سمحت لها مشاعرها بأن تقر ببعض الاستثناء، ولكن فكرتها حول الشخص المهني تتمثل في الطبقة الحاكمة من الرجال ذوي البدل وربطات العنق. وبالنسبة لها، فإن أي شخص لم يقم بإنهاء العمل بيديه، ولكنه دفع غيره إلى القيام به يعد شخصا

مهنيا. وينطبق هذا على الحاضر كما الماضي، حين خلقت الاضطرابات في النظام الاجتماعي مراتب عليا للأغنياء وأصحاب السلطة. كانت ترى أن والدها، الذي كان حرفيا ثريا بمطلع القرن الجديد آنذاك، رجلا يعمل بيديه، وذلك لأن صورته الوحيدة في مخيلتها هي وهو يعمل في الورشة، وتتطاير من حوله نشارة الخشب. تعده رجلا يعمل بيديه، رغم أن كان يملك منزلا وأرضا، وورشة فيها قطع من الخشب والأدوات الثمينة. لا يوجد شيء في العالم كان في وسعه أن يدفع العجوز إلى نطق الكلمة المخزية: برجوازي، رغم أنها كانت تجسد ما تعنيه هذه الكلمة تماما. لقد علمتها كل الأماكن التي عملت بها الأخلاق الحميدة، ولكنها لم تغير شيئًا من نظرتها للعالم وكيف يفكر عقلها. كانت ترى أن الرجال الذين لا تشتمل وظائفهم على العمل بمعدات وأدوات مجرد طفيليات، مهما بلغت أهمية ما يقومون به، باستثناء حضرة المقدم الذي كان يحافظ على النظام. وأن زوجاتهم وبغض النظر عما ينطقنه من كلمات ليجملن كلامهن، مجرد أفواه فارغة يجب إطعامها.

في البدء كنت أنا ضمن الطفيليات. كانت العجوز تنظر بشك إلى كل ورقة ونشرة، إلى كل كتاب وطاولة كتابة. لم يكن الأمر أنها جهلت من يكون ماركس وحسب، بل لم تكن تقرأ حرفًا، ولا حتى أمسكت بصحيفة. أعتقد بأنها كانت تحاول أن تستحقر ما نقوم به، وظنت أننا نكره العمل ونحاول عدم القيام به. ولكن الوقت الذي قضته في بيتنا أثر عليها بشكل ما؛ أمر ما خفف من حدة عدائيتها منذ اللحظة التي وطأت فيها عتبة بيتنا. بدت وكأنها أقنعت نفسها أن الشيء الذي ننقر عليه طوال الوقت كان آلة من نوع ما، وأن طريقتنا في كسب لقمة عيشنا كانت تستحق الاحترام إلى حد ما.

لم تمنعها مناهضتها للفكر من استغلال فرص عمل ظهرت جراء التغيرات السياسية، الأمر الذي منح سيرتها المهنية قيمة ندرة وضمن لها

أمانا تاما. تعلمت من كل رب عمل عملت تحت إمرته أمرًا ما، دون أن تغير رأيها في أي منهم. كانت تنظر إلى كتبنا حتى تنتهي من مسح الغبار عليها. لقد تلاشى من عقلها كل شيء حفظته عن ظهر قلب في سنواتها الثلاث في المدرسة الابتدائية، وذلك مع تقدم الزمن، باستثناء المقطع الشعري الوحيد الذي تردده في يوم الأم. وأما رحلتها مع الأدب، فمنذ تلك اللحظة التي وقفت فيها إلى جانب البئر في المزرعة، شكلها لها أرباب عملها السابقون، والحياة أيضًا. فلم تعرف في العقود التي شهدتها في هنغاريا سوى الخطب والعبارات الطنانة التي أبغضتها. كان هذا ما استنزف أي شغف قد كان بداخلها للشعر. وبحلول الوقت الذي سمعت فيه شيئًا مختلفًا، كانت قد فقدت كل رغبة في إثراء علقها. حين قطعوا الخباز إبان ثورة إستر، كما أخبرتني هي لاحقًا، شعرت أن حب حياتها العظيم قد تلاشى أمام عينيها، وأضافت أن خليفته الحقير قام بسرقتها. لم تعلم هي أنها بطريقة ما وصلت المكان ذاته الذي انتهى إليه الكابتن بتلر في رواية ذهب مع الريح. مثل بطل هذه الرواية المجرد من كل المبادئ، لم تكن لديها رغبة في وضع قلبها على المحك من أجل أي شخص أو أي شيء. امتد أمامها بانتهاء الحرب العالمية الثانية، أفق لا حدود له.

كان في وسعها أن تحقق ما تريد بعقلها المتزن التحليلي، ومنطقها الذي لم تشبه شائبة. ولكنها خلت من أي رغبة في تطوير نفسها أو تنميتها، والعمل من أجل مصلحة الجميع، سواء كان ذلك بإطاعة الأوامر أو الانضمام إلى الحملات. لقد كان لها رأيها الخاص في كل خطوة اتخذتها وما دفعها إليها، وإلى أي مدى ستنطلق ومن أجل من. وبسبب ذلك، ظلت تدور في فلك زبدية الصدقة تلك وقططها الملونة. لم تقرأ الصحف قط، أو تستمع إلى الأخبار، وكانت كلمة سياسة محظورة في عالمها. لم تملأ عينيها الدموع، ولم

تهتز أركان صوتها إن حدث ونطقت هنغاريا.

كانت إيمرنس القاطن الوحيد في إمبراطورية الفرد الواحد تلك، وأكثر كمالا من البابا نفسه. كانت لا مبالاتها التامة بالحياة العامة من حولها في بعض الأوقات، قد تسببت بمواقف بيننا، ظن الغريب الذي رآها أننا نؤدي مسرحية كتلك التي تؤدى في الكباريهات. في أحد الأيام، ورغم أننا نرجع إلى السلالة الحاكمة والملك أرباد، حاولت جهدي أن أقنعها وأنا أكاد أبكي من الغضب، بأهمية ما حدث في هنغاريا منذ اندلاع الحرب، وإعادة توزيع الأراضي، وكيف أن الطبقة العاملة، طبقتها لا طبقتي، أصبحت تتمتع بفرص لا حدود لها. ردت قائلة بأنها تعرف عقلية الفلاحين هذه جيدا؛ فعائلتها من الفلاحين. لم يكن من أدنى اهتماماتهم من الذي يبتاع البيض منهم والقشدة، طالما كانوا في طريقهم إلى الثروة. فالعامل سيقاتل من أجل حقوقه، إلى أن يصبح رئيسًا. لم تكن تهتم بالجماعات البروليتارية -لم تستخدم المصطلح ذاته ولكنها شرحت معناه- وكانت تبغض الطبقة العليا الكسولة والكاذبة. فالكهنة بالنسبة لها كاذبون، والأطباء مغفلون لا يهمهم سوى المال، والمحامون لا مشكلة لديهم في تمثيل الضحية أو المجرم على حد سواء، والمهندسون يفكرون في طريقة اقتناص كومة من الطوب لمنازلهم قبل أن يبدؤوا العمل حتى، وأما المعامل الكبيرة والمصانع والمدارس فقط كانت تغص بالمحتالين.

كنا في تلك اللحظة نصرخ عاليا. كنتُ أنا الزعيم الفرنسي روبسبير، أمثل قوة الشعب، رغم أنهم كانوا يسعون في تلك السنوات بكافة السبل إلى دفعي للمرحلة التي لا يعود في إمكاني العمل بها، وإرسالي إلى الغيتو الذي اختاروه لي أنا زوجي الذي لم يسلم من مضايقاتهم وإهاناتهم، حتى عجز عن العمل. كانوا يفعلون كل هذا على أمل أن أبتعد، وأغير مجال عملي أو طريقة عيشي،

أو أغادر البلاد. كان غضبي هو الدافع الوحيد خلف صمودي. الغضب وحده، لأنني كنت مدركة طوال الوقت أنهم يضايقونني لا لشيء سوى لخوفهم على وظائفهم الدنيئة والتافهة. رغم كل هذا، تمسكت بفكرة أن البلاد كانت لا تزال تتلوى من ألم المخاض، ولم يسهل مهمتها كون القابلات حقيرات هكذا، أو أنها أنجبت عالما من القتلة المأجورين، واضعة السلطة في أيد قذرة كانت لتقطع في زمن القديس لازلو، ذلك أن أصحابها كانوا أكثر انحطاطا من اللصوص، وجردوا بلادهم عقدا بعد آخر من كل أفضالها عليهم.

ورغم عمرها، كان أمام إيمرنس الفرص نفسها لتولي السلطة، أثناء فترة التغيير المفصلية في البلاد. ولكنها لم تفعل شيئًا سوى ازدراء تحولات التاريخ تلك وانعطافاته، وأخبرت جماعة «المثقِفين» تلك بكل صراحة أنها لا ترغب بسماع أي خطاب من أي أحد عن أي موضوع، ذلك أن الخطب مكانها الكنائس. لقد جعلوها تعمل كطباخة عندما كانت صغيرة، ولم يسألها أحد ما إذا كانت ترغب في ذلك أو لا، وفي الثالثة عشر من عمرها أصبحت خادمة في بودابست. تقول هذا حتى يعود من أتى من حيث أتى، ولا تطأ قدمه من جديد فناء منزلها. لقد كسبت لقمة عيشها بيديها، لا بفمها مثل أولئك المروجون للحملات، ولا تملك الوقت للاستماع لكل هذه الترهات. كانت معجزة بحق أنها لم تسجن، خاصة بعد بدء حملات فرض النظام الفعلية. لقد كان ازدراؤها الذي أمطرته على كل شيء عظيما ومشوها. لا شك لدي في أن مروجي الحملات، قد عاشوا أشد لحظات حياتهم إيلاما، عندما أطلعتهم إيمرنس على فلسفتها السياسية. كانت تقول بأن ميكلوش هورتي وأدولف هتلر وماتياش راكوشي وكارل الرابع متطابقتين تماما. وأضافت بأنه مهما يكن من يتولى السلطة، فقد أعطى الأوامر، وأي شخص يعطي الأوامر،

بغض النظر عن من يكون وما هي أوامره وفي أي زمن أمر بها، فقد فعل كل هذا تحت غطاء هراء لا يمكن أن يفهم. مهما يكن الذي يعتلي القمة، مهما كان واعدا، وبغض النظر ما إذا كان في القمة في عقلها أيضًا، فإنه مثل غيره، مجرد طاغية آخر. في عالم إيمرنس، لم يكن هناك سوى نوعين من الناس، أولئك الذين نظفوا، وأولئك الذين لم ينظفوا، وبناءا على هذا التقسيم قام كل شيء تؤمن به. لم يكن يهم بالنسبة لها تحت راية أي علم أو شعار، وضعوا العطل الوطنية. لم تكن هناك من قوة تقدر على العجوز. كل ما فعله مروج الحملات المصدوم حتى العمق هو تحاشيها منذ ذلك الحين. لم يكن في وسعه مقاومتها أو إيقافها عندما بدأت، ولم يستطع إيجاد مسار حديث ودي معها أو حتى عادي. لم تخش أحدا قط، وكانت ذكية بشكل ساحر وعظيم، وتتحدث بكل وقاحة وصفاقة. لم يكن في وسع أحدهم إقناعها بالانضمام لهم، حتى لو أقر بصحة تقسيمها الغريب الذي كانت تصر عليه، والذي تعتمد الأفضلية فيه للشخص بناء على كونه ممن يكنسون أو ممن لم يكنسوا ولكن دفعوا غيرهم إلى القيام بذلك؛ لقد كان الرأي يعود لها أولا وأخيرًا إذا ما أرادت الانضمام للفريق الأخير، وذلك لأنه في ذلك الوقت من عام 1945، كانت الدولة قد منحتها هذا الخيار. كانت ورقتها الأخيرة والرابحة، إذا ما فشل كل شيء آخر، هي أن تلعب دور العجوز المسكينة التي أصبح كل شيء في هذا العالم يفوق احتمالها، وتظل تحدق في الأفق بشكل حالم، وكأن كل شيء يقدمونه لها أتى متأخرًا. ولكن يعود الناشط الشاب الذي يملؤه الأمل ليصر ويقول لها: «لا تزال كل الطرق مفتوحة أمامكِ يا سيدتي العزيزة. إنك من طبقة الفلاحين، كيف يكون الأمر متأخرًا بالنسبة لكِ؟ سوف يأتون لاصطحابك لصفوف الدراسة، أو سيرسلون أحدهم إليكِ ليخبرك أين تذهبين وتقدمين نفسكِ. سوف يقيمون كفاءتك، والتي بلا شك تبدو لي استثنائية. سوف تنجحين في وقت قياسي. سوف تحظين بالشهادة وتصبحين متعلمة كغيرك».

متعلمة! كانت هذه الكلمة هي التي تشعل فتيل مناهضتها للفكر. وأما مهاراتها العقلية الاستثنائية، فقد كانت تبرز عندما تنفس عن بغضها للكلمات المكتوبة. لقد كانت خطيبة مفوهة، ذات منزلة رفيعة عندما تفعل ذلك، كانت موهوبة.

كانت العجوز بالكاد تقرأ، وأما خطها فقد كان يصعب فهمه. وبالنسبة للجمع والطرح فقد تمكنت منهما ولكن بصعوبة، وكانتا العمليتين الحسابيتين الوحيدتين اللتين امتلكتهما. وأما ذاكرتها فقد كانت تعمل كجهاز حاسوبي. كانت تتذمر إذا ما كان الذي سمعته من تلفاز إحدى المنازل القريبة أو مذياعها إيجابيا، وتثني عليه إذا كان سلبيا. لم تكن تعلم مكان أي شيء على خريطة العالم، ولكنها كانت تطلعني على أخبار حكومات مختلفة، وبنطق سليم لا تشوبه شائبة تبدأ في سرد أسماء رجال الدول سواء هنغاريين أو غيرهم، وتختم دائما بهذا التعليق: «يريدون السلام. هل تصدقين أيا من هذا؟ أنا لا أصدقه وإلا فمن سيشتري الأسلحة وتحت أي ذريعة سيشنقون وينهبون؟ وعلى أية حال، لم يحدث وأن عاش العالم في سلام تام، لما يريدونه أن يحدث الآن؟» لقد أفزعت العجوز ممثلات عدد من الجماعات النسوية، عندما حاولن دفعها إلى حضور اجتماعاتهن، أو على الأقل أن تنفض عنها عدم اكتراثها العدواني هذا. وأما لجنة الشارع، والتي يتمثل دورها في معرفة ما يدور في الأرجاء، والمجلس البلدي فقد عاملاها كما لو كانت بقضاء الرب وحده وقدره قوة يصعب التحكم بها، مثل العواصف تماما، وكان الكاهن قد وافقهم على ذلك جملة وتفصيلا. لقد كانت مفستوفيليس العصر؛ لمعارضتها الشديدة كل ما هو جيد ومقبول. قلت لها مرة أنها لو لم تحارب الفرص التي سنحت لها، لكانت أول سفيرة أو رئيسة وزراء؛ لقد تمتعت بإدراك وذكاء لم يتمتع به أعضاء أكاديمية العلوم جميعهم. قالت لي:

-جيد. من المؤسف أنني لا أعلم ما يقوم به السفراء. كل ما أريده هو المدفن. دعيني وشأني، ولا تحاولي تثقيفي وتعليمي. أعلم ما يكفي، وأتمنى لو علمت أقل. دعي أولئك الناس، يأخذون ما يريدون من الدولة، بما أنكِ تقولين أن الفرص عظيمة. أنا لا أحتاج إلى أي شيء أو أي أحد. يجب أن تفهمي هذا، دعيني وشأني.

لم تكن فعلًا في حاجة إلى الدولة. ولم تكن لديها الرغبة في الانضمام لأولئك الذين يشرفون على من يكنس. ولكن لأنها لم تسع لأي منافع شخصية، لم يتبادر إلى ذهنها أنها كانت سياسية بسلبيتها تلك. لو أنها تصرفت بهذا الشكل إبان حكم هورثي، لوجد أرباب عملها متعة في سلوكها هذا. ولكن أخبرنا ابن أخيها مرة أنها قضت بضعة أيام في السجن في تلك الفترة، وذلك بسبب بعض تصريحاتها المستفزة.

لا شك في أن كل مرحلة من مراحل حياتها مشت على النمط الصعب نفسه. كان من الأفضل الابتعاد عنها عندما تبدأ؛ كان الناس يفرون بعيدا عنها بمجرد سماعها تتحدث عن رحلة غاغارين الفضائية، أو الكلبة لايكا. عندما أذاعوا نبضات قلب لايكا للمرة الأولى غضبت، واتهمتهم قائلة بأن ما يفعلونه بها يعتبر من القسوة على الحيوان. ولكنها واست نفسها لاحقًا وقالت بأن النبضات التي سمعتها ما هي إلا عقارب ساعة تتحرك؛ ما من كلب بقواه العقلية سيهرع ويتطوع للجلوس في كرة زجاجية أو مهما يكن، والدوران حول السماوات للمتعة فقط .. من ذا الذي يصدق هذا الأمر؟ وبالنسبة لغاغارين فقد كانت العجوز رسول الشؤم والهلاك .. قالت بأن مشاريع مثل هذه يجب أن لا نلتفت لها. يتجاهلنا الرب عادة عندما نطلب منه أمرًا، ولكنه لا يتأخر عندما يجلب ما نخشى. إذا كانت هي نفسها تصفي حساباتها مع جار وطأ زهورها، فما الذي سيمنع الرب من فعل المثل مع من

تطفل على كونه؟ لم توضع الأجرام السماوية هناك حتى يأتي الناس ويدورون حولها.

في اليوم الذي مات فيه غاغارين، وعندما اضطرت لأن تشهد صدمة العالم من حولها وفزعهم، فر منها الجميع حتى متواضعة العقل أديلكا. قضت إيمرنس ذلك اليوم على فناء منزلها، تتحرك ذراعيها في كل الاتجاهات، وأخبرت كل من حدث وتوقف ليستمع لها، أنها كانت قد توقعت غضب الرب، وعدم تسامحه معنا ونحن نتجاوز حدود قوانا. استخدمت كلمات آخرى للتعبير، ولكن كان هذا ما تعنيه. لقد كانت الشخص الوحيد على الكرة الأرضية الذي لم يتجاوز أسفه على الشاب الذي احترق كالنجم قدر أسفه -لو أسف-على كيندي ومارتن لوثر كنج. لقد التفتت إلى الغرب والشرق دونها تحيز أو تعاطف، قائلة بأنه يوجد من يكنس ومن يشرف عليهم في أمريكا أيضًا، وإن كيندي كان أحد الذين أشرفوا، والزنجي الذي لم يكن قد انضم لسيرك السياسيين بعد، ولكنه سافر وقام بالكثير لا بد أن يكون ملكا على الذين يكنسون. ولكن الجميع ميت لا محالة يومًا. كانت ستبكي عليهم جميعهم، ولكن عندما تجد الوقت لذلك.

بعد سنوات طويلة، وعندما التقينا أنا وابن أخيها بالقرب من قبرها، تحدثنا عن استحالة تغيير رؤاها حول العالم. لقد هز الشاب يديه في موافقة منه على رأيي وفقدانه الأمل. كان يعتقد بأن السلام أتى متأخرًا لعمته. لقد كان والده أكثر عقلانية ومنطقية في أرائه، ولم ينس كل الأوقات الصعبة التي تحملوا وطأتها، ولكنه كان راضيا ويبحث عن التقدم في الحياة. لم يكن مثل إيمرنس التي كانت معرضة لكل نوبات الغضب هذه طوال حياتها. لاحظتُ بلا شك كم كانت هذه النوبات غريبة؛ عدوانية بلا هدف تقريبا. لقد كانت تعارض فرانز جوزيف الأول بقدر معارضتها أي شخص في منصب يمكنه

من تغيير تاريخ الأمة، حتى لو كان تغييرًا يصب في مصلحتها. لم أخبر ابن أخيها عن ابن المحامي. لقد شعرت إلى حد ما أن السر وراء غضبها مرتبط به. لقد كان حضرة المقدم هو من قدم تفسيرًا لكل شيء بعد وقت طويل. قال إن إيمرنس على الأرجح كرهت السلطة بغض النظر عن اليد التي أحكمت قبضتها عليها. ولو أن الرجل الذي كان ليحل مشاكل القارات الخمس كلها موجودا، لعارضته أشد معارضة أيضًا، لأنه كان ناجحا. ففي عقلها، كل هؤلاء يجمعهم قاسم مشترك- الإله وكاتب البلدة وموظف الحزب والملك والجلاد ورئيس جمعية الأمم المتحدة. ولكن إذا شعرت بما يربط بينها وبين أحدهم، فإن تعاطفها يتفجر، ولم يشمل الذين يستحقون فحسب، بل الجميع، كل الناس، حتى المذنبين منهم.

كان في وسعي قول الكثير مما لن يقوله غيري عنها، لأنها أسرت لي بالكثير. ولكنني لم أكن غبية. في مرة من المرات، وهي تجلس على ركبتيها أمامي، وتزيل فرو فايولا الذي كان يتساقط بكثرة بعد انتهاء فصل الشتاء من على سجادة الغرفة، سمعتها تثرثر. تمتمت:

«يا إلهي، لقد أخفيت الألماني لأن قدمه أو ما تبقى منها بعدما أصابته الرصاصة، كانت تتدلى من جسده. ظننت بأنهم إذا ما جدوه فسوف يضربونه حتى الموت. وأخفيت بعد ذلك الروسي معه، في الجانب المغلق من القبو، وبقيا يحدق أحدهما في الآخر. لم تسمع بأي من هذا مني، ولن تسمع به، وإن حدث وأخبرتَ به أحدا فسوف ترى ما سأفعله بك. عندما انتقلتُ إلى المنزل، لم يكن أحد يسكنه سوى العجوز الكسيح السيد سلاوكا، والذي دفنته بنفسي بعد حين. لقد انتقل المُلاك إلى سويسرا، ولم يتوافد المستأجرون بعد. تجولت في كل الفيلا من العلية حتى القبو، ووجدت بأنه مكان مناسب جدًا للاختباء إذا ما أضفت مدفأة بداخله. كان هناك باب

صغير في آخر القبو، يؤدي إلى غرفة صغيرة دون نوافذ. ما فعلته هو أنني أخفيت الباب بالحطب، وأخفيتهم في الداخل، وأي هارب غيرهم. لك أن تتخيل تعابير وجهيهما حين جلبت الروسي لينضم إلى الألماني. لقد غلى الدم في عروق الأخير، وبدأ كل منهما يشتم الآخر بلغتين مختلفين. كنت قد خبأت أسلحتهما، وهي في حوزتي حتى هذا اليوم، لا لأنني أفكر في استخدامها، فهي تصدر أصواتا عالية. ولكنني أعرف كيف أستخدمها، لقد كان رب عملي ضابطا وصيادا ماهرًا.

لقد توفي الرجلان، كلاهما، قبل أن يتسع الوقت للصداقة بينهما. في تلك الليلة، مددت جسديهما أمام المنزل، ولم يعرف أحد قط كيف وصلا إلى ذلك المكان، واستلقيا جنبا إلى جنب بكل سلام. أخفيت في ذلك المكان من القبو أيضًا السيد برودارتش، أحد قاطني البناية. لقد كان راكوشي يسعى خلفه. وكأنني سوف أسلمه لهم! كان برودارتش يخرج كل يوم ذاهبا إلى مكان حفر التنقيب عن النفط، واضعا خوذته. كان النفط عالقا في يديه. جاسوس! جاسوس!! بل الجاسوس هو الذي قال هذا. نعم بكل تأكيد، كنت سأدعهم يأخذونه، وأترك زوجته المسكينة التي تعمل ليل نهار في التنظيف والفرك، لتدافع عن نفسها أمامهم. لقد كان يحترم الناس ويقدرهم. وقام أكثر من مرة بالجثم إلى جانبي، حين كنت أحاول إشعال النار للمرجل، وعلمني كيف أستخدم كمية أقل من الفحم. تعلمت أسرار النار منه، فكل شيء له أسرار حتى الجمر. أتى رجل راكوشي. فتحت له البوابة. «أين هو؟ هو بالتأكيد ليس هنا. أخذوه الرجال الآخرون صباح اليوم، ولكن احرصوا على القبض عليه، فهو مدين لي بالمال على علب المربى التي ابتاعها مني» لقد نجى في الغرفة الصغيرة تلك، وبقيت فارغة لبعض الوقت، حتى اختبأ فيها عضو من أعضاء الشرطة السرية. لقد خر طريحا على حديقتي. كان رجلا لبقا،

ولي به معرفة سابقة، وكان من العار أن يموت أو يلم به ضرر. لقد ساعدني عندما انكسرت يدي، ونصب لي رف التجفيف، فلم لا أساعده؟ وبالنسبة للذي جاء بعده، لا يمكن تحت أي ظرف أن أضع يدي في النار من أجله الآن، ولكنني أبقيته لعدة أيام لأنه كان تعيسًا. لقد كان العرق يتصبب منه غزيرًا، كالكلب عندما يرفعون أصحابه العصا».

استمعت لثرثرتها هذه بصمت. إيمرنس .. قديسة قرية تشابدول، والمجنونة ملاك الرحمة التي لا تسأل، وتنقذ الجميع بلا تمييز، ذلك أن كل من يُطارد لا بد أن ينقذ .. عائلة غروسمان ومن يطارد عائلة غروسمان، يعلو رايتها رف التجفيف من جهة، وخوذة السيد برودارتش من الجهة الآخرى. لم تكن العجوز غير مدركة لما يحدث في البلاد، بل غير مدركة لكل شيء حولها. لقد أشعت روحها ولكن عبر سحابة بخار. كانت متعطشة للحياة، ولكن دونما تركيز. وموهبة فذة ذهبت أدراج الرياح. سألتها مرة:

-أخبريني، هل كنتِ تنقذين الناس فقط؟ ألم تسلّمي أحدهم؟

حملقتْ في والكراهية تشع من عينيها. كيف لي أن أفكر بهذا الشكل! هي لم تبلغ حتى عن الحلاق الذي خانها وسرقها وجردها من كل شيء كانت تملكه. حتى أحلامه التي قالها لها كانت كذبا. عندما تركها وذهب يحمل الغنيمة التي سرقها، لم تقل شيئًا.. فليأخذها إذا كان يحتاجها. ومنذ ذلك اليوم، تتذكر الحلاق في كل مرة يتقرب منها رجل ما، ولم تكن على استعداد لخسارة كل شيء مرة آخرى، خاصة المال. لقد وضعت خطة للمستقبل، ولم تكن تتضمن حلاقين أو رؤساء مثل كيندي أو كلاب طائرة. لم يكن هناك مكان يسع أحدا سواها، والموتى الذي ستضمهم إليها.

رمت ما في يدها وخرجت مسرعة. تذكرتْ الوصفة الطبية التي يجب أن تصرفها لشخص مريض؛ وسألتني ما إذا كنت في حاجة لأي شيء. بقيتُ

أحدق في الفراغ بعدها، وأتساءل ما الذي يدفعها للبقاء معنا رغم شخصياتنا المتناقضة. لم أكن أعرف ما أحبته في. قلت سابقاً أنني كنت ما أزال شابة حينها، ولم أفكر بالأمر جيدا، وكم هو لا منطقي ولا متوقع الانجذاب بين الأشخاص، وكم هو قاتل تياره. لم أدرك السر رغم أنني كنت ضليعة حينها بالأدب الإغريقي، والذي لم يصور شيئًا سوى الموت والحب والصداقة، وأياديها متحدة تمسك بفأس متوهج.

نادوري وتشابدول

كغيرها من الأسرار، بالكاد تحدثت إيمرنس عن القرية الريفية التي ولدت فيها، والتي لا تبعد كثيرًا عن مسقط رأسي. وكنت أنا على الدوام أذم المدينة، وهواء المدينة وماء المدينة، والوقت الذي يحل فيه الربيع، فيذوب الثلج من على الأرض الرطبة، ويرتفع الضباب بين أكوام الثلج العالقة، فتخطفني الذكريات وأحن إلى قريتي. ولكن العجوز لم تشاركني حنيني قط، رغم أنها ميزت مثلي العطور التي حملت رسالة الفصل الجديد، والخضار الذي تكشف بخجل على أغصان الشجر، فندرك بذلك أن العمل قد بدأ في الحقول، وأن ضوء الربيع الوليد في قرانا، سيعيد الطفلة الصغيرة التي كانت تقفز وترقص دون هموم، سيعيد الطفلة التي كنتها، والطفلة التي كانت.

تلقيت في يوم من أواخر أيام شهر شباط، دعوة من مكتبة تشابدول. وأسرعت إلى إيمرنس وسألتها ما إذا كانت سترافقني إن أجبتُ الدعوة. لن يتوجب عليها حضور المحاضرة التي سألقيها، سترافقني في السفر وحسب، ويمكنها خلال ذلك الوقت أن تزور المقبرة أو تبحث عن أقاربها. ولكنها تركتني دون أن تعطيني ردا واضحا. عددت موقفها هذا رفضا، ووافقت على كل حال على تلبية الدعوة، وإلقاء المحاضرة. كان قد تبقى على موعد الرحلة ثمانية أسابيع، ولم تتحدثْ عن أمر الزيارة إلا بعد شهر تقريبًا من تلقي الدعوة. سألتني ما إذا كان سيتوجب علينا قضاء الليلة هناك، وأنها لا يمكن تحت أي ظرف أن تفعل هذا. إذا كان في وسعنا أن نخرج في الصباح

الباكر، ونعود في مساء اليوم نفسه، فإنها قد ترافقني. لقد تكفّلت شوتو بكنس الرصيف، وسوف تتولى أديلكا أمر القمامة، وسترافقني هي إذا ما كنت أرغبُ في ذلك. لقد بعث قرارها غير المتوقع هذا، الروح في وجهها الباهت. وسألتني ما إذا كنت لا أمانع إبقاء ماهية العلاقة التي تربطني بها سرية، لو سألت عنها هناك. أزعجني هذا الأمر كثيرًا؛ هل حدث وأن عاملناها كموظفة لدينا؟ قلت لها بأني سأقدمها لهم كإحدى قريبات زوجي. لا يمكن القول بأنها من أفراد عائلتي، ذلك أن عائلتها سيدركون الكذبة، ولكنها قد تكون قريبة أحد لا يعرفونه في بودابست مثل زوجي. لم أشهد من قبل ملامح وجهها تلك التي جمعت بين التسامح والسخرية في نفس الوقت. قالت بنبرة جافة:

-سوف يسعد صاحب السعادة بهذا. لا تزعجي نفسكِ. كل ما في الأمر هو أنني أردت أن أرى ما إذا كنتِ ستقبلين بطلبي، ولكنكِ فعلتِ. فعلتِ لأنكِ غبية جداً، ولا تفهمين شيئًا. أتظنين بأنهم يعتقدون أنني أصبحت الملكة مثلا؟ لقد جعلوني خادمة منذ أن كنت طفلة صغيرة. أفراد عائلتي ليسوا بالحالمين. سوف أخبرهم بحقيقة ما أعمل به، سوف أخبرهم بأني مشرفة إحدى المنازل. إنها وظيفة محترمة لا عيب فيها.

غضبت عليها كما لم أغضب من قبل، وانفجرت في وجهها. لا يعنيني الأمر! يمكنها أن تعرف عن نفسها بأي صفة ترغب.. كصائدة للكلاب الضالة حتى، أو شخص يسلخ جلود الحيوانات الميتة. لا يمكن لأحد أن يحترمها لتعهدها فيلا بطوابقها المتعددة وغيرها من المنازل، وخدمتنا أيضًا. أفضل ما في الأمر، رغم أنها رفضت تصديقه، أنني دعيت إلى تشابدول من أجل المهنة التي كانت تزدريها: الكتابة. كان هناك أناس، حتى في القرية التي ولدتْ فيها، لا يعدون الكتّاب أشخاصا كسولين؛ أناس لم يكونوا مثلها

وقرروا باعتباط تجاهل أسماء كبيرة مثل جيسون أران وساندور بيتوفي. اكتفتْ بالصمت، ولم تذكر أمر الرحلة مجددا. وحتى اليوم الأخير، لم أكن أعلم ما إذا كانت تنوي مرافقتي أم لا، ولكنني تركت الأمور تسير دونما تدخل. خشيت أنها ستظل في البيت وترفض مرافقتي، إذا ما أزعجتها وتحدثت عن الأمر مرة آخرى.

خلال الأيام التي سبقت المحاضرة، كنا نتصرف كسابق عهدنا. كانت تنفض الغبار عن أرفف المكتبة، وتستلم الطرود الخاصة بنا، وتستمع لحديثي حين أشارك في برنامج ما على المذياع، ولكنها لم تبد أي رأي؛ لم يكن الأمر يعنيها. كانت تلقي بالا حين نخرج على عجالة لمؤتمر أو اجتماع، أو محاضرة لمجموعة من الأدباء، أو نذهب لحضور بعض دروس اللغة. لقد رأت اسماءنا مكتوبة على أغلفة الكتب، وأعادتها على الرف بعد أن مسحت عنها الغبار بعناية واهتمام، كما تفعل مع الشمعدانات. لم يشكل كل هذا أي فرق بالنسبة لها. كانت تعده ذنبا يمكن تجاهله، مثل الإفراط في الأكل أو الشرب. حداني طموح صبياني إلى محاولة استمالتها، لما كنت أراه سحرًا لا يقاوم من كلاسيكيات الأدب الهنغاري. ألقيت على مسامعها مرة قصيدة بيتوفي التي تحمل عنوان دجاجة أمي. ظننت بأنها ستنجذب للقصيدة، لأنها تحب الحيوانات. وقفت تحدق في، ومنفضة الغبار لا تزال في يدها، ومن ثم أطلقت ضحكة جافة ومزعجة. وبدأت تقول ما هي الحجارة؟ ما هذا الذي نطقت به! ما هي الحجارة؟ وما هذه اللغة الغريبة؟ لا أحد يتكلم بهذه الطريقة الآن. لأخرج من الغرفة وأنا أغص بغضبي.

لم ترافقني في تلك الرحلة، ولم يكن هذا ذنب أي واحدة منا. لقد توجب على شوتو أن تذهب إلى مكتب المجلس البلدي، لأمر يخص رخصة الكشك الخاص بها، ولم تعلم بهذا الأمر سوى في الليلة التي سبقت الرحلة، فذهبت

إلى إيمرنس واعتذرت منها، وقالت بأنها لن تتمكن من تولي مهمة الكنس عنها، ولا تعلم كم الوقت الذي ستقضيه هناك تحديدا. لقد كان الموقف بينهما قاسيا يعجز العقل عن تخيله. كلما تبدت براءة شوتو للعجوز، كلما زادت حدة الشتائم التي كانت تكيلها لها. أكثر من أي شخص آخر، كانت خططها دائما ما تتغير وذلك بسبب ترتيبات غيرها. لقد كانت تعلم جيدا أن شوتو مقيدة مثلنا بأمور عدة، ولو أنها استدعيت لما استطاعت إخبارهم أنها مرتبطة بأعمال آخرى. لم يكن من المجدي الجدال حول ما حصل، أو شتم شوتو بلا هوادة. ولكنها قامت بذلك. انسحبت شوتو مثل كريولانس، البطل الذي عدل عن روما بطلب من أمه وزوجته، ومر وقت طويل قبل أن تعود العلاقة بينهما إلى سابق عهدها.

في يوم ذهابي إلى القرية، أتت إيمرنس آناء الفجر، وفي وقت أبكر من العادة، لتصطحب فايولا النعسان في جولته الصباحية. وبقيت إلى جانبي وأنا أستعد؛ وانتقدت تسريحة شعري وفستاني وكل شيء. لقد استفز ذلك كل أعصابي. لمَ تتدخل وتعطيني الأوامر وكأنني ذاهبة إلى حفل رقص ملكي؟ أخبرتني وهي تشد شعري وتلفه بأن آخر زيارة لها لتشابدول كانت في عام 1945، وأنها عادت على الفور على رحلة القطار التالية، بعد أن باعت طعاما هناك، مقابل بعض الأشياء الصغيرة. وقبل ذلك وفي عام 1944، قضت أسبوعا كاملا هناك، ولكنها لم تستمتع أبدًا؛ كان أقاربها في ذلك الوقت في حالة يرثى لها. لقد كان جدها طاغية منذ عرفته، وأما بقية أقاربها لأمها، فقد اضطربوا بسبب السيرك الذي كان يجري. والسيرك في معجم إيمرنس يعني النكبات الوطنية، وفي ذلك العام كانت النكبة هي الحرب العالمية الثانية. وأصبحت النساء على إثرها عصبيات وجشعات وغبيات أيضًا، وأما الرجال فقد فقدوا صوابهم وأصبحوا يطعنون الناس،

مثلما كان يحدث في أجنحة مسرح التاريخ، وما خفي خلف ستارته. لو كان الأمر في يدها، لحبست كل شباب ثورة عام 1848 في قبو وألقيت عليهم محاضرة مفادها: لا صراخ، ولا أداب، قوموا بعمل شيء مفيد. لم تكن ترغب في الاستماع لأية خطابات ثورية، وإن حدث ذلك تضطر إلى التعامل معهم جميعا، واحدا واحدا. وتأمرهم أن يخرجوا من المقاهي، ويعودوا للعمل في الحقول والمصانع.

لم تعطني التعليمات الخاصة بي، حتى أتت السيارة التي ستقلني، واسم قريتي تشابدول ونادوري مطبوع عليها. طلبت مني إذا ما توفر لدي الوقت، أن أطل على قبور أفراد عائلتها، وأرى حالها، وأرى البيت القديم كذلك إذا ما كان في وسعي زيارته، البيت الذي ولدت فيه في ضواحي نادوري البعيدة. وقالت بأنها تود لو قمت بزيارة محطة قطار تشابدول، وأن أمشي في منصة البضائع حتى آخرها. هذا بدا مهما بالنسبة .. حسنا منصة البضائع. وإذا ما قابلت أحد أقربائها -لا بد أن يكون قد تبقى أحد منهم هناك، ذلك أنهم كتبوا لابن أخيها وبعثوا له الرسائل- فإنهم ليسوا من عائلة سيرداش الذين لم يبق منهم أحد، بل من عائلة ديفك التي تنحدر منها والدتها. لم تكن هناك أي رسالة منها لهم، ولكن إن سألوني عنها، فعلي أن لا أخبرهم بالكثير، وأقول لهم الحقيقة، حقيقة أنها حية ترزق. لم أعدها بأي شيء؛ لم تكن لدي أدنى فكرة عن وقت فراغي حينها. كل لقاء كهذا لا يعتمد على وضع الطريق وحسب، بل والبرنامج الذي نظموه لي. نادرًا ما تبدأ مثل هذه الفعاليات في الوقت المعلن عنه؛ لأنه يتوجب عليهم انتظار حضور الناس، أو انتهاء أمين المكتبة من تنظيم وجبة الغداء. كان من الصعب علي السؤال عن المقابر، ولكنني سأفعل ما بوسعي. لقد وصلت السيارة في وقت أبكر من المتوقع. ربما، ولو حاولت جهدي، سأجد الوقت الكافي لفعل كل ما

طلبته مني.

في اللحظة الأخيرة، ظهرت شوتو أمامنا في الشارع وبدأت تصرخ. لقد سخرتْ من إيمرنس، وبقائها في بيتها رغم أن الأخيرة غيرت قفل الباب. لقد أدركت جيدا لمَ قامت العجوز بفعل ذلك. لم تكن تثق بها .. لم تكن تثق بشوتو. ظنت بأنها سوف تسرقها في اليوم الذي يعلم الجميع بأنها ستذهب معي، ومن في المكان أفضل من شوتو للقيام بهذا؟ وربما أخذت فايو لا أيضًا. «اغربي عن وجهي واقتلي نفسكِ» جاء رد إيمرنس هذا باردا وجافًا. صعقت شوتو بما سمعته، ولكنها لم تنسحب. لقد كانت الشتيمة التي نطقت بها العجوز غير متوقعة، وغير مبررة مثل الاتهامات التي وجهتها شوتو تماما.

كان هذا آخر ما رأيت منهما، وأنا أستقل السيارة. شوتو وهي تحدق بإيمرنس وكأنهما توشكان على لعب الكاراتيه، بعد أن صوبت لها العجوز شتيمة شلت حركة جسدها. صحت لإيمرنس وقلت بأني سأفعل ما بوسعي لأعود للمنزل باكرًا، وتمنيت أن يكون هذا قبل منتصف الليل، لأنه إذا ما وصلت بعد ذلك الوقت، فسوف أكون متعبة حد عجزي عن الكلام. «متعبة! ممّ؟ الذي سيتعبون هم المساكين الذين سيضطرون للاستماع لكِ. سيتوجب عليهم إطعام ماشيتهم وحلبها ودفعها إلى النوم والقيام بألف عمل وعمل لا تعلمين عنه شيئًا، بعد أن سيقوا إلى المركز الحضاري ذاك. كل ما ستفعلينه هو الجلوس على كرسي والثرثرة والبربرة في شيء لا نفع منه»

رفضت أن رد عليها، وصرفت النظر عن توضيح الطاقة التي يستدعيها التركيز لساعات وساعات، في أشد أيام الصيف حرارة في قاعة دون تهوية، ونوافذ مغلقة بسبب الإزعاج في الخارج. طلبت من السائق أن يدير محرك السيارة. شعرتُ وبكل صراحة بالخذلان. كنت قد تمنيتُ أن تمتنع إيمرنس ولو لمرة على الأقل عن استفزازي، وأن تطلب مني إحضار شيء لها، غصنا

منا الشجيرات المحيطة ببيت طفولتها مثلا، أو أي تذكار آخر. عندما أعود إلى بيتنا في الريف، أعود على الدوام حاملة كيلوين من الرغيف. ولكنها لم تطلب مني أي شيء. ونحن نبتعد، نبح فايولا دوننا تكلف، وكأنه يعرف أن هذا الانفصال لن يدوم طويلا، وأن الأمور ستسير على ما يرام حتى يحل المساء.

سارت رحلتنا بأفضل شكل ممكن، ولم نتوقف في أي مكان. اعتدت أن لا أكل قبل ذهابي إلى أي فعالية، وذلك لأنهم كانوا يهتمون بهذا الأمر ويقدمون لي الطعام؛ ومن الوقاحة أن لا أكل. كانت القرية الصغيرة نادوري جميلة. لم أضطر للسؤال عن مكان المقبرة، ذلك أنها بدأت من أطراف القرية .. من اللوحة التي حملت اسمها، ورائحة الميرمية والزهور البرية التي حملها النسيم من شواهد القبور المتداعية. توقفت السيارة، ودخلت المقبرة. كانت هناك امرأة تسقي أزهارًا بالقرب من السياج. لقد كان كبيرة بما يكفي لتعرف اسم سيرداش وديفك، ولكنها قالت بأنها لم تولد في هذه القرية، وأتت هنا للزواج، ولا تعلم شيئًا عن عائلة النجار. كان من الواضح أن المقبرة لم تعد تستخدم، والذين استحالوا ترابًا، أصبحوا ينامون تحت ركام الأوساخ، معظمهم دون هوية واضحة، ذلك لأن شواهدهم الحجرية وصلبانهم الخشبية، سحبت بعيدا أو سرقت. وإن كان الشخص ذا أهمية، فإنه عائلته كانت قد أخرجت جثته منذ زمن. لم يكن هناك سوى عشرين قبرًا تقريبًا أوليت عناية جيدة، كالقبر التي تقف عليه تلك العجوز. ظللت أبحث لبعض الوقت بين جحور الأرانب وأكوام التراب، برغبة حقيقة في إيجادهم. هناك ما يجذب في المقابر المهجورة في فصل الصيف. تابعت المشي بين القبور، والحشائش الضارة تسابقني. لم يكن هناك ما يرى، وفي الأماكن التي تمكنت فيها من قراءة الاسماء التي تكاد تتلاشى، لم تكن هي الاسماء التي أبحث

عنها.

ولكن الحظ حالفني فور وصولي إلى تشابدول. ما إن وطأت قدمي الساحة الرئيسية للقرية، حتى رأيت لوحة تحمل اسم عائلة أم إيمرنس أمام عيني، مكتوب عليها: متجر السيد كازبا ديفك للساعات التقليدية وكوارتز. متجر السيدة إلدكو ديفك للمجوهرات. كان الزوجان في ريعان شبابهما، ويعملان في المحل. أخطأت عندما توقعت أن دخولي المتجر، وإخبارهم عن قريبتهم إيمرنس سيرداش التي تعيش في بست، وعن والدتها الراحلة روزاليا ديفك، زوجة جوزيف سيرداش التي قد تكون قريبتهم سوف يحدث ضجة. لم يكونا على تواصل مع العجوز، ولكنهما يعرفان من تكون. اقترح علي صانع الساعات أن أبحث عن أمهم الروحية التي كانت امرأة من نساء عائلة ديفك. كانت تربطها صلة قرابة مباشرة بإيمرنس، وقد ترعرعتا سوية، وستكون سعيدة برؤيتي. كان يحدوها الفضول لمعرفة ما حل بطفلة إيمرنس الصغيرة، بعد كل هذا الزمن، والتي لم ترها منذ أخذوها إلى العاصمة.

حرصت على أن لا أبين الفجوات فيما أعرفه عن إيمرنس، وأنني أسمع للمرة الأولى بأن لها ابنة. ضغطت عليهم لعلهم يخبروني بالمزيد، ولكنهم لم يستطيعوا تذكر أي شيء، سوى الذي أخبرهم به من رحلوا. كانت إيمرنس قد ظهرت خلال السنوات الأخيرة، حاملة طفلة بين يديها، وعاشت الصغيرة في كنف جد إيمرنس لعام كامل. لم يكن الزوجان يعلمان شيئًا عن قبور العائلة، ولكن الأم الروحية لصانع الساعات، ستتذكر كل شيء بلا شك. توجهت بعد ذلك إلى المكتبة. وبما أن الوقت لم يحن لوجبة الغداء بعد ناهيك عن المحاضرة، فقد كان أمين المكتبة سعيدا باقتراحي الذهاب إلى العجوز، وطلب مرافقتي.

لقد كانت قريبة إيمرنس تلك تسكن في بيتها الخاص، وكان لها المظهر

المميز ذاته بالطول نفسه والنحالة، وطريقة المشي الوقورة. كان جليا عليها أنها استمتعت بالحياة، حتى في ذلك العمر المتقدم. كان منزلها مؤثثا بذوق رفيع، ومزودا بنوافذ جانبية تسمح لنور الشمس بإنارة المكان كله. كان فخرها باستقلالها المادي واضحا عليها. قدمت لنا المخبوزات، في طبق رفعته من منضدة ثمينة، وأضافت بأن الأثاث في بيتها من صنع والد إيمرنس، الذي كان نجارًا وصانع خزائن كما كنت أعرف بالطبع. كان جدها قد أحضر المنضدة عندما شَكل التعاون في نادوري، وتبدل نشاط ورشة النجار ليتناسب معه. بدأتْ بعد ذلك تسألني عن حال إيمرنس وابنتها بعد اختفائهما. كانت تشعر بأن النهاية سعيدة للغاية، أو العكس تماما، ذلك أن ابن أخ إيمرنس لم ير ابنتها قط. وتابعت ونحن نأكل المخبوزات اللامعة، ونرتشف النبيذ المألوف قائلة بأن جدهما كان رجلا صعب المراس. ولم يفهم قط الخطر الذي يواجهنه الفتيات العاملات في بودابست. وظن الناس عندما أتت إيمرنس بالطفلة، أنه سيضربها حتى الموت. لو لم يكن قد تعرض لجلطة في الفترة التي سبقت ذلك اليوم، وما عاد هو الشخص نفسه، لكانت ماتت بين يديه. في هذه الأيام، أصبح الناس يتقبلون مثل هذه الأمور بصدر رحب، وحتى لو لم تكن العائلة راضية عما فعل الشباب، فإنهم لا يثيرون ضجة حول الأمر. لقد أصبحت السلطات والمجتمع يحرصون على حماية هؤلاء الشباب كما لاحظت. في أيامنا تلك كان القانون يسعى لتحديد هوية الأب، ولكن إيمرنس لم تخبرهم بأي شيء، ولم تصدر أية أوراق رسمية للطفلة. لو لم يكن الجد يتمتع بمكانة رفيعة بين الناس، ولو لم يغدق على مسؤول مكتب البلدة الهدايا، لكانت ستقع في مشكلة كبيرة. لقد تولى ذلك المسؤول حل المسألة، وقام بطريقته الخاص بإصدار أوراق رسمية للطفلة الصغيرة، عوضا عن تلك التي خلفتها إيمرنس -حسب ما ادّعت- في بودابست. ولأن هوية الأب لم تكن معروفة، فقد حملت الصغيرة

اسم عائلة ديفك. وما حدث بعد ذلك هو أن الجد أصبح مغرما بها، أكثر من أي حفيدة من حفيداته. ولأنها بقيت عنده دونها أم حتى، فإنها أحبته أيضًا. لقد كانت تتمسك بملابسه، حتى تصعد وتضمه إليها، وعندما أتت إيمرنس واصطحبتها، انفجر العجوز باكيا. وحتى يوم وفاته، كان يتحسر كيف تركها تذهب وهو يحبها كل هذا الحب. بغض النظر عن كل هذا، قالت قريبة إيمرنس بأنهم سيسعدون بزيارتها لهم في أي وقت، سواء بمفردها أو مع ابنتها التي لا شك أصبحت شابة الآن. وأضافت بأن الجد وزوجها وبكل أسف ماتا منذ زمن. كانا آخر من عاش في البلدة من عائلة ديفك؛ وأما البقية فقد غادروا إلى كل مكان.

عرضت علي القريبة أن تصطحبني إلى القبور، ولم يكن الحر الشديد ليمنعها. لقد دفن الجد ووالديها هناك في مقبرة تشابدول، وأما عائلة إيمرنس فقد دفنوا في مقبرة نادوري، والتي أغلقت ولم يعد يدفن فيها أحد. خفضت صوتها فجأة وبدا وكأن ما توشك أن تقوله، لا يزال يضايقها. لا يمكن لأحد أن يكون سعيدا بالجد الذي عارض زواج ابنته، من فرد من أفراد عائلة سيرداش، دون سبب مقنع وواضح. لقد أمّن النجار حياة طيبة وكريمة لعائلته حتى مماته، ولم يكن له ذنب في المصيبة التي حلت بها. لم يسمح الجد لابنته أو زوجها أو التوأم وابنتهما، بالاقتراب منه. وحتى الجنازة أقيمت في قرية نادوري، ووضعت كل العائلة إلى جانب قبر النجار، وكأنهم كانوا ضحاياه. ربما فهمت قريبتها النوايا خلف دفنهم في نادوري لا تشابدول بشكل خاطئ، فقد كانت صغيرة عندما حدث كل هذا، إضافة إلى أننا نرى دائما أشخاصا يرفضون قطعا، زيارة قبر ما أو رؤيته من شدة حبهم لمن فيه، وعدم قدرتهم على احتمال وقع الأمر. وبالنسبة لزوج أم إيمرنس الأخير، فقد كان بلا قبر محدد، وقالت لا بد وأن إيمرنس قد أخبرتني أن

الرجل انتهى به المآل في قبر جماعي في غاليسيا. وأضافت أنه إذا ما أرادت قريبتها الاهتمام بقبور عائلتها، فإن عليها القيام بذلك عاجلا، لأن نادوري وتشابدول قد أصبحتا بلدة واحدة، وتتبع إدارة واحدة منذ العام الماضي، ولدى هذه الإدارة خططا قريبة تتعلق بالحفر في المقبرة القديمة. لم تستطع تحديد المكان الذي دفنت به عائلة سيرداش، لأنها لم تزرهم منذ طفولتها، ولكنها اقترحت زيارة قبور أفراد عائلة ديفك وكوبرو الذين تزوجت منهم.

ولأن الوقت لم يحن بعد على الغداء والمحاضرة، فإنني رافقتها وألقيت نظرة على النصب العمودي الجميل. لقد كان مصنوعا من الرخام، وتحت الأسماء التي كتبت عليه، رسمت أنهار بابل وأشجار الصفصاف الباكية، بآلات كمان تتدلى من أغصانها. قدمت لي قريبة إيمرنس بعد ذلك هدية. كانت الهدية صورتين، استغرق عثورها عليها وقتا طويلا. لقد كانت أم إيمرنس عروسًا جميلة. ما ضايقني هو الصورة القديمة، والتي قصت حوافها بشكل متموج. كانت صورة لإيمرنس وهي تحمل طفلة صغيرة بين يديها. لقد كانت الإضاءة سيئة جداً، ولم تكن ملامح إيمرنس واضحة وضوح ملامح الطفلة. وحتى في ذلك الوقت البعيد، كان غطاء رأس العجوز حاضرًا، ولكنها تزينت بفستان أكثر بهجة. لا شك في أنه كان فستانا مستعملا، منحه إياها رب عمل لها، ولم يكن يناسبها. لم تتغير ملامح وجهها كثيرًا، ولكن كانت هناك بهجة جذابة تسكن عينيها، لا غِلاً.

حضر جميع أفراد عائلة ديفك وكوبرو محاضرتي. لم يكن أحد منهم ينوي القيام بذلك، ولكنهم فعلوا ما ظنوه لائقا، خاصة بعد أن زرتهم أنا. لقد كان الجمع أقل من المعتاد، ومن حضر استمع دونما اهتمام بما قلته. كانوا يشعرون بالحر الشديد. بدأت أفكر وأنا ألقي نصي للمرة المئة، ما الذي حدث يا ترى للطفلة بين ذراعي العجوز.

ونحن في طريق العودة، طلبت من أمين المكتبة أن نتوقف عند محطة القطار. لم يبد عليه التفاجؤ، حتى لو شعر به عند طلبي. مشيت حتى آخر منصة البضائع، كما طلبتْ مني. لقد كانت مثل غيرها من المنصات المهجورة تماما، بحاجزها الإسمنتي المرتفع. وفي طريق عودتنا إلى نارودي، توقف السائق لدى بيت إيمرنس القديم، الذي كان لا يزال يدعى حتى ذلك الوقت ببيت سيرداش. بدا البيت بارزا من بين غسق مساءات الصيف النادرة تلك، حين تنسحب الشمس على حين غرة، وتشد خيوط أشعتها، مخلفة خطوطا برتقالية وزرقاء وبنفسجية، تتلألأ خلف صفحة السماء الرمادية. نظرنا إلى المنزل من الماضي؛ لقد كان كما وصفته إيمرنس تماما، بواجهته المطلية، والأشجار التي تحيط به، وخطوطه وارتفاعه. لم تجمله ولم تقلل من قدره. ما كان مذهلا هو دقتها في تذكر حجم كل شيء فيه. لم تكن تتخيل قصرًا كما في الحكايات الخيالية، يحل محل بيت طفولتها الساحر. لقد كانت طريقة بناء جوزيف سيرداش للبيت جميلة؛ تصميمه للبيت لم ينبع من مودة وحسب، بل وحب. كان يحظى بقوة ووجود أبدي. كانت هناك ورشة في مكان الورشة القديمة، ولكن بمنشار كهربائي، وكلاب مقيدة نبحت محذرة. وأما الحديقة الصغيرة فما زالت في مكانها، بأشجار الورد التي كبرت، وشجرتا القيقب التي زرعها أحدهم، بالقرب من شجرة الجميز، وشجرة الجوز التي كبرت وطالت، وتدلت من أحد غصونها أرجوحة وحولها يلعب مجموعة من الأطفال.

لم أجد فناء المزرعة، بل وجدت حقلا واعدا من الذرة في مكانه. بقيتُ أحدق في الأشجار التي اصطفت كجنود جيش، وأنا أفكر في الذكريات التي لا بد تحملها هذه الأرض، وكل الدماء والموتى، وأحلامهم وفشلهم وهزائمهم. كيف لها أن تتابع تقديم المحاصيل وعلى ظهرها هذا الحمل

الثقيل؟ كان رئيس العمال الشاب قد رأى سيارتنا وهي تتوقف، وأخرج منها أنا. اعتقد أنني أتيت من أجل جراء سلالة الكوموندور التي كان يبيعها. أخبرته بأنني أملك كلبا، وأنني أتأمل البيت لأنني أعرف شخصا كان يقطن فيه. وبمجرد أن أدرك عدم رغبتي في شراء جرو منه، فقد اهتمامه بي. فكرت في أن أطلب منه وردة من الشجرة القديمة، ولكنني في النهاية لم أفعل. كيف لي أن أعرف إلى أي مدى وصلت ذكرياتها، وهي لم تخبرني حتى ذلك اليوم بأنه لديها، أو بمعنى أصح كان لديها ابنة. واقفة في ذلك المكان، في المسرح الحقيقي لطفولتها، حاولت أن أتوصل إلى إحداثيات كينونتها، ولكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلا. لم يكن لها وجود في البيت القديم، تمامًا مثل بيتها في بودابست. وحتى لو كان هذا البيت هو البيت الذي انتمت إليه، فإن الظروف التي تحيط به دفعتها لعزله عن عالمها. وبين كل النور الذي بدأ يتلاشى، والخطوط الملونة التي تلألأت في الغسق، لم يكن واضحا بالنسبة لي سوى أمر واحد. كانت القرية بالنسبة لها قد تلاشت في العدم. لقد وصلتْ للمدينة فاحتضنتها، رغم أنها لم تكشف للأخيرة أيضًا حياتها. إن عناصر وجودها الحقيقية و الوحيدة، التي يمكن أن تفهم من خلالها، تقبع خلف ذلك الباب الموصد، ولم تكن لديها أدنى نية لكشفها. قفلتُ عائدة إلى السيارة وانطلقنا للعاصمة، دون أن أخذ أي ورقة ذكرى لها.

كنت أعلم يقينا أنها لن تكون في انتظاري عندما أعود؛ لم يكن كبرياؤها ليسمح لها. كانت تفضل أن لا تسمع مطلقا عن ما تبقى في حياتها السابقة، على أن تبدي لي أي اهتمام. حييت زوجي الذي أخبرني أنه تناول هو وفايولا وجبة عظيمة، كوجبات الأعياد تلك. حييته وذهبت بعد ذلك إلى بيت العجوز. أتى الكلب ليحييني عند مدخل الحديقة، وأما إيمرنس فقد كانت تقعد على سلة غسيل، وتستمتع بالهواء الطلق، ولم تقف من أجلي. قلت في

نفسي: ستعلمين ما أحمله لكِ من قصص الآن؛ القنبلة النووية توشك أن تقع. ألم تتوقعي أن أعرف مصادفة معلومة أو معلومتين عن ماضيكِ كنتِ قد أخفيتها عني؟ أخبرتها أولا بما جرى بيني وبين صانع الساعات، ومن ثم بدأت أضرب في العمق. تحدثت عن ظروف قريبتها الممتازة، وأضفتُ بأن جدها لا شك رجل صعب المراس، وإلا من ذا الذي يعاقب الموتى الذين عانوا ما يكفي في حياتهم؟ كيف يمكن تفسير قيام رجل بإهمال القبور حتى تداعت هكذا؟ لا يمكن لسلوكه هذا أن يكون مقبولا أو حسنا.

كانت إيمرنس تحدق في المدى، وكأنها رأت في الظلام ما لا علاقة له بي. موجة من الخجل حاصرتني؛ لمَ تدخلت هكذا في ما يخصها؟ ما الذي توقعته منها؟ اعتراف مثلا؟ خلال السنوات تلك بيننا، لم تسمح لي بالاقتراب منها ولا حتى شبرًا واحدًا. هل رغبت حقًا في أن تحكي لي عن الطفلة التي أنجبتها دونما زواج، ولم تجلب لها سوى العار والمشاكل والقلق الذي لا مفر منه؟ هل أصبحت سيئة الخلق وسادية هكذا أستمتع بعذاب الآخرين؟ هل تأملت أن تتباهى وتتبجح بأمر كانت تشعر بوجوب إخفائه؟ أدارت ظهرها للحديقة، ومنذ تلك اللحظة لم ترفع عينها عني، وهي تمسك برأس فايولا بين ركبتيها. قد يكون ما سأكتبه الآن مدعاة للضحك، ولكنني شعرت بأن فايولا كان يعلم عن ابنة إيمرنس، لأنها أخبرته بكل شيء كان فضولي يدفعني لمعرفته.

بدأت تخاطبني قائلة:

-قلت لك من قبل، لدي المال الكافي منذ مدة، ولكنني قررت أن أنتظر حتى أموت، وحينها يمكن لابن أخي أن يتكفل بأمر المدفن. أنا لا أكره جدي، كان ما كان عليه؛ غيور وقاسي القلب. لم يسامح أبي أبدًا على أخذ أمي منه. لم يكن يحبني أيضًا، ولكنني لم أحمل له الضغينة جراء ذلك. يجب إكرام الموتى. سوف أحضرهم جميعا، كل واحد منهم. سوف ترين بنفسكِ،

سيكون مدفنا لا مثيل له في بودابست. لعل واحدا من أصدقائك الرسامين أو النحاتين، يرسم لي المخطط كما أمليه عليه. ما كان للمسألة أن تكون بهذا السوء، ولكن جدي كان يخشى أن يتحدث الناس في تشابدول بالسوء، من وراء ظهره. كانت الطامة حين جلبت الطفلة. كان جدي ذكيا مثل شيطان، وعلم جيدا كم كان العار شديدا، لذا قرر أن يعاقبني بتجاهله للقبور، ترك الصلبان الخشبية تتكسر. كنتُ أعيش في بست، ولم أستطع أن أزور المقبرة.

حمدا للرب أنها تحدثت عن ابنتها، حتى أعطيها الصور. تأملتهما مليا، ولم ترتسم على وجهها أية مشاعر. كنتُ قد تخيلت أنها سوف تتأثر أو تشعر بالخجل، ولا أدري ما الذي دفعني إلى هذا. ربما كان لديها ألبوم صور كامل للطفلة. ما الذي أعلمه أنا عن مكنونات مدينتها المحرمة؟ لم تكن تنظر للصورة مثلما ستنظر أي أم، أو أم موجوعة ظهر ماضيها للنور. لقد كانت تنظر مثل جندي فاز في كل معاركه.

-إنها الصغيرة إيفا، الضيفة التي كنت أنتظرها في ذلك اليوم. تعيش الآن في أمريكا، وترسل لي النقود، وطرودا أوزع معظمها. نصيبكِ منها دائما هو الأشياء عديمة الفائدة، مثل مستحضرات التجميل. هذا ما بدتْ عليه حين أعدتها من تشابدول إلى بودابست. وأما الآن فلا أود رؤية وجهها، ذلك أنها لم تأت حين طلبت منها المجيء. يجب عليها أن تحضر إذا ما دعوتها، حتى لو كان العالم كله يتداعى. لولاي لحطموا رأسها، أو أرسلوها لغرف الغاز تلك.

مدت لي العجوز الصورة وكأنها لم تعد تريد أي شيء يتعلق بالفتاة. كان باديا عليها وهي تتحدث، صعوبة البوح بأمر كهذا.

-أتعتقدين أن الأمر كان سهلا علي؟ حتى ذلك اليوم، كان الجميع يحترمني. كنت المثل الأعلى لهم؛ إيمرنس سيرداش: الفتاة الطاهرة المحترمة

التي تعيش حياة رصينة، وتعرف حق المعرفة حقيقة الرجال. عندما تركها ذلك الرجل، وأتى بعده الحلاق وسرقها من كل مالها الذي جمعته على مدى أعوام، والثمين الذي تملكه، لم تتجرع الصودا الكاوية، بل وقفت وكأن شيئًا لم يحدث، وأعلنت منذ ذلك اليوم، بأنها لن تكون ملك أحدهم، أو تسمح لأي رجل بالاقتراب منها. فليذهبوا ويخدعوا الأخريات ويبتزونهن. لم يقترب أحدهم بعد ذلك مني. أتظنين بأنه كان من الممتع لي أن أظهر في بيت جدي، وبين يدي طفلة وأقول: «إنها طفلتي، وعليكم أن تطعموها حتى تنتهي الحرب؛ ليس في وسعي الاهتمام بها في بودابست، ولا وقت لدي لملاعبتها. ماذا أفعل إن كان خسيس ما قد تمكن من خداعي؟» لم يكن في وسعي إبقاؤها معي في بست، لقد كان الوضع خطيرًا للغاية. ولم أحتمل فكرة حبسها في البيت؛ فالصغار يحتاجون إلى اللعب في الهواء الطلق.

تنهيدات عميقة ندت من الشجيرات، وفايولا نائم ورأسه متكئ على حذائي إيمرنس.

-تتذكرين القوانين اليهودية أليس كذلك؟ اختار كبار السن شرب السيانيد، ودفع الشباب المال من أجل الفرار. ولكن كان من الصعب عليهم قطع الجبال على أقدامهم، والزحف بطفل صغير. لذلك أعطوني إياها. لقد علمت زوجة السيد غروسمان ما عنته لي الصغيرة إيفا، وما عنيته لها. كانت الصغيرة تبكي إذا ما اقترب أحد غيري منها. وحتى وهي بين يدي أمها، كانت تريد أن تعود لي. لم يكن جميع الألمان أشرارًا، فصاحب الفيلا كان مالك مصانع ألماني. ودفع هذا الألماني من أجل تهريب عائلة غروسمان، وعينني متعهدة للبيت، وائتمنني على كل شيء، وعاد بعد ذلك إلى بلاده. كانت هناك خطة. سكنت هنا وانطلقت عائلة غروسمان إلى الحدود، وأخذت أنا الطفلة إلى القرية. كان من الأفضل أن يعتقد الناس أنها اختفت مع والديها.

لا تسأليني عن المعاملة التي تلقيت عندما وصلت إلى هناك. لم يكن ضربا عاديا، وما ظننت في أنني سأتمكن من المشي مجددا. كنت أقول لجدي اضربني والكمني قدر ما تشاء، وأخبر الجميع بما فعلت، ولكن دع الطفلة وشأنها. أعطيته كل ما أحمله من حلي ومال، تركته عائلة الطفلة لي من أجل رعايتها. لقد ظن بأنني سرقت كل هذا من عائلة غروسمان، بسبب الارتباك الذي سببته الحرب. ولكن هذا لم يمنعه من أخذه. لقد أحسنوا استغلال المال، وقاموا على رعاية الطفلة حتى عادت عائلتها، وكان في وسعي جلبها من القرية. لقد كان المساكين يظنون أن في وسعهم بدء حياتهم من جديد في البلاد، ولكنهم غادروا بعد حين. وتعبيرًا عن امتنانهم لي، منحوني كل ما تركوه، بما في ذلك أثاث غرفة معيشتهم الذي كنت قد أحضرته لبيتي، من أجل الحفاظ عليه. اختفوا بعد ذلك. كانوا خائفين من البقاء هنا لأن راكوشي قد فتح السيرك من جديد! هل زرتِ منصة البضائع؟

-نعم فعلت.

-لقد كنت أود أن تريها، لأنها تعاودني دائما في أحلامي، كما هي دون تغيير، عندما قفز حيوان كنت قد ربتيه، من القطار ليأتي لي. لقد كانت لدينا عِجلة لونها بني رمادي، ربيتها منذ ولدت. لقد كانت بمثابة ابن ثالث لي مع التوأم. كان شعرها حريريا ناعما نعومة شعر أخوي التوأم، وأنفها وردي ولين، ورائحتها رائحة الحليب مثلها. كان الناس يضحكون لأنها تبعتني في كل مكان. توجب علينا حينها بيعها، فحبسوني في العلية، حتى لا أركض خلفهم وألحقها. لم تكن نوبات البكاء العالية في تلك الأيام مقبولة في القرية. كان الأطفال يصفعون، ويأمرون بما يتوجب عليهم فعله، وإذا لم يفهموا ما قيل لهم يضربون على الرأس. ربما تغيرت الأوضاع هناك، وأصبح الناس أطول بالا، لا أعلم. على أية حال، ضربوني على رأسي، وأغلقوا الباب علي،

ولكنني تمكنت من الخروج. كنت أعلم أنهم إذا ما باعوا العجلة، فإنها ستكون في محطة القطار الآن. ركضت إلى المنصة ولكنهم كانوا قد أركبوها العربة، مع غيرها من الحيوانات التي باعها المزارعون الآخرون. سمعتها تخور بيأس من العربة، فصرخت باسمها. لم يكونوا قد أغلقوا الباب حينها، لذا كان في وسعها أن تخرج، وقفزت حين سمعتني من ارتفاع شاهق. إن الأطفال أغبياء؛ لم أكن أعلم ما كنت أفعل وأنا أنادي باسمها. لقد وقعت العجلة على قدميها الأماميتين فانكسرتا. طلبوا الغجري ليأتي ويضرب العجلة على الرأس. لقد كان جدي يشتم ويلعن؛ كان من الأفضل أن يكون من مات أنا لا الماشية الثمينة، لستُ سوى فتاة فاشلة لا أصلح لشيء. لقد ذبحوها ووزنوها. كنتُ أقف وأنظر وهم يقتلونها ويقطعونها إلى أجزاء صغيرة. لا تسألي عما شعرتُ به حينها، ولكن إياكِ وحب أحدهم حد الموت، ذلك أنكِ ستذوقين العذاب سواء حينها أو بعد وقت. من الأفضل أن لا نحب أحدا، حتى لا يذبح أمام أعيننا، أو نقفز من عربة القطار من أجله. يجب أن تذهبي الآن. قلنا ما يكفي، وفايولا متعب. خذيه إلى البيت. هيا يا فايولا هيا. بالمناسبة، كان اسم العجلة فايولا أيضًا. لقد أسمتها والدتي. هيا اذهب يا فايولا. إنه شبه نائم.

لقد كان الكلب لا أنا من يعمل طوال اليوم. كان الكلب لا إيمرنس التي كانت تكنس وتنظف. صورة فايولا التي تلح في خيالي. فايولا على منصة البضائع. فايولا وهي تركض في الشارع في رداء كلب.

غادرت كما طلبت مني. شعرت بأنها كان تود البقاء وحيدة مع الذكريات التي بعثتها أنا. في تلك اللحظة، استطعت أن أرى. لقد كان كل شيء يحيط بها، عائلة غروسمان ومالك المصنع الذي لم يكن شريرًا؛ الفيلا الفارغة التي سكنت فيها وحدها، قبل أن تشهد سلسلة متغيرة من المستأجرين. أولهم

فوج من الألمان، ومن ثم الجنود الهنغاريين الذين اختفوا واستبدلوا بحزب الصليب السهم، وعندما انتقلوا حل محلهم الروس. طبخت لهم إيمرنس، وغسلت ملابسهم قبل أن تتملك الدولة الفيلا، وتتحول إلى بناية شقق سكنية كما علمت. وتحت كل هذه الأحداث وخلفها، كانت تقبع جروحها الأولى، الخباز الذي قطّع، والحلاق الذي سرقها، وإيفا صغيرة عائلة غروسمان، التي جلبت العار لها في تشابدول، والعجلة، والقط الذي شنق على مقبض الباب، وحبها الأوحد في الحياة.

هل كان القط يدعى فايولا أيضًا؟

التصوير السينمائي

كنت في سنوات الدراسة أبغض شوبنهاور، حتى أقريت في وقت لاحق، بفكرته التي تقول إن كل علاقة تنطوي على مشاعر شخصية تجعل الإنسان معرضا للهجوم؛ وكلما سمحتَ لأشخاص أكثر بالاقتراب منك، ازدادت نقاط ضعفك. لم يكن من السهل علي أن أضع إيمرنس في عين الاعتبار. لقد أصبحت حياتها جزء لا يتجزأ من حياتي، الأمر الذي قادني إلى التفكير بالمخيف وهو فقداني لها يومًا ما. وحتى لو نجوت من وقع موتها، فإن تلك الأرواح حولي والتي تحطمني وتقودني لليأس، ستزداد روحا.

لم يكن هذا الذي أدركته أخف وقعا علي، خاصة مع سلوكها الذي لم أستطع يومًا توقعه. تتصرف معي في بعض الأحيان بوقاحة وفظاظة تدفع الغرباء من حولنا إلى التعجب من صبري عليها. ولكن هذا لم يكن يهم، لأنني تعلمت منذ زمن طويل أن أتجاهل الصفائح التكتونية المتحركة التي تكمن تحت سطح وجودها. لا بد وأنها توصلت إلى ما توصل له الكابتن بتلر، وهو عدم رغبتها في وضع قلبها على المحك مرة آخرى؛ ولكنها لم تعلم كيف تحمي نفسها ضد خطر الارتباط بي. فعندما أكون مريضة، لا تتركني حتى يعود زوجي من العمل، ولم يكن هناك من سبيل لرد الإحسان لأنها لم تمرض قط. ولم يحدث أن أخبرتني بأي إصابة أو جرح أصابها في المطبخ أو أثناء العمل لدينا. وإذا حدث وأحرقها زيت ساخن، أو جرحت يدها بسكين التقطيع، فإنها لم تخبرنا وعالجت نفسها بوصفات منزلية. لقد كانت

العجوز تزدري أولئك الذين يشتكون دائما.

مع الوقت، أصبح من الطبيعي بالنسبة لها أن تزورنا دونما سبب، ولم يكن هناك داع لتقديم أي تفسير. كان من الواضح أننا نحب قضاء الوقت سوية، والتحدث عندما نكون وحدنا في الشقة، وليس لدينا عمل يتوجب أن ننهيه. وظل من سابع المستحيلات رغم هذا الوقت أن أتمكن من إقناعها بقراءة كتاب من كتبي، ولكنها كانت تتأثر عندما يكتبون عنها بشكل سلبي. لقد أدركتْ الشخصنة وراء الهجمات المدفوعة سياسيا ضدي، وأصبحت تثور غضبا وسخطا. سألتني في إحدى المرات ما إذا أردت الإبلاغ عن أحد النقاد عند حضرة المقدم. حاولت جهدي تهدئتها. كانت في مثل تلك الأوقات مسكونة بروح الغضب الشريرة والكراهية. وتوقفتْ -دونما إقرار واضح منها بأهمية ما أقوم به- عن التقليل من حجم إنجازاتي، وقامت بوضع نظرية مفصلة لتتحاشى من خلالها رفضنا، ورفض ما نقوم به بشكل واضح. لقد كانت وظيفة الكتابة مشابهة للعب. فالطفل يأخذ اللعب بجدية، ويقوم به بعناية فائقة، ورغم أنه مجرد لعب ولا يعتمد أي شيء عليه، إلا أنه أمر متعب. كانت تسألني على الدوام لم لا يوجد كاتب أو صحفي أو قارئ يمكن أن يجيب على هذا السؤال: كيف تظهر الرواية من العدم؟ من مجرد كلمات؟ لم يكن في استطاعتي تفسير سحر الخلق اليومي والمألوف بالنسبة لنا. لم يكن هناك من سبيل لإخبارها كيف تولد الحروف على الورقة البيضاء. واعتقدتُ أن عملية التصوير السينمائي قد تكون أسهل في الفهم بالنسبة لها، وحين بدأت تبدي اهتمامًا فعليا، بما كان يحدث في الأستوديو ومكان التصوير، وما يعنيه حقًا صنع فيلم، حداني الأمل في أن أجذبها لعالمي، أو على الأقل ما يحيط به.

وسنحت الفرصة. كنا نستعد لصنع فيلم آخر، وكانت سيارة فريق

التصوير تأتي كل صباح لتقلني للأستوديو. وعندما أعود إلى البيت، كانت إيمرنس تمطرني بوابل من الأسئلة عما حدث ومن كان هناك وكيف سار اليوم وما قمنا بفعله. لذا أعلنتُ في يوم من الأيام أنني سأصطحبها معي في الصباح التالي.

لم أعتقد أنها ستوافق، فهي لم تكن تبتعد كثيرًا عن البيت، إلا في تلك المرات التي تذهب فيها لتزور المقبرة. ولكن في صبيحة ذلك اليوم، تفاجأت بها تنتظر السيارة عند بوابة البناية، وهي تتزين بأبهى حلة لديها، وتضع غطاء رأس نظيف وتمسك بغصن من المردقوش. بوجودها هناك، شعرت بخجل حقيقي من كل تعليق ساخر، ومن طريقتنا في الانفجار غضبا، خاصة حين نكبته حتى يكبر ويقتل بعضنا بعضا، لأن كل ثانية من التصوير كانت تكلف الكثير من المال. ها هي ذاك، في أثمن ما تملك من حلل، وبكل جدية الأرض، تنتظر رؤية حدوث شيء ما.

لم يهتم أحد بسؤالها عمن تكون، ولا عن سبب وجودها في مكان التصوير. اعتقد حراس البوابة أنها كومبارس. كانت تتجول في المكان بشكل طبيعي وكأنها كاتبة أو ممثلة، وجلست في المكان المخصص لها، وبقيت هادئة تمامًا ومتيقظة لكل ما حولها دون أن تتحرك، ولم تضايق أحدا. كان المشهد الثاني الذي أردنا تصويره صعبا، يحتاج علاوة على كل شيء العفوية التامة في كافة أجزائه. قمنا بكل ما يستدعيه المشهد، وأنهينا كل المراحل الإعدادية له من الزينة ومراجعة للسيناريو وإضاءة وحساب للمسافات وأخذ المواقع والاستعداد ودق الكلاكيت. انطلقنا بعد ذلك لنتابع العمل على جزيرة مارغريت. كانت إيمرنس تحدق من السيارة بذهول وانبهار. أعتقد بأنه مرت سنوات طويلة منذ أخر مرة رأت فيها الغراند هوتيل، هذا إذا كانت قد رأته في الماضي. كنا نصور المشاهد الخارجية قبالة ذلك الفندق، ويرافقنا

مصور سينمائي ثان يقوم بالتصوير من مروحية. كانت العجوز تقلب نظرها بين هذا المصور والرجل الذي كان يتحكم بكاميرا الرافعة. كانت الآلات بأهمية الممثلين في مشهد الحب العظيم ذاك. وبالأشجار والطبيعة التي تتراقص حولهما، والغابة التي كانت تنحني لتعانقهما، كان على المرأة والرجل أن يبدوان مصابين بدوار الحب. أعدنا تشغيل المشهد على الشاشة. كانت كل لقطة فاق نجاحها كل ما نصوره عادة.

توقفنا من أجل أن نأكل في الغراند هوتيل، ولكن إيمرنس رفضت أن تدخل. أصبحتْ عدوانية وغير ودودة، وتوقفت عن النظر حولها بانبهار. كنت معتادة على أمزجتها المتعددة هذه، وعلمت بأنها رأت ما يكفي، لذا اقترحت أن نعود إلى البيت. شعرت بأن هناك أمرًا ما قد حدث، ولكنني كالعادة لم أعرف ما هو بالتحديد. اعتقدت بأنها ستخبرني حال عودتنا. كان دوري في الفيلم قد انتهى، لذا غادرت. وبمجرد أن استقلينا السيارة، قامت العجوز بفتح أول زرين من فستانها، وكأنهما كانا يخنقانها. لم أعهد المرارة التي حملتها نبرتها وهي تخبرني بما ضايقها.

جميعنا كاذبون ومخادعون- هكذا بدأت الكلام- لا شيء مما تفعلونه حقيقي. لقد جعلتم الأشجار تتحرك بحيلة ما، أو الأغصان فقط هي التي تحركت. كنتم تصورون من مروحية تدور في السماء. لم تتحرك أشجار الحور أبدًا، ولكن المشاهد سيظن أنها كانت ترقص وتقفز، وأن الغابة كلها كانت تدور. كان هذا خداعا مطلقا؛ إنه لأمر مشين.

دافعتُ عن نفسي قائلة:

-إنك مخطئة. لقد كانت الأشجار ترقص فعلًا، لأن ذلك ما سيعيشه المشاهد. ما يهم هو التأثير الذي صنعناه، لا ما إذا كانت الأشجار قد تحركت فعلًا أو أن فنيا خلق فكرة الحركة هذه. هل ظننت أن الغابة تستطيع المشي

والأشجار تمسك بها جذورها؟ ألا تعتقدين بأن من أدوار الفن خلق واهم من الواقع؟

-الفن! إذا كنتم فنانين فعلًا فإن كل شيء سيكون حقيقيا، حتى رقص الأشجار؛ ذلك أنك ستعلمين كيف تجعلين الأوراق تتحرك بوقع كلماتكِ، لا بسبب آلة تصدر الريح. ولكنكم أيها الفنانون لا تستطيعون فعل أي شيء كهذا، لا أنتِ ولا غيرك. لستم سوى مهرجين، بل وأكثر وضاعة منهم. أنتم أحقر من أولئك الذين يخدعون الناس بحيلهم ويسرقونهم.

حدقت بها في ذهول. لقد بدت وكأنها تسقط أمام عينيّ أكثر ف أكثر في عالم سفلي لم أتخيل وجوده. كانت مثل الذي يسقط في بئر عميقة، ولا يُسمع منه سوى لعناته ومحاولاته المستميتة بحثًا عن هواء. كانت بالكاد تهمس بعد أن انتهت. «نعم، هناك لحظات لم يتوجب على فني رفع إصبع واحد، ولم تستدع مروحيات للتصوير. عالم الكائنات الحية والنامية يستطيع أن يرقص وحده دون مساعدة. » يا إلهي .. يا ترى كيف كانت لحظة المعرفة الفاوستية تلك، وهي تصرخ على الزمن ليتوقف لأن الأشجار كانت تتراقص حولها. لن أعرف هذا أبدًا، ولكنها لا شك وقعت في وقت ما في ماضيها.

في مرة من المرات، وبعد أن أطلعناها على جهاز التسجيل، وأخبرناها بأن في وسعها إعادة تشغيل نص ما أو قطعة موسيقية، بدأت تتساءل ماذا لو كانت حياة الشخص مسجلة على شريط، فتعاد وتوقف وتشغل عند رغبته بذلك. قالت بأنها ستقبل بحياتها كما كانت، وكما ستكون حتى مماتها، ولكن شريطة أن تستطيع إعادة الشريط لأي لحظة تريد في حياتها. لم أجرؤ على سؤالها عن تلك اللحظة، ولا حتى عن السبب وراء اختيارها. لم أعتقد بأنها ستخبرني بأي من هذا.

اللحظة

غير أنها أخبرتني؛ لا حين كان الوقت منطقيا ومعقولا، بل حين شعرتْ هي أن اللحظة قد أتت. إذا ما كانت إيمرنس تؤمن بأي قوة، فإنها تؤمن بقوة الوقت. ففي عالم الأساطير الخاص بها، كان الوقت مطحنة تطحن الأحداث للأبد، وتفرغ حياتك في كيس الخيش الخاص عندما يحين دورك، ولا أحد مستثنى من هذه المطحنة كما كانت تقول. كانت تؤمن دون القدرة على التفسير بأن تلك المطحنة ستطحن حبوب الميتين أيضًا، وتكبها في أكياس الخيش، ولكن سيحملها أشخاص آخرون لا هم أنفسهم، لصنع خبزهم الخاص. حل دور كيسي بعد ثلاثة سنوات، عندما وصلت الحرارة البيضاء الشديدة لمشاعرها لا للحب وحسب بل للثقة العمياء.

كان الجميع يثق بإيمرنس، ولكنها لم تثق بأي منهم، أو بمعنى أدق وزعت فتات ثقة للقليل منا مثل حضرة المقدم وأنا وبوليت عندما كانت بيننا وابن أخيها، وأقل لآخرين غيرنا. كانت تخبر أديلكا بما كانت تعده مناسبا ويسهل فهمه؛ وتخبر حضرة المقدم وشوتو و عامل الإصلاحات بأمور آخرى. كشفت لي على سبيل المثال منذ زمن كيف مات التوأم، واتضح لي بعد وقت طويل جدًا أنها لم تخبر ابن أخيها بأي من هذا. لقد اعتقد بأنه لم يكن لديها سوى أخ واحد وهو والده. وكأنها بذلك كانت تود إغاضتنا جميعا حتى وهي في قبرها. لم تطلع أي منا على الصورة كاملة. لا بد وأنها كانت تضحك من هناك من بين الموتى علينا من وقت لآخر، ونحن غير قادرين على معرفة

القصة كاملة، أو إكمالها بما لدى كل منا من فتات. كان هناك على الأقل ثلاث حقَّائق أساسية أخذتها معها للقبر؛ ولا بد في أن هذا الأمر يغمرها بالرضى، وهي تنظر لنا وترى بأننا لا نعرف كل شيء عنها، ولن نعرف أبدًا.

إن اليوم الذي ملأت فيه طاحونتها الخيالية الكيس الخاص بي، محفور في ذاكرتي، لأنه كان يوم أحد الشعانين. لم أكن سعيدة بإيقافي وأنا في طريقي للكنيسة؛ لم أشأ أن أتأخر. كنتُ أتكبد الكثير من أجل إيجاد وقت أتحدث فيه مع إلهي في الكنيسة التي رافقتني في شبابي في أخر الجادة. ما تزال تلك الكنيسة تحتفظ بذكرياتي، وأنا أقف بكل خوف وأمل فتيّ، بعد انتقالي إلى بودابست. كانت إيمرنس تكنس خارج بابنا، وكنت أعلم يقينا أنها كانت تقف هناك عمدا وتأكد لي رأيها. كانت قد غيرت جدول عملها من جديد حتى أجدها هناك عندما أخرج للكنيسة، وأتذكر رسالتها الدائمة: كم من السهل أن تتظاهري بالتقوى والدين وغداؤك سيكون جاهزا عندما تعودين من الكنيسة. قالت بأنه يتوجب علي بعد أن تكون ذنوبي قد محيت، أن أذهب لها بعد الغداء؛ كانت تريدني في أمر ما. لم أكن سعيدة بطلبها، خاصة في أحد الشعانين، العيد القريب لقلبي، و أيضًا لأنه ومنذ ودعنا بقايا أمي في مقبرة فاركشرت، أصبحت لدي تقاليد ثابتة في ظهيرة أيام الأحد. طلبت مني أن أحضر في الرابعة عصرًا، فقلت لها بأنني سآتي في الثالثة. هزت رأسها وقالت بأن بعض أصدقائها وابن أخيها سيحضرون في ذلك الوقت. قلت لها الثانية إذن، ولكن ذلك لم يكن ممكنا، ففي ذلك الوقت كانت ستقدم الغداء لشوتو وأديلكا، وعلي أن أحضر في الرابعة، وهذا ما فعلت.

لم أقم بشعيرة المناولة في ذلك الأحد، ذلك أنني افتقدت الهدوء الداخلي اللازم للاعتراف والغفران. كانت إيمرنس قد أثارت حفيظتي، وعدت إلى المنزل مجهدة ومتوترة لا هادئة الأعصاب. علمتُ عندما وصلت إلى البيت

أن فايولا لم يكن موجودا. كانت العجوز قد اصطحبته برفقتها معلنة أنها دعته إلى الغداء مع الآخرين.

كانت إيمرنس قادرة على إثارة كل مشاعري، العميق منها والبسيط. ولأنني أحببتها، كنت أغضب منها للحد الذي أنصدم فيه من ردة فعلي. كان من المفترض حينها أنني أدرك الحدود الضيقة التي كان فايولا فيها تحت سيطرتي. لولا دعوتها اللا معقولة له لوجبة الغداء، لما كنت انفجرت. أغضبني الأمر حد أنني توجهت إلى بيتها على الفور، في الملابس ذاتها الذي ذهبت بها إلى الكنيسة.

حدث مرة أن وقع موعد اجتماع لاتحاد الكتاب في المساء ذاته الذي كان يتوجب علينا فيه تناول عشاء مع دبلوماسي غربي. واضطررنا إثر ذلك للتخلف عن اجتماع الكتاب لساعة كاملة، الأمر الذي دفعهم بعد ذلك لعدم طلب حضورنا أي اجتماع، وانتقاصنا في كل العطلات الوطنية. كانت ردة فعل زوجة الدبلوماسي بعد وجبة العشاء دافئة رغم رسميتها وهي تعانقني، مقارنة بالاستعلاء القاسي الذي استقبلتني به إيمرنس، عندما ظهرتُ دون دعوة أمامها وهي تقعد على طاولة ممتلئة بالطعام، وتتبادل الحديث مع شوتو وأديلكا. قفز فايولا نحوي وأنا أفتح باب حديقتها، ولم تقف العجوز، بل رمقتني وبدأت تسكب حساء الدجاج. تحركت شوتو لأجلس إلى جانبها، ولكنها أشارت لها بعينيها أن لا تفعل، لأنني بكل بساطة لن أجلس معهن. سألتني لم أتيت. كنت غاضبة حد عجزي عن تكوين جملة تفيد بكل الأسباب في عقلي. كان كل ما قلته هو:

-أنا هنا لأخذ الكلب إلى المنزل.

-كما تشائين، ولكن عليكِ أن تطعميه، لم يتناول شيئًا بعد.

قفز فايولا إلى جانب الطاولة وهو يحرك ذيله. كانت رائحة حساء الدجاج الشهية قد ملأت الهواء، حتى طغت على رائحة الكلور ومعطرات الجو.

قلت له:

-هيا بنا.

تابعت إيمرنس سكب الحساء لضيوفها. ظننت أن كل شيء سار على ما يرام، ذلك أن فايولا تبعني دون أن ينظر إلى الوراء حتى. ولكن ما حدث هو أنه رافقني حتى البوابة فقط، وبدأ يهز ذيله وكأنه يقول: لا تضيعي وقتي أكثر، أريد أن أتناول طعامي. لم أذل نفسي أكثر بإعطائه أية أوامر آخرى. كانت العجوز تعرف كيف تتحكم به بعقلها. ولم ينتظر حتى أخرج، بل عاد إلى طاولة الطعام. كان تصرفه هذا قد ضايقني جداً، ووجدت نفسي عاجزة عن تجرع حسائي بعد أن عدت إلى البيت. جلستُ في الشرفة بكتاب في يدي، غير قادرة على فهم جملة واحدة. كان في وسعي من مكاني المرتفع أن أرى فناءها. لم تكن لدي أي نية في النظر إلى تلك الجهة وأنا أقلب الصفحات، ولكنني كنت رغم ذلك أستطيع أن أرى ما يحدث. كانت شوتو والأخريات يأكلن، ويتناقشن في أمور جدية. غادرن شوتو وأديلكا وذلك بعد أن حضر ابن أخيها ومن ثم حضرة المقدم. لم تقدم لهما أي طعام من الطاولة، ولكنها وضعت لهما قنينة نبيذ وما يبدو بأنه طبق مخبوزات. انحنى ابن أخيها على ورقة ما وبدأ يتمعن فيها مع حضرة المقدم. لا أعلم ما حدث بعد ذلك، ذلك أنني قررت أن أغادر الشرفة نهائيا، وأن لا أذهب لها في الرابعة كما حددت هي. لن أسمح لها بالاستمتاع على حسابي.

أتت الساعة الرابعة وانقضت. وأتت بعدها الرابعة والربع والرابعة والنصف. لم أنظر لأرى ما كانت تفعل. وفي الخامسة إلا ربع، قرع جرس المنزل. ذهب زوجي ليفتح الباب، وكان الطارق جارٌ لنا يخبرنا بأن فايولا

مستلق على الرصيف في الخارج ويرفض أن يتحرك. وأضاف بأنه كان بلا قيد حول عنقه أو كمامة؛ صحيح أنه يوم الأحد ويندر أن يتواجد أي مأمورون في الأرجاء ولكن من الأفضل أن يؤخذ إلى الداخل.

إيمرنس .. فون مترنيش تشابدول المخادعة. لا بد وأنها تضحك لأنها علمت يقينا بأنه سيتوجب علي أن أعود، ففايولا وبكل بساطة لن يقوم من مكانه حتى أتي أنا، أو يتلقى هو أوامر آخرى منها. لقد أرسلته حتى يأتي بي. وأنا في طريقي إليها، تبادرت إلى ذهني الفكرة ذاتها مرة آخرى؛ ما الذي لم يمكنها القيام به بخليط قدراتها الفريد هذا ومنطقها الماسي المصقول لو لم تواجه كل فرصة واتتها بعدائية؟ لقد تخيلتها تجلس بجانب جولدا مائير ومارغريت ثاتشر، وبدت الصورة معقولة وممكنة بالنسبة لي. لم أستطع أن أفهم سر اختبائها وراء ذلك القناع. لو قامت بالدوران ثلاثة مرات، ونزعت غطاء رأسها وجلبابها ووجهها أيضًا، وأعلنت بأن كل هذا كان تنكرًا، بسبب أمر إلهي لها منذ لحظة ميلادها، وقالت بأنها لن ترتديها بعد ذلك قط، لصدقتها. لم لا أصدقها؟

رقص فايولا حولها، ذلك أنه علم أفضل من أي شخص آخر أن الأزمة قد انتهت، وانتصرت إيمرنس كالعادة. لم أكن غاضبة حينها.

كان في انتظاري على تلك الطاولة، وتحت ناموسية من الدنتيل، معجنات الستروديل الساخنة. كانت تعلم جيدا ما أحب. كانت وهي واقفة تحملق في وجهي، ولم تنطق أي كلمة. كل ما كان عليها فعله هو أن تهز رأسها، لنفهم أنا وفايولا أنني تصرفت دونما تفكير أو لباقة أو منطق، رغم أنني أبلغ من العمر ما يجعلني أعرف أن لا شيء يحدث دون سبب. أمرت العجوز الكلب بالدخول إلى بيتها، وبمجرد أن فتح الباب، اختلطت رائحة الستروديل الحلوة بالرائحة القوية للمطهرات. أشارت إلى مكان ما على الطاولة لأقعد. قبالتها،

وتحت كرة فايولا المصنوعة من الحصى الصغير، والتي استخدمتها للتثبيت، كانت هناك ورقة مطوية. دفعتْ الورقة ناحيتي. لم يصدر أي صوت من داخل البيت، فاعتقدت بأن الكلب كان قد استلقى لينام. وددت لو أرى على ماذا وأين ينام، ولكنه كان الوحيد الذي يملك حق الدخول لعالم الأسرار ذاك، وأما أنا فلا. ليس هذا وحسب، بل وكنت على وشك أن أتلقى محاضرة تهذيبية منها. بدأت العجوز حديثها.

-شخصيتكِ فظيعة؛ تنفخين نفسكِ مثل ضفدع الثور الكبير، وستنفجرين يومًا ما. الأمر الوحيد الذي تحسنين صنعه هو وضع صديقك في مروحية ليجعل الأشجار ترقص بحيلة ما. لا قدرة لديكِ على فهم ما هو سهل، ودائما ما تذهبين للخلف رغم أن الطريق أمامك مفتوحة.

لا رد لدي. لم أكن واثقة حتى من حقيقة وجودها أمامي.

-أفسدتُ عليكِ نهار الأحد، أليس كذلك؟ ولكن في مثل تلك الأيام تُنهى الأمور، في الآحاد و العطل الرسمية. في مثل تلك الأيام تخبرين الناس حولك بما يجب أن يحدث عندما تموتين.

أدركتُ حينها ما كان في تلك الورقة المطوية.

-كان بإمكاني دعوة صاحب السعادة أيضًا ليأتي معك، ولكننا وكما تعلمين جيدا لا نتفق كثيرًا، ولا يعود السبب لكونه سيئا، بل هو رجل جيد، ولكن كل ما في الأمر هو أنه لا يحبذ المشاركة مثلي تماما. لا نحب بعضنا، ونفضل لو خرج الآخر من حياتنا. الآن التزمي الصمت لأنني سأتحدث.

انقلب وجهها مرة آخرى. كانت كمن يقف على قمة جبل في وجه أشعة الشمس القوية، وينظر إلى الأسفل، إلى الوادي الذي أتى منه، ويرتجف من كل ذكريات الطريق الطويلة والصعبة التي قطعها، من الكتل الجليدية

والأنهار المتشعبة، من الإرهاق والمخاطر التي واجهته، وإدراكه المسافة التي لا تزال أمامه. اعتلى ذلك الوجه التعاطف أيضًا، والشعور بالشفقة على من هم في الأسفل؛ الأشخاص الذين لا يعرفون سوى أن القمم تنقلب وردية وقت الشفق، ويجهلون المعنى الحقيقي للطريق نفسه.

-لم يكن بإمكاني دعوتكِ للغداء، لأن اسمك مذكور في وصيتي. لم أستطع أن أدعو ابن أخي أيضًا، حتى ناقشت كل شيء مع شوتو وأديلكا، ووقعتا على الوصية. لقد عملتُ لدى محام في الماضي، وأعرف كيف أكتب وصية. ليس الأمر بتلك الصعوبة. سوف تُقبل، لا تقلقي بهذا الشأن.

محامٍ! لم تخبرني بهذا الأمر من قبل.

-ما الذي تحملقين من أجله الآن؟ لقد سبق وأن أخبرتكِ أن جدي دفعني للعمل عندما كنت في الثالثة عشر من عمري، وأخذني ذلك المحامي حينها من القرية. لم أعمل لدى عائلة غروسمان إلا في وقت لاحق، عندما لم يكن في وسع ذلك المحامي وزوجته دفع أجري، إضافة إلى أنهما لم يرغبا في وجودي أيضًا. لقد كبرتُ أنا وابنهما سوية. لم أمتنع عن دعوتكما لأنني استكثرت عليكما الطعام. وأعلم بأنه يجب أن نكون سوية في وقت كهذا. إنه أمر تعلمته من الدروس الدينية سابقاً، عندما أكل المسيح وجبته الأخيرة مع أصدقائه. لا داعي لأن تنفعلي، أعلم أنها كانت وجبة عشاء، وفي يوم الخميس المقدس لا أحد الشعانين، ولكن المسيح كان لديه ما يحتاج من وقت، عكسي. لم أستطع أن أدعوك وأدعو ابن أخي لأنكما وريثيّ.

لقد تناول المسيح عشاءه الأخير في بيت العازار ربما، في منطقة بيت عنيا التي كانت تعد جزء من القدس. حاولت أن أقاوم الصورة في خيالي. إيمرنس وهي هناك تمسك بالوصية بيديها المقدستين، تجلس بين شوتو وأديلكا على يمينها وابن اخيها وحضرة المقدم عن يسارها، وأنا وفايولا عند

قدميها. حاولت أن أقاوم ولكنني لم أستطع أن أكبت هذا الخيال.

-استمعي إلي جيدا. اتفقت أنا وابن أخي على ترك ما لدي من مال له. لن يعطى أي قرش منه لأقاربي، لأنهم وكما أخبرتني بنفسك، أهملوا قبور عائلتي، ولديهم ما يكفيهم من المال. لقد أثبت لي ابن أخي بأنه جدير بالثقة في كل شيء، ولا شك عندي من أنه سيجمع عائلتي، وعندما ينتهي المدفن سوف يضعني هناك معهم. قمتُ بوضع المبلغ الخاص بتكاليف بناء المدفن والجنازة في حسابات ادخار بريدية، وأما بقية المال فإنها في حساب ادخاري عادي في البنك، وكل دفاترها موجودة هنا. وأما أنتِ فسترثين كل ما في بيتي، ووقع ابن أخي بشهادة حضرة المقدم على أنه لن يعارض أيا من تعليماتي، وأنه لن يعترض على أي بند في الوصية. لن يحتاج على أية حال لما سأمنحكِ. لن يعرف ماذا سيفعل به، ولا هو يتلاءم مع ذوقه. وحتى لو كان في وسعه الاستفادة من شيء ما في البيت، فإنه سينال ما يكفيه من المال. سوف يرث الكثير الكثير من المال. لا تحاولي شكري، وإلا غضبت.

ظللت أنظر في يدي، وأنا أحاول حساب ما سيكلفه بناء المدفن واستخراج الموتى من عائلتها، ولكنني لم أكن أعلم سوى سعر الشواهد الحجرية. لم تدفن عائلتي في مدفن خاص بها. لم أفكر لحظتها حتى فيما سأرثه. كانت اللحظات الأخيرة تلك لا يمكن تصديقها، كالحلم تماما. وقفت إيمرنس وأشعلت النار تحت إبريق القهوة. لقد كانت قهوتها أفضل من القهوة التي أعدها بكثير. كيف تعلمت صنعها بكل هذا الاتقان يا ترى؟ من رب عمل لم تخبرني عنه ربما؟

قلت لها أخيرًا: .

-لم بدأتِ تفكرين بالموت؟ لست مريضة.

-لا لست مريضة. كل ما في الأمر هو إعلان سمعته في المذياع عن موت ابن المحامي، ودفعني لأن أتذكر كل شيء.

مرة وعندما كنتُ طفلة صغيرة، راقبت فراشة تدور وتدور، وشعرت بالرغبة ذاتها في أن أؤثر عليها، وأحملها على الهبوط بأفكاري. لم أكن أرغب بالإمساك بها، بل بالنظر إليها عن قرب وحسب.

-أعلنت حالة الحداد في المذياع منذ عدة أيام، وسترين الجنازة في نشرات الأخبار. لا أريد أن أشاهدها، ولن أذهب إلى المقبرة. لن أذهب. كم هو مؤسف أن أحدهم لم يسألني عنه بضعة أسئلة، مثلما فعلوا مع العديد من الناس. كنت سأطلعهم على بعض الأمور عنه. عندما سمعتُ كل تلك القصص من أولئك الذين عرفوه، سعدت لكثرة من ذهبوا وتحدثوا، لأنني لم أكن أنوي القيام بذلك. كان قد رفض ما وددتُ أن أكون بالنسبة له، فعددت نفسي ميتة في حياته، وابتعدت تماما. لم يكن من السهل علي أن أخرج نفسي من عداد الموتى؛ إنها هواية مكلفة. لهذا السبب كتبت وصيتي. حتى يصبح ما لدي ملكا لكِ كما أريد، دون أن أدع للآخرين فرصة أخذ ما كنت قد بنيته وجمعته. لقد سُرقت مرة، ولن أسمح بحدوث هذا من جديد. إنها قططي التي تمكنوا من قتلها مرتين. لن أسمح لكائن من كان أن يسرق أيا من ممتلكاتي، أو راحة بالي.

كانت عيناها باردتان، تلمعان كالماس. يا إلهي؛ لقد كانت تخبئ هذا أيضًا. لم يكن السيد برودارتش، أو الرجل من الشرطة السرية وحسب، بل وهو أيضًا. ولكن كيف؟ ومتى؟ كانت الصحف لا تتحدث عن شيء سواه. كل البلاد في حداد عليه. متى يا ترى؟ لا بد وأن ذلك حدث في الثلاثينيات.

-سوف تخبركِ البرامج حقيقة زوجته. طرق بابي عندما كانوا يبحثون عنه لاعتقاله، ولم يكن قد التقى بها حينها. لا بد وأنه تعرف إليها بعد ذلك، عندما

لم يكن الخطر يحيق به. قال لي: «سوف أبقى معك، سوف أختبئ بالغرفة التي في القبو. ستكونين أنتِ غطائي. إنك جديرة بالثقة ونقية كالماء». لا تظني بأن أمرًا ما حدث بيننا. أتمنى بأنكِ تعرفينني حق المعرفة، وإن كنتِ تعرفينني فإنك ستعرفين ما هو عليه. لم أسأله قط عن من يسعى خلفه، وخبأته غي غرفتي. ففي ذلك الوقت كان المحامي وزوجته قد سلماني للعائلة غروسمان، ولم يكن الزوجان الأخيران يعرفان ما كان يجري. هل تعتقدين بأن أم إيفا كانت تهتم لما يجري في غرفة خادمتها؟ لم تكن الصغيرة قد ولدت بعد. كان الزوجان يسافران دائما، ويخرجان كثيرًا ويستمتعان بوقتهما. كان جناح الخدم منفصلا عن بقية البيت، وفيه عشنا أنا وابن المحامي. احتسي قهوتك، ولا تحدقي في هكذا. الكثير غيري وقعوا في الحب.

عندما فر من البلاد، ظننتُ بأنني سأفقد عقلي، وكم كان سيكون هذا مؤسفًا، لأنني قابلته بعد ذلك، في أسوأ وقت ممكن. لقد أتى في ليلة مقمرة ومضيئة، وعرفته على الفور رغم تخفيه؛ ربما لأننا نرى في بعض الأحيان بقلوبنا. في ذلك الوقت تحركت الأشجار والأغصان هنا بجانب الفيلا. رأيت ضوء القمر وهو يضيء وجهه، وتلك الشجرة ترقص خلفه. فكرت في أنه حضر حينها من أجل أمر آخر. ربما فهم بعد ذلك الوقت الذي قضاه خارج البلاد، وعاد إلي أخيرًا، وربما بعد أن تكبد عناء سؤال عائلة غروسمان عن مكاني، فإنه سيأخذني معه بعيدا. كنت متيقنة من أن هذا هو سبب بحثه عني، رغم أنه لم يعدني، لم يعدني بأي شيء، أو يكذب علي. لقد أوضح لي على الفور لم أتى. طلب مني أن أخبئه مرة آخرى. كان قد نسي كل أوراقه الثبوتية وقسائم حصص الطعام. كل ما كان يحتاجه هو البقاء لدي لبعض الوقت. لن يتمكن أحد من حمايته والحرص على عدم إمساك أحدهم به سواي. وحينها، وعندما واتت الفرصة، غادر وخلفني هنا. و هاهو الآن قد مات.

لم أستطع أن أبتلع الرشفة التي ارتشفتها من القهوة. نظرتُ إليها.

-قبلت حينها بالحلاق، لأنتقم منه. ألم تسمعي ثرثرة الناس حولي؟ كنتُ لأقبل بالشيطان نفسه لو أغواني وقال بأنني ما أزال مرغوبة من الرجال. لا بد وأنني أعاني من أمر ما، لأنه لم يتركني وحسب، بل وسرقني. لم أكن قبيحة. لم يكن هذا الأمر مهم بالنسبة لي. لم يقتلني.

ركنتْ للصمت لبعض الوقت، ومن ثم سحقت ورقة من النعناع بين أصابعها وشمتها.

-لا نموت بكل بساطة وسرعة، ولكننا نقترب منه صدقيني. ويجعلك ما مررتِ به أكثر ذكاء وفطنة، حد أنكِ تتمنين أن تصبحي غبية وساذجة من جديد. لقد أصبحتُ أذكى، وينبغي أن لا تستغربي من ذلك، فقد تلقيت تدريبا مكثفًا منه. لقد عاش ابن المحامي معي في جناح الخدم في فيلا عائلة غروسمان لعامين كاملين، وفي هذا البيت أيضًا لبعض الوقت. وكان يتحدث ويخبرني بكل ما كان يعرفه، إذا توفر لدي وقت فراغ. هل تعتقدين بأنني سأستمع إلى مروج حملات آخر حتى النهاية؟

لقد فهمت الآن. فهمت مناهضتها للفكر وبغضها للثقافة.

-بعد ذهابه بوقت قليل انتهت الحرب، وعاد إلي من جديد، لا ليبقى معي أو يعيش معي، بل ليشرح لي كل شيء من جديد. لم يكن هذا ما أردت. كنت أرغب في شيء آخر.. شيء يتناسب مع العالم الجديد وحريتنا. بدأت أتشاجر معه؛ قلت له بأنه علمني وألقى علي ما يكفي من المحاضرات، وحان الوقت لنسيان الأمر والمضي قدما. كان يرغب في ضمي لصفوف المدرسة، ولم أكن لأفعل حتى لو حاول إلى الأبد. لقد أوصى بمنحي وساما ما. قلت له بأن فضيحة تتفوق على كل فضائح التاريخ ستقع إذا ما حدث وذهبت إلى

البرلمان لأستلم الوسام. هل اعتقد حقًا بأنني مهتمة بكل الخطط التي كان يضعها وحده أو مع أصدقائه، وأنا أحبه وهو لم يحبني؟ لقد أحببته حقًا. هل تسمعينني؟ لم أحبه لرأسه العظيم ولا العلم الذي يحمله، بل أحببت جسده، الشيء الذي سيدفنونه بعد الغد. لا يهم. أعلم أنكِ لن تصدقينني ولكنه أخبرني بأنه يتحدث عني أمام زوجته من حين لآخر، ورغب في أن أقابلها وأتعرف عليها. قلت له بكل وضوح بأن عليه أن يدعني وشأني، ويبقى معها مثل غيره من الأزواج الجيدين. أخبرته بأن يهتم ببناء بودابست من جديد، وأنا سأعيد بناء حياتي. بدأت أواعد الحلاق؛ وغضب كما لم يغضب من قبل حين علم بالأمر. كنت سعيدة بذلك.

لم تبد العجوز سعيدة كما تقول. كان وجهها قناعا، وفمها خط مستقيم لا يتغير.

-أتعلمين إلى أي حد كنت سعيدة عندما قبضوا عليه في عام 1950 واتهموه بالتجسس لصالح بريطانيا وكادوا أن يقتلوه ضربا؟ تمنيت أن يضربوه ويعاني مثلما عانيت أنا، مثل كلب ضال. لم يكن قادرًا حتى على التحدث بالإنجليزية. لم يتعلم في المدرسة التي نشأ فيها سوى اللغة اللاتينية والفرنسية والألمانية. كنت أعمل لدى عائلته في ذلك الوقت، وكان يخبرني بكل شيء تعلمه. كان اتهاما غبيا، ولكنني كنت سعيدة لأنني إنسانة شريرة وغبية وممتلئة بالحقد. الآن أصبح كل هذا جزءا من الماضي، وستبدأ خلال أيام جنازته الرسمية. سوف تكون هناك وسادته المخملية، وكل الميداليات والأوسمة الهنغارية والأجنبية التي حاز عليها. أعتقد بأنه لم يذكرني في السيرة التي كتبها، ولكنني كنت هناك في حياته.

-لقد ذكركِ يا إيمرنس.

قلت لها هذا وأنا أشعر بتعب شديد، وكأنني ضُربت أيضًا. لقد فهمتُ

حينها الأيام الماضية مثلما لم أفعل من قبل.

-لم يذكر اسمك تحديدا، ولكنه قال بأن العديد من الناس ساعدوه في الاختباء طويلا، ولكن أطول تلك الفترات كانت مع رفيق عظيم جداً. سمعت ذلك بالأمس، في نشرة الأخبار الثالثة.

جاء ردها جافًا:

-لقد كان محقًا على الدوام. قلتُ ما يكفي اليوم. دفعني موته على الأقل إلى كتابة وصيتي. لقد كان شجاعا جداً، ومفعما بالحياة ومبتهجا. لقد كان من أولئك الذين لا نظنهم سيموتون أبدًا. كل أكوام الكتب العظيمة هذه، والمعرفة اللا محدودة! أخبريني من الذي يريد دراستها كلها؟ ليس أنا بالتأكيد. لا تظني بأنه كان خائنا. سأقولها من جديد؛ لم يعدني هو بأي شيء. أرجو أن تدركي ذلك جيدا. لقد فعل الصواب حين اختبأ في منزلي. وكنت لأطرده لو تجرأ ولمسني. نعم إنني غبية إلى هذه الدرجة. اذهبي الآن هيا. لقد اكتفيت منكِ.

أخرجتْ صحنا وملأته بقطع السترودل.

-يحب صاحب السعادة الحلويات.

وقفت، ولكنها استوقفتني قليلا لتفتح باب مدينتها ويخرج الكلب من الشق الضيق. امتلأت فتحات أنفي من جديد بتلك الرائحة المميزة لبيتها. شعرت وأنا أمضي بعينيها معلقة على ظهري، فالتفت.

-أمر آخر .. هناك أيضًا أشياء آخرى سترثينها مع ما في بيتي، ومن الأفضل أن تعرفي عنها الآن. بيتي مليئ بالقطط، وأود أن تتولي أمرهم. أعلم بأنكِ ستحتارين في أمرهم، فهم لا يعرفون أحدا سواي أنا وفايولا. لا أمل لهم إذا ما حدث وخرجوا ليعيشوا في الشوارع، ذلك أنهم يرون الكلاب

أصدقاء لهم. إنك صديقة جيدة للطبيب الذي يعطي فايولا حقنه. يجب عليه أن يتصرف فيهم عندما أموت. لا يمكن أن تمنحي أحدهم هدية توازي عظم تجنيبهم الألم والمعاناة. لهذا أنا أمتنع عن فتح الباب؛ ماذا سيقولون عندما يعلمون أنني أحتضن تسعة قطط بداخله؟ ولكنني لن أتخلى عن أي منها، ولن يحدث أي شنق هنا. صحيح أنهم محبوسين، ولكنهم على قيد الحياة على الأقل. إنهم عائلتي. لم تكن لي عائلة غيرهم. هيا اذهبي، لدي الكثير لأقوم به. لقد كانت ظهيرة طويلة.

الصوم الكبير

فشلتُ لأيام عدة في التفكير في أي شيء، غير ما قالته لي إيمرنس. لقد جمعتْ العجوز أعضاء برلمانها الخاص ظهيرة أحد الشعانين ذاك، و أصدرت المرسوم دون أي استشارة أو إشعار مسبق، كما لو كانت البابا. فهمت من مهاتفة ابن أخيها لي أنه يواجه موجة المشاعر ذاتها التي غمرتني. طلب أن نجلس سوية ونتحدث عن الأمر، وقال بأنه سيأتي إلى منزلي، واتفقنا على يوم الثلاثاء التالي. لم يكن وحده من شعر بأهمية أن نلتقي بهذا الشأن، بل وأنا أيضًا.

ما كان يشغل باله هو قرار إيمرنس بالاحتفاظ بالدفاتر الخاصة بالحسابين في بيتها، وهي تملك هذا الكم من المال. تساءل ما إذا كان من الأفضل عدم الاحتفاظ بالمال بهذا الشكل عن طريق الدفاتر، لأنه إذا ما سرقت فإن البنك مجبر على إعطاء المال كله لمن سيقدمها لهم. لقد أقلقني أمر الدفاتر هذا أيضًا، ولكن لسبب مختلف. إذا ما حدث وفقدتها العجوز فعلًا، فإنني سأكون في وضع سيئ أمام ابن أخيها. لأنه لو سمح فايولا لأحد بدخول بيتها، فإن هذا الشخص سيكون أنا، وآخر شيء أتمناه في تلك الفترة كان شك ابن الأخ الذي لا مفر منه، حتى لو لم يكن منطقيا. فكرنا مليا في ما يمكن فعله حيال الأمر. لقد كان الشاب قلقا على المال، وكنت أنا مرعوبة من المسؤولية غير المتوقعة التي وضعت على كتفي. لقد كان هناك ما يخيف حيال لعب فايولا وعلى حين غرة دورًا حاسما في حياتنا. ففي جمهورية إيمرنس، كان هو الحارس،

منبع الأمن، والوصي على ثروتها. وأما بالنسبة للقطط، فقد حاولت أن لا أفكر بها. لم يكن الأمر متعلقا بعددها، بل العبء الذي رمته على كاهلي بعد موتها. من الذي يستطيع تحمل كل هذا؟ لم أكن هيرودس الأول. اقترح ابن أخيها أن تفتح حساب ودائع، وعلينا أن نقنعها بذلك. وأضاف بأنه من الأفضل أن يتحدث معها في هذا الموضوع أنا وحضرة المقدم. لم يرد أن يبدو أمامها كشخص يعيش من أجل المال فقط، أو يود أن يحكم قبضته عليه بكل السبل الممكنة. قال بأنه قد يحدث أي شيء للدفاتر؛ ماذا لو نسيت العجوز الغاز مفتوحا؟ ماذا لو قُتل فايولا؟ ماذا لو فشل نظام التدفئة القديم، وشب حريق في شتاء ما وإيمرنس في الخارج؟ وعدته أن أفكر في الأمر، وافترقنا متفقين على سؤال حضرة المقدم عن الأمر. ولم يحدث أكثر من ذلك بعدها؛ يشعر معظمنا في بعض الأوقات بخجل غامض عجيب.

أول فكرة تبادرت لذهني هي أن أطرح الموضوع على إيمرنس بطريقة لطيفة، ولكنها كانت تتحاشانا منذ أحد الشعانين ذاك. تمكنتْ رغم حينا الصغير، من الاختباء بقدرة تضاهي قدرة شخصية الرجل الخفي. لقد كانت قدرتها تلك من بين انجازاتها العديدة؛ كانت لتكون عضوا مثاليا لأي مؤامرة. تمكنتُ أخيرًا من العثور عليها في يوم الجمعة العظيمة. قررتُ في ذلك اليوم أن أخرج باكرًا لكي أتمكن من زيارة المقبرة سريعا، قبل بدء مراسم العبادة في الكنيسة. لقد كانت العجوز تكنس بمكنستها الكبيرة أمام باب شقتنا. نصحتني أن أعطي بسخاء، لأن القيمة تتضاعف في مثل تلك الأيام، وتمنتْ أن يرضين سيدات التبرعات والتطوع عني. بدأت أمضي في طريقي بسرعة، حتى لا تضايقني ولا أعود قادرة على التحدث معها كما حدث في المناسبة الدينية الأخيرة. قلت لها بأنني سأكون ممتنة لو تعفيني من سخريتها هذه في الجمعة العظيمة على الأقل. لقد كان عذاب المسيح عظيما، ولو رأتهم

وهم يمثلون ما حدث له، لما كان في وسعها أن تحبس دموعها. ربما كان من الأفضل أن تتوقف عن مضايقتي وتتفضل علي وتصنع حساء البرقوق البارد بعد أن تنهي عملها؛ لقد أخرجتُ البرقوق ووضعته على الرف.

نظرتْ إلي ومدت لي المكنسة. قالت إن ذراع المكنسة صلب؛ ربما أود أن أساعدها في الكنس؟ سأذهب إلى الكنيسة لأتذكر وأبكي، ولن يضرني القيام بعمل بسيط كهذا. قد أكفر عن ذنوبي بفعل كهذا؛ فالمكنسة ثقيلة، والذراع الخشبية خشنة على الأصابع. كانت ترى أن الأشخاص الذي قاموا بأفعال شاقة، هم وحدهم من يحق لهم الحزن على المسيح. لم أنظر لها، وهرعت لأركب الحافلة، بعد أن تبخرت سكينة صباحي وصفائي. لم تتعمد هذه المرأة مضايقتي في كل وقت؟ كيف لها أن ترفض الكنيسة بكل ما يستحق الاحترام فيها وتاريخها الطويل، ومساعيها لفعل الخير بسبب توزيع سيء لصندوق مساعدات؟

ما فكرت به هو أنها تبدي هذه التعليقات المبطنة لتصفي حساباتها، ولكنني سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة لأنني أعلم يقينا أن هذا لم يكن صحيحا. لم تكن تسعى لتصفية الحسابات مع الكنيسة. لقد كانت المسألة أكثر تعقيدا من هذا، وأكثر إثارة للاهتمام. كانت العجوز سخية وذات طبيعة خيرة في الأساس. رفضت أن تؤمن بالإله، ولكنها كرمته بأفعالها. كانت قادرة على التضحية. إن الأمور التي كان علي أن أفعلها بوعي، كانت تفعلها هي بالفطرة، ولم يحدث عدم إدراكها لكل هذا أي فرق. كان الخير فيها أساسي، وأما أنا فقد كان نتيجة تربيتي. لم أكون المعايير الأخلاقية الخاصة بي إلا بعد وقت طويل. تمكنت إيمرنس يومًا ومن دون أن تنطق حرفًا، أن تريني أن ما أعده دينا هو ضرب من ضروب البوذية الفلسفية، ومجرد احترام للعادات. وأرتني أن أخلاقي مجرد انضباط، ونتيجة لتدريبي المنزلي والمدرسي

والشخصي أيضًا. لقد هُزمت أفكاري الخاصة بالجمعة العظيمة شر هزيمة.

لم يكن هناك أمل في العثور على حساء البرقوق في البيت. ما كان في انتظارنا هو الدجاج المتبل بالبابريكا، وحساء الهيليون وكريمة الكراميل. بقي البرقوق كما هو غير مغسول أو معد على الطاولة التي كنت قد وضعته عليها. كان يوم الجمعة العظيم من أيام الصوم الكبير التي يتوقع والدي أن نلتزم بالصيام فيها، كما تعلّم في بيت جدي. وكان الطعام الوحيد الذي اعتدنا تناوله وقت الغداء في ذلك اليوم هو حساء البرقوق. لم نكن نعد الطاولة في المساء، ذلك أننا لم نكن نتناول أي عشاء حينها. وفي السبت المقدس، كنا نتناول حساء الكراوية على وجبة الإفطار دون خبز. ونبدأ في إنهاء صيامنا بتناول وجبة غداء عادية، دون لحوم. كنا في محيط عائلتنا الصغير نحظى بوجبات كبيرة حين يحين العشاء، ومن ثم نمتنع عن أكل المزيد بعد ذلك. وفي الخميس المقدس، كان غطاء البيانو يقفل، حتى لا ينسى أحد من أفراد عائلتي التي تحب الموسيقى بجنون نفسه ويبدأ في العزف.علمت إيمرنس منذ سنوات أنني أتمسك بما كنت قد تعلمته في بيت والدي، ولم تعلق عليه أبدًا. كانت تحضر أطباق شهية من أجل صاحب السعادة. كان الاثنان في مثل تلك الأوقات يتحدان ضدي، ويستمتعان بإشارات تآمرية على حسابي.

لم أتناول أيا من الغداء الذي أعدّته، وأعددت بنفسي في مساء ذلك اليوم حساء الكراوية، من أجل إفطار الصباح التالي. لكن كان طعم الحساء يتجاوز كل خيال. ولكنني وبسبب الجوع الذي حاصرني، تجرعته سريعا ومضيت إلى بيتها.

حل الربيع باكرًا في ذلك العام، وكانت تجلس في حديقتها وتنظر إلى الخارج، وكأنها تتوقعت حضوري. استمعتْ بصمت لتقييمي لشخصيتها، والتي تدفع الناس لتولي مهام مستحيلة، ومن ثم تهينهم متى ما سنحت لها

الفرصة. لا حاجة لها لأن تتبجح، ذلك أنني لم أدفع بأي لقمة من دجاج البابريكا في فمي، ولم أكن أنوي دفع أي مال تكبدته لإعداده. لقد صنعته دون أن أطلب منها وبالتالي فهو ليس سوى خدمة مجتمعية قدمتها لنا. كنت أستطيع تبين ابتسامتها التي لم تكن ظاهرة. شعرت برغبة عارمة في قلب الطاولة على رأسها.

بنبرة مرحة لا يخالطها أي غضب، تحدثت كمن يرشد طفلا أبلها:

-اسمعي، سوف أكون صريحة معكِ وسأقول شيئًا سيؤلمك حقًا، رغم أنني أحببتك في البدء لأنه في وسعك تحمل مثل هذه الكلمات. لقد راقبتك وحياتك تتشكل على مر هذه السنوات. أنا لست مهتمة بأفكارك التي لا تتغير. صدقيني كان الأمر سيكون أسهل لو أنني صنعت لكِ حساء البرقوق لا الدجاج بالبابريكا. لقد صنعت الحساء لكِ طوال تلك السنوات، ويمكنكِ أكل ما ترين بأنه سيصنع الفارق بالنسبة لكِ في الجنة. لكِ إله غريب يحاسب الناس بناء على حبات البرقوق. إن الإله بالنسبة لي، إذا ما كان لدي واحد، فإنه في كل مكان، في قعر البئر وفي روح فايولا وفوق سرير زوجة السيد ساميول بور التي ماتت بسلام. لم تكن تستحق الموت بهذا الشكل، لا أحد يستحقه سوى الأشخاص الخيرين، ولكن هذا ما حصل معها، ماتت دون عناء وبكرامة. ما الذي تحدقين من أجله؟ ألم تري حفيدة السيدة وهي تركض في الجهة المقابلة من الطريق هذا الصباح وأنا أكنس؟ أم أنك لا ترين أحدا سوى نفسك؟ أتت الطفلة تطلبني فذهبت معها. يجب أن تصدقيني حين أقول لكِ بأن أي شخص أمسك بيده في ساعة موته، يموت بسهولة. قضيت وقتي وأنتِ في الكنيسة معها، وغسلتها وحضرتها لرحلتها. ويمكنني أن أؤكد لكِ بأنه لم يكن من السهل أن أجد الوقت. فبين كل هذا، أعددت وجبة الغداء الذي شكرتني خير شكر عليها. انصتي جيدا لما سأقوله الآن،

سيؤلمك ولكن هذا ما تستحقينه. لن يعيش صاحب السعادة طويلا؛ إنك تعلمين هذا جيدا. هل تظنين بأنه سيصبح أكثر قوة بفضل حساء البرقوق؟ ما الذي سيأخذه معه من تذكار إلى العالم الآخر؟ كل واحد منا حين يذهب إلى هناك سيأخذ معه شيئًا؛ فالسيدة بور حملت معها شرف أنني أنا إيمرنس سيرداش قد توليت أمر رحلتها، وأنني سأرعى حفيدتها الصغيرة. سيتوجب عليك رعايتها أيضًا، أعدكِ بأنني لن أدعكِ تتملصين من هذه المهمة. لا أريد للصغيرة أن تقع تحت رحمة السيدات الخيّرات. لم يكن يعرفن حتى أن لها حفيدة لا عائلة لها ترعاها. ولكنكِ لن تنسي هذا الأمر، سأذكرك به كل يوم. لا ترسلي صاحب السعادة إلى العالم الآخر بحساء برقوق فقط، أو طعام الحمية الغبي الذي تفرضينه عليه. كما أن خروجك الدائم، ونقرك المتواصل على الآلة الكاتبة لا يساعد أيضًا. تركتيه اليوم من جديد، وخرجتِ إلى الكنيسة. حاولي إضحاكه يومًا؛ إنها الصلاة الحقيقية. ما الذي تعتقدين به حقًا حول المسيح حين تبدين تصريحاتك حوله وكأنه صديقك؟ إلى أي حد تظنين أن الخلاص رخيص هكذا! ما كنت لأعطيكِ قيد أنملة على تدينك الأسبوعي هذا. كم هو مشين أن تعم بيتكِ الفوضى، في حين أنكِ تحبين النظام في حياتك التافهة. لا يهمكِ إذا ما انتهى العالم في الثالثة من ظهيرة كل اثنين، لأنه موعد طبيب الأسنان. تكشران عن أنيابكما، ومن ثم تعودين بسيارة أجرة، لأنه لا وقت لديكِ للعودة مشيا. وفي كل خميس يأتي موعد مصفف الشعر. وأما الغسيل ففي يوم الأربعاء لا أي يوم آخر. الخميس هو يوم الكي، سواء جفت الملابس أم لم تجف. والأحد وأيام العطل للكنيسة. لا نتحدث يوم الثلاثاء سوى بالإنجليزية، والجمعة بالألمانية حتى لا ننساها. وفي بقية الأوقات ننقر على الآلة الكاتبة دونما توقف. حتى وهو ميت، سيظل صاحب السعادة يسمع تلك النقرات.

انفجرتُ بالبكاء، ولا أعلم الآن ما إذا كنت أبكي ما كان كذبا أو حقيقة. سحبت العجوز التي كانت دقيقة حد الهوس في الغسيل، منديلا أبيضا ناصعا من جيب ثوبها المكوي ووضعته أمامي. كنتُ طفلة صغيرة وُبخت في المدرسة، وخجلت من نفسها حد أنها قررت أن تصبح فتاة جيدة منذ تلك اللحظة.

-لا يمكن أنكِ أتيتِ من أجل الدجاجة فقط، أليس كذلك؟ لن يكون هناك صيام في البيت ما دام صاحب السعادة حيا؛ لن أطبخ طعام الصيام على أقل تقدير. ما الذي تفعلينه هنا في ليلة عطلة؟ إنه يوم الجمعة، اذهبي إلى البيت، إنه وقت ممارسة لغاتك. حان الوقت لكي تثرثري بالألمانية. حتى فايولا يضحك عليكِ. أخبريني ما الذي تتعلمين من أجله؟ الإله يعلم كل لغات العالم، وأنتِ لا تنسين أي شيء تعلمته يومًا، فعقلكِ صمغ يتمسك بكل شيء ولا يتركه. إنك تردين الإساءة لكل شخص يضايقك، حتى أنا. لو أنكِ تصرخين وتشتمين.. ولكن كل ما تفعلينه هو الابتسام. إنك أكثر شخص تواق للانتقام التقيته في حياتي. تنامين بسكين تحت وسادتك، وتنتظرين الوقت المناسب لتطعنين بها. وإن كان الأمر سيئا فإنك لا تخدشين وحسب، بل تقتلين.

أرد الإساءة! كيف؟ وبما؟ إن كل ما كان في وسعي إيلامها به كان لها. ففايولا ملكها، لا ملكنا. والشخص الوحيد الذي أحبت بحق، سيدفنونه في قبره، رغم نجاحه في تلافي كل الأخطاء السياسية التي ارتكبها الشيوعي إيمرا مازو. مسحتُ دموعي بمنديلها البارد المحمل بعطر خفيف، وأخبرتها بما طلبه مني ابن أخيها، ورأيت غضبها العظيم من طريقة إطباقها لشفتيها. شهدت كافة أمزجتها في ذلك اليوم؛ أصبحت جدية للغاية عندما سمعت كلمة المال.

-استمعي لي جيدا. أخبري ذلك الوغد بأن يكف عن إزعاجي بما يراه صوابا، وأن لا يزعجكِ أيضًا. لن يتغير أي شيء، ولن يكون هناك حساب إيداع للمال. لم بحق البرق أفعل أمرًا كهذا؟ أي شخص يعثر على الدفاتر في منزلي يستحق أن ينالها. تعرفوني جيدا، وتعرفون أنني لم أفعل يومًا شيئًا غبيا، لم قد يحترق بيتي؟ أنا أهتم لأمره مثلما أهتم لأمر بيوتكم. لا شك في أن الوضيع عدني ميتة من الآن. أوصلي الرسالة هذه له مني: نصيحة آخرى وسأحرمه من المال. سوف أمنحكِ كل شيء، ولنرى إن كان يجرؤ على ملاحقتك. إنك امرأة تقية وتستحقين ملاحقة الميتين من عائلتي وتولي أمر بناء المدفن. سيكون لديكِ الوقت فعلًا لتصلي. ولكنني لن أفعل هذا لأن الحقير الجاحد سيرفع عليك دعوى. يمكنه من أجل المال أن يتصالح حتى مع الناس في تشابدول. لا يمكنني أن أفعل بكِ هذا، رغم أنكِ تستحقينه. هيا اذهبي إلى البيت واقرئي الكتاب المقدس المكتوب بالألمانية.

لقد حان موعد انصرافي. نظر فايولا إليها منتظرًا الأوامر الخاصة به. وضعت إيمرنس يدها على رأسه، فأغمض عينيه على نحو حالم، وكأن لم يكن بوسعه التعبير لها سوى بهذه الطريقة، وراح يتلقى البركات التي انهمرت من تلك الأصابع الخشنة والمتجعدة من العمل. مشيت في طريقي بتثاقل، كما لو كنت امرأة مسنة. لقد كانت أحداث اليوم، وكل ما أوصل إليها كالجبل على كاهلي. لم يكن الكلب وحده من تبعني، بل أتت إيمرنس أيضًا. كنت مستغرقة أنظر في حائط الياسمين خلف السياج، ولم أسمع وقع خطاها. كانت ترتدي عند استطاعتها أحذية قماش، وتبطنها بلباد حتى تريح قدميها التي برزت عروقها بشدة. فكرت بألم، لم تتبعني الآن. لقد انتهتْ من رسم لوحتي الشخصيةُ؛ تعتقد بأنني منافقة، ومتعجرفة أتكبر على الناس. لم تفهم كيف حاولت أن أشغل زوجي عن التفكير في الموت طوال الوقت.

ولو كان مريضا حقًا، هل كنت سأجلس للعمل بهدوء على مكتبي كل يوم؟ كانت تجد العيب في أكثر جزء نقي في داخلي .. المحاربة التي تصارع الإله.

-عودي واجلسي معي مثل فتاة مطيعة. لا بد وأن صاحب السعادة الآن يستمع للموسيقى التي يحب عبر المذياع، ويستمتع بعدم وجود فايولا في البيت. هيا تعالي، لن أؤذيك. كل ما في الأمر هو أنكِ غبية إلى حد ما. لم تهتمين إلى هذا الحد بتذمري؟ ألا تفهمين؟ أنتِ كل ما بقي لي. أنتِ وحيواناتي.

وقفنا في مكاننا، وأصوات قاطني البناية الضعيفة تتسرب من النوافذ المغلقة. كان المستأجرون الذين يقطنون لدى إيمرنس هادئين للغاية. كانوا قد أخفضوا صوت إذاعة المساء، ولكنني أستطعت أن أسمع معزوفة قداس الموت لموزارت. لم يكن لدي أي شيء أقوله لها؛ لم تقل هي على أية حال ما هو جديد. لم تفهم بأنها كانت بسبب الحب المتبادل بيننا تطعنني حتى أقع على ركبتي، وأنها حسب قولها فعلت ذلك بسبب حبها لي وحبي لها. لا أحد يسبب لي الألم العظيم سوى أولئك القريبون من قلبي. ربما فهمتْ هذا منذ زمن طويل، ولكنها فهمت منه ما تريد فهمه وحسب.

-أرجوكِ عودي معي ولندخل، لا داعي للعناد الآن. طبيعتكِ بغيضة مثلي تماما، لأننا كلتانا من الريف. هيا، لا تحملقي في هكذا. لدي ما يدفعني لدعوتك للجلوس من جديد.

لم؟ ما الذي تريده بعد كل هذا؟ لقد أنهت اللوحة، ووضعت المرآة أمامي، ولكنها ورغم فطنتها، لم تر الجانب المضيء خلفي، بل استخدمته لتعميني.

-هيا، لدي هدية من أجلك. لقد وضعها أرنب عيد الفصح لك.

كانت تتحدث بنبرة من يحاول إغراء طفل صغير. كنتُ عندما أسمعها تتحدث بهذه النبرة مع أي أحد في الشارع، أقف في مكاني وأشاهد. كان

الأطفال يتحلقون حولها ويتشبثون بها تمامًا مثلما يفعل فايولا. أرنب عيد الفصح في الجمعة العظيمة.. لم تطبخ حساء البرقوق، وسخرت من حزني على المسيح، وها هي الآن تقدم لي هدية. كان يحق لها أن تهدي وأنا لا. كان محرم علي فعل ذلك.

-لن أدخل يا إيمرنس. قلنا ما لدينا. سوف أهاتف ابن أخيك وأخبره بما قلته لي. يمكن أن يقضي فايولا المساء لديكِ إذا أردت.

لم أستطع أن أتبين تعابير وجهها؛ كانت السماء قد غيمت. كنتُ طوال ذلك اليوم انتظر هطول المطر، ولكنه كان قد اختبأ، رغم أن يوم الجمعة العظيمة عادة ما يكون عاصفًا و محملا بالأمطار الغزيرة. ولكن هاهي تهطل أخيرًا دموع الحزن على المسيح، ولم يمكن في وسعي العودة إلى البيت مع قطرات المطر الكبيرة تلك، والرياح التي تشير إلى قرب وقوع العاصفة. كان الأمر وكأن الكون يلهث بحثًا عن الهواء، أو بدأ يتنفس في أذاننا. كنت أعلم أن الشيء الوحيد الذي كانت إيمرنس تفزع منه هو العواصف، ولم يكن هناك من مجال لي للامتناع عن الذهاب معها. كانت لتحملني للداخل لو لم أوافق. بدأ فايولا في التذمر والنباح من الماء الذي بلله، بعد أن ركض إلى الشرفة الأمامية وراح يلمس الباب المغلق منذ الأبد، لكي يختبىء. شق البرق صفحة السماء، ودوى الرعد من بين نباح الكلب. كانت كهرباء نقية؛ شعلة زرقاء مفاجئة ومن ثم الماء النقي والسماء السوداء الحالكة.

-اهدأ يا فايولا، سوف ينتهي كل شيء قريبًا يا صغيري.

انقلبت السماء زرقاء داكنة، ومن ثم فضية. دوى الرعد عاليا، ولمع البرق من جديد لأراها تخرج المفتاح من جيب قميصها المنشّى. نبح فايولا من جديد.

-هذا يكفي يا صغيري.

أدارت المفتاح، ونظرت إحدانا إلى الأخرى تحت ضوء البرق. لم ترفع العجوز عينها عني. فكرت في أن خطأ ما يحدث، لا بد وأن هناك خطأ ما. لا يُفتح هذا الباب أبدًا. لا يمكن أن يفتح الآن. هذا مستحيل.

-إياك وإخبار أحد! سوف أصيبكِ بلعنة، وأي أحد يصاب بلعنة مني تكون نهايته سوداء سيئة. سوف ترين ما لم يره ولن يره أحد حتى يوارى جسدي الثرى. ليس لدي ما هو أغلى من هذا لأقدمه لكِ. اليوم سأعطيك الأمر الوحيد الذي أملكه. كنتِ سترينه يومًا ما على أية حال وستملكينه. ولكن يمكنكِ أن تلقي نظرة الآن، وأنا لا أزال حية. هيا تفضلي. لا تخافي. ادخلي.

تبعتها وهي تدخل، وأما فايولا فقد دخل من الشق الضيق بمجرد أن فتح الباب. تقدمت قدمي خطوة خطوة في ظلام المجهول هذا، وإيمرنس لم تضئ المصابيح بعد. كان الكلب ينبح ويلهث بشدة. كنت أسمع مع صوت فايولا المألوف أصواتا أخرى ضعيفة كأصوات الفئران. توقفت من الخوف، ولم أخط خطوة آخرى. لم يسبق لي أن مشيت في ظلام دامس كهذا. تذكرتُ فجأة درف النوافذ التي لم يسبق لأحد طوال فترة عيشنا هنا أن رآها مفتوحة.

كان النور الذي تدفق فجأة صارخا وقويا؛ لم يكن أصفرًا بل أبيضا بياض الثلج. ولم تكن العجوز تقتصد في منزلها، فمصابيحها تلك تستهلك الكثير من الطاقة. كانت الغرفة التي نقف فيها غرفة كبيرة بجدران ناصعة البياض؛ لا بد وأنها طليت قبل وقت قريب. وضع فيها موقد غاز وحوض غسيل وطاولة ومقعدين وخزانتين كبيرتين والأريكة الصغيرة تحت غطاء كبير مهترئ لونه بنفسجي، فالمخمل الذي نجّدت به الأريكة كان قد تمزق. لقد كان هذا النوع من الأرائك رائجًا في زمن ما. كان بيت العجوز نظيفًا كنظافة

كؤوس الزجاج ولمعانها خلف الستارة الشفافة التي تغطي المنضدة الجانبية العتيقة لطاولة الطعام. كان هناك براد أيضًا، ولكنه من طراز قديم. حدقت فيه وأنا أفكر؛ من أين أتت بقطعة الثلج الكبيرة التي يحتاجها براد كهذا يا ترى، خاصة وأنه لم يعد يستعمل. زحف فايولا تحت أريكة الحب، مشيرًا بفعلته هذا إلى أن العاصفة تكاد تصل قمتها. وأما رائحة الكلور المألوفة ومعطرات الجو فقد حشرت السعال في حلقي. ولكن بغض النظر عن كل هذا، شعرت بأن غرفة الطعام والمطبخ تلك قد أثثت بحب وعناية؛ كانت غرفة دون أسرار حتى وهي بعيدة عن أعين الفضوليين. لم يكن فيها شيء غريب عدا طريقة تقسيم المكان، حيث وضعت العجوز حاجزا محكما بين المطبخ، وما توجب أن يكون غرفة المعيشة، وفصلتهما تماما. كان هذا الحاجز بين القسمين هو خزانة حديدية كبيرة جدًا وضعت أمام الباب. لم يكن هناك من أمل للصوص أن يزيحوها ما لم يأت معهم جيش كامل. لا بد وأنها كانت ملك عائلة غروسمان، وما يقبع خلفها هو بالتأكيد قطع الأثاث التي ورثتها منهم. ولكن من ذا الذي يستطيع تجاوز الخزنة؟ حتى هي لم يكن بوسعها تخطيها دون مساعدة من أحد. زمجر الرعد عاليا، وهطل المطر غزيرًا. كانت العجوز حينها باهتة كالموتى، ولكن تحاول أن تتماسك. اكتشفت لاحقًا أن الخزنة كانت مملئة بالأكواب الخزفية.

بدأت أنظر إلى المكان حولي، والارتباك يتخبط بي. كان من بين الأشياء التي في بيتها بعض الزهور في إناء للزينة، وقطع سجاد صغيرة ومتعددة على الأرضية، وكأن أحدهم قد قطع بعناية فائقة سجادة شرقية رثة، وأنقذ ما يمكنه إنقاذه منها. وقعت عيني وأنا أتأمل على أكثر ما رغبت إيمرنس في إخفائه عن العالم. رأيتُ أوعية صغيرة، وأطباق رمل مصفوفة إلى جانب بعضها، وهو كل ما تحتاجه القطط لنظافتها الشخصية. وفي زاوية الغرفة،

بالقرب من منضدة طاولة الطعام، وتحت حوض الغسيل كانت هناك تسعة أطباق صغيرة، بها بقايا طعام، وتسعة أوعية آخرى. وأما تمثال عرض الأزياء الخاص بأمي، فقد كان يقف مثل تمثال تاريخي عظيم بين الخزانتين، وعليه علقت الصور فبدا وكأنه قائدة عليا في الجيش تمشي عارية ولا تتزين بشيء سوى أوسمتها. كانت هناك صورة باهتة أخذت من صحيفة قديمة لوجه شاب بملامح حادة وتقليدية إلى حد ما.

-نعم إنه هو. عثرتُ على القط الذي شُنق فيما بعد، عندما غادر هو وتركني. لا داعي للشفقة. إنني لا أستحقها. احذري من حب أحد أو حيوان ما إلى هذا القدر.

كان فايولا ينبح ردا على الرعد الذي كان يدوي عاليا.

-لا يهم الأمر الآن؛ لقد وجدت قطا غيره. هناك أكثر بكثير مما نحتاج من القطط في حينا. يرميها الناس في الشارع ويطاردونها، بعد أن امتلكوها في البداية من أجل متعة الأطفال الذين يكبرون ويملون منها. أحضرتُ قطا كما أخبرتك بعد أن شنق قطي الأول، ولكنه سُمم ومات من الشخص نفسه بلا شك. قررت بعد ذلك أن أتكتم على الأمر. ليس من اللازم أن يخرج الحيوان للحديقة، ويمكن له أن يبقى كما تفعل كلاب فصيلة دوبرمان عند الأرستقراطيين. كانت الوسيلة الوحيدة لإبقائهم أحياء هو بقاؤهم داخل هذه الجدران الأربعة. لم يكن لدي هذا العدد من القطط سابقاً؛ لست بمجنونة. لم أكن أريد سوى القط الأول منهم، والذي اصطحبته على الفور ليخصى حتى لا يثير المتاعب. وأما القط الثاني فقد عثرت عليه مريضا، وأخذته حتى أرعاه وتتحسن صحته، وحين تحسنت لم أقو على رميه في الشارع مرة آخرى. جميعهم قريبون لقلبي؛ رقيقون ويسعدون بعودتي. لا معنى للحياة، إذا لم يكن هناك من يسعد بنا حين نعود إلى بيوتنا. ليس

في وسعي حتى لو حاولت، أن أخبرك كيف ارتفع عددهم لدي إلى تسعة. عثرت على واحدة منها وهي تصرخ بعد وقوعها في حفرة عميقة. كانت تحاول التسلق، ولكنها كانت تقع في كل مرة. ومن بينهم أيضًا قطين آخرين قدمتهما لي سلة القمامة. فكما تعلمين يتخلص الناس من الصغار بوضعها في أكياس نايلون ورميها في سلة القمامة. لم أتوقع أن يكبرا، ولكنهما كبرا وأصبحا أجمل قططي. وبالنسبة للقط الرمادي فقد خلّفه الرجل الذي حضر ليضع موقد الغاز. والثلاثة قطط البيضاء والسوداء فقد أنجبتها القطة التي أنقذتها من الحفرة، إنهم كمهرجي السيرك، غريبين للغاية. اعتدت أن أتخلص من كل مواليد قططي، ولكنني لم أقو على التخلص من هؤلاء المهرجين الصغار. ولدوا وعلى صدر كل واحد منهم نجمة. لا يمكن أن تدفني أحدا كهذا تحت الأرض.

تجمدت في مكاني، ولم أتحرك أبدًا. بدأت العاصفة تنحسر، وهدأ الرعد واختفى البرق تقريبا، ولم يبق أي بريق سوى ذلك الذي يصدر عن مصباحها الضخم.

-يعلمون جيدا أن عليهم أن يختبئوا، فجميعهم يتذكرون لحظة الخطر تلك. ويمكنهم أيضًا أن يشعروا بحضور الموت. لا تظني بأنهم يجهلون ما ينتظرهم حين تقتربين منهم وفي يدك حقنة طبية، ولكن عليكِ أن لا تشعري بالأسف عليهم أبدًا. فإنهاء حياتهم أهون بكثير من تشردهم في الشوارع. أطعميهم اللحم حتى تمتلئ بطونهم، قبل أن تنهي حياتهم. لم يعتادوا أكل اللحم، ولكن يمكنكِ من خلاله وضع مخدر يريحك من مطاردتهم. إياكِ وفتح فمك والثرثرة عن أي من هذا؛ لا أحد يعلم بأمرهم غيرك. لقد أنقذتهم جميعا من بين أنياب الموت، وهم أقرب لنفسي من ابن أخي الصغير. لو عرف الناس في البناية عدد القطط التي لدي، لأجبروني على أن أتخلص

من سبعة منها، ذلك أن العدد المسموح هو اثنين فقط، وستطاردني جراء ذلك دائرة الصحة. لا يمكنني أن أمنحك غير رعاية قططي ورؤية بيتي، لا أملك غيرهم. انظري جيدا ولكن لا تتحركي. إنها قطط خجولة وجبانة؛ لا يعلمون أحدا سواي وفايولا. أين أنت يا فايولا؟ توقف عن العبث، لقد انتهت العاصفة. هيا اذهب إلى مكانك.

خرج الكلب من تحت الأريكة، وقفز عليها. لاحظت الهوة التي غزت الأريكة لكثرة جلوسه عليها. صرخت العجوز معلنة وقت العشاء، ولكن لم يخرج أحد. أعلنت العشاء مرة آخرى ولكن بنبرة هادئة جداً، لتضج الغرفة بالحركة. سمعت تلك الأصوات الضعيفة من جديد، ورأيت عائلة إيمرنس، التسعة قطط جميعهم، وهم يخرجون من أماكنهم خلف المقعد وتحت المنضدة. لم ينظروا إلي أبدًا. وقفوا إلى جانب الأوعية الفارغة، وراحوا ينظرون بأعينهم اللامعة إلى إيمرنس التي كانت تقف بالقرب من الموقد وتغرف ما يبدو يخنة طماطم وفلفل من وعاء كبير. منحت كل واحد من قططها نصيبه، والابتسامة لم تفارق وجهها وهي تنحني من أجلهم. لقد كان هذا المشهد المستحيل غير مستحيل على الإطلاق، بل عرض سيرك ودليلا على تدريب مكثف. لم يحرك فايولا الطماع عضلة واحدة، رغم أنه لا شك كان يتقطع من الجوع. كل ما فعله هو أنه حرك ذيله، مذكرًا بوجوده بين القطط التي لم تبد أي خوف منه. مر وقت طويل منذ أن فكروا به ككلب من الكلاب. حاز على نصيبه أخيرًا، وكان طبقه كبيرًا. اتكأ على حافة النافذة، وعكس ما يفعل في بيتنا التهم اليخنة بشراهة، ولعق طبقه حتى لم يبق فيه قطرة، ومن ثم نظر إلي وكأنه يقول لي انظري كم أنا كلب جيد هنا. أمرته إيمرنس بعد ذلك أن يذهب إلى مكانه، فقفز من جديد على الأريكة، وتبعته القطط جميعها وتحلقت حوله. تعلقت القطط التي لم تستطع الجلوس بجانبه

تمامًا أو فوقه، بظهر الأريكة وتشبثت بإطارها الخشبي. كما تعلق اثنان منهما بكتفي تمثال عرض الأزياء، وفوق الصور التي كان من بينها صورتي.

أعلنت العجوز، ودون سابق إنذار، أنه لم يعد في وسعها مجالستي. كان القبو قد طفح بالماء وعليها أن تفعل شيئًا. لم تطلب من فايولا المغادرة، قائلة بأن عليه أن يبقى ليتحدث مع البقية، وأما أنا فقد دفعتني للخارج. خرجنا ومشينا سوية لبعض الوقت. لم يكن هناك سوى رائحة المطر الجميلة. كان منظرنا ونحن نشق طريقنا بين الظلال، والرذاذ يلفنا قد ذكرني من جديد بالإنياذة والمجلد السادس. مشينا وفوقنا القمر مختبئ يخدعنا، قبل أن يظهر وينهمر شعاعه. وما إن وصلت إلى بيتي وفتحت الباب، حتى انهمرت دموعي. للمرة الأولى في حياتي، لم ولن أستطيع تفسير سر نحيبي في تلك الليلة لزوجي. كان ذلك الحدث الوحيد في حياتنا الذي رفضت فيه أن أجيبه على أي شيء.

مفاجأة عيد الميلاد المجيد

مات فايولا منذ زمن بعيد، ولكنني لا أزال حتى الآن أتخيله في كل مكان. يخدعني الضوء والظل عادة وأنا أسير في الشارع آناء الغسق، وأكاد أسمع وقع خطوات صغيرة ومنتظمة في أعماق الصمت حولي. أتخيل أنني أسمعه يركض خلفي وهو يلهث بسرعة. تتراءى صورته لي أيضًا في بعض أيام الأحد من فصل الصيف، عندما يعبق الهواء برائحة حساء اللحم أو المخبوزات من خلف مرطبانات مخلل الخيار إلى الخارج من النافذة المفتوحة. ما من أحد كان يحدق في المطبخ بكل تركيز وتفانٍ، ويراقب مكونات عادية تتحول إلى طبق مثلما كان يفعل هو. كان من سابع المستحيلات إبعاده عن مكان الطبخ، ولم نكن نمانع وجوده ذلك أنه كان مطيعا ومؤدبا للغاية، وفي انتظار دائم للعطايا الخاصة. كان لتوقه لتلك اللقمات صوتا مميزا، وكأنه يتنهد، وردا على هذه النبرة الحزينة، كان من يقف إلى جوار الموقد يلقي له قطعة أو قطعتين. دائما ما يعيد لي سيل ذكرياتي هذه التنهيدات.

كان وجه إيمرنس الذي يظهر لي في معظم الأوقات من الماضي، هو وجهها وهي تسألني بصوت خلا من أي مشاعر متى أمل من عرض المساعدة عليها، والنظر إليها بشكل حالم وكأنها طلبت يدي للزواج. ما الذي أردته منها؟ صداقة فقط أو أن تعاملني كما يعامل الناس من هم قريبون منهم. قالت:

-إن أفكاركِ حول كل شيء تختلف تمامًا عن أفكاري. لقد علموكِ أن

تفعلي مئات الأشياء، ولكنهم نسوا أن يعلموكِ إدراك ما هو مهم. ألا ترين أنه لا فائدة من محاولة إبهاري؟ لا أريد أي أحد، إلا أن يكون ملكي تماما. تحبين أن تضعي كل شخص في صندوق وتظهرينهم بالطريقة التي تحبين؛ هذه صديقتي، وهذا قريبي، وهذه عرابتي. هذا حب حياتي، وهذا طبيبي، وهذه الزهرة المجففة والمضغوطة أحضرتها من جزيرة رودس. دعيني وشأني. يكفيني أن تزوري قبري عندما أموت من حين لآخر. لقد رفضتُ ذلك الرجل صديقا، لأنني أردته زوجا. لا تحاولي أن تكوني الابنة التي لم أحظ بها. عرضت عليك ما لدي وقبلتِ به. لكِ الحق في بعض ما أملك، ذلك أننا كنا على وفاق رغم بعض المشاجرات الصغيرة. سوف تحظين بشيء عندما أموت، ولن يكون هذا قليلا، بل يجب أن يكون كافيا. ولا تنسي بأنني سمحت لك بدخول المكان الذي لم أسمح لأحد قط بأن يدخله. ليس عندي أكثر من هذا لأمنحك إياه. ماذا تريدين أكثر؟ فأنا أطبخ وأغسل وأنظف وأرتب. إنني رعيت فايولا لأجلك. إنني لست أمك الميتة، أو مربيتك أو صديقتك المقربة. دعيني وشأني.

كانت محقة بكل تأكيد، ولكن هذا لم يكن كافيا. كان الجميل الوحيد الذي طلبته مني هو أن أغلق حديقة الحيوان التي في بيتها بعد أن تموت. كنت سأفعل هذا لأي أحد، رغم أنني تمنيت من كل قلبي تقلص هذه المجموعة البرية حبيسة البيت، أو أن تتخلص العجوز منها، وأن تتوقف عن جلب المزيد منها لبيتها. لقد كانت التسعة رقما مرعبا بحد ذاته. لم تكن لتكون هذه المهمة سهلة علي، ولكن لا خيار أمامي. توجب علي أن أتقبل الشروط التي حددتها، وترموستات هذه العلاقة الذي كان اقتصاديا من الدرجة الأولى ومعقولا. لقد كانت علاقاتنا مع الدبلوماسيين و أزواجهم تسير بالطريقة الكيّسة ذاتها. فقبل كل لقاء معهم، كنا نعيد قراءة بروتوكول

السلك الدبلوماسي الذي يعملون به، والذي يقول: «يجب على الدبلوماسي السيطرة على مشاعره. يتغير مكان عمل كل دبلوماسي كل ثلاث سنوات ويبعث إلى مكان آخر. لا يحق للدبلوماسي أن يشكل علاقة مع أي أحد من مواطني الدولة التي يوفد إليها». كان علينا أنا وزوجي أن نقنن مشاعرنا بالطريقة ذاتها، وأن نستمتع وحسب برفقتهم في فترة وجودهم في بلادنا، فقد كان من الرائع بالنسبة لنا أن نجلس معهم، ونتشارك ما يشغل بالنا.

وعلى هذه المعاهدة الدبلوماسية وافقنا نحن الثلاثة. وأما فايولا الفرد الرابع في عائلتنا، فقد رفضها. قام الكلب في إحدى المرات بعضّ العجوز، فضربته إثر ذلك بالمجرفة حتى كسرت له ضلعا. ورغم عوائه، إلا أنه استسلم ليدي الطبيب البيطري. أمسكت به العجوز وهو يتلقى العلاج، وبدأت تتحدث دون توقف.

-لقد دفعتني لهذا يا ثور القرية. هل حل موسم التزاوج حتى تعضني؟ لا تعبس هكذا! إنك عار علي، وتلقيت ما تستحق. هيا افتح فمك القبيح وخذ.

كانت مكافأته قطعة مخبوزات، اختفت في ثوان بين أسنانه القوية. كان شرط إيمرنس في حال أحبها أحدهم، هو أن تكون الشخص الأول في حياته. ومن بين كل من حولها من الأشخاص المهمين بالنسبة لها، كان فايولا الوحيد الذي عدّه أمر طبيعي وقبل به حتى وهو يعضها.

كانت العلاقة بالنسبة لها أكثر تناغما وانسجاما عندما يكون أحدنا يعاني من مشكلة ما. ولم يكن هناك نقص في مشاكل كهذه؛ ففي تلك السنوات كانت صحتي أنا وزوجي سيئة، وغالبا ما يطرحنا المرض، سواء كان ذلك بسبب فشل أجسادنا في محاربة هذه الأمراض، أو استسلام نظامنا العصبي أمام لعبة غير عادلة بالنسبة بنا. كانت إيمرنس تقف إلى جانبنا في الأوقات

الصعبة، بطرق يحس بها فعلًا. جلبت لنا أصابعها الصلبة الراحة والعافية؛ لم يكن هناك أمر أكثر إنعاشا بعد مرض خطير منها وهي تحممنا، وتدلكنا، وتضع لنا بودرة التلك المعطرة التي أرسلتها لها الصغيرة إيفا غروسمان. اقترح زوجي مرة أن نعيش بقدم واحدة في القبر، أو أن نغرق في بركة لا قاع لها لكي تأتي وتنقذنا، حتى تشعر بالراحة والرضى التام. إن كنا حققنا النجاح الكامل في حياتنا أو الأمان فإنها ستفقد الاهتمام بنا. لن ترى أي معنى لوجودها في اللحظة التي لا يكون في وسعها فيها المساعدة.

إن الشيء الوحيد الذي لم أستطع الاعتياد عليه، هو معرفتها بكل الأخبار السيئة المتعلقة بمسيرتنا الأدبية، رغم أنها لم تكن تقرأ أي صحيفة. كانت تحرص على معرفتنا بعلمها بما كان يحدث، وتؤكد لنا بأنها ستقوم بنفسها بإخبار جميع من يهمنا أمرهم في الحي-في حال لم يكتشفوا بأنفسهم- أن المتآمرين قاموا بخطوتهم. وكانت تطلب من دائرة معارفها المقربة أن يعلنوا تضامنهم معنا واستنكارهم لأعدائنا.

وهكذا، وبمرور السنين، ازدادت العلاقة التي تربطنا بها صلابة. كانت إيمرنس واحدة منا، إلى الحد الذي سمحت هي به. تابعت استقبالي في شرفة بيتها الأمامية، مثل غيري من الزوار، ولم تفتح لي بعد تلك المرة باب بيتها قط. لم يكن هنا تغير في عاداتها. قامت بكل الأعمال التي عُهد إليها بها، ولم تتوقعت عن إزاحة الثلج، ولكن ليس بنفس الطاقة العظيمة تلك كما لاحظت أنا. كنت أحاول من وقت لآخر، تحديد قيمة الأثاث الذي تملكه. كنت أظن أن في وسع ابن أخيها أن يبني لعائلته كلها بيتا بعد أن يكون قد بنى المدفن الذي طلبته. كانت العجوز كافأت كل واحد منا بطريقة مميزة وخاصة. فقد منحت حضرة المقدم احترامًا منقطع النظير، وأعطت قلبها لفايولا، وأدت عملها لزوجي دون عيب واحد، وكان هو يقدر فيها أيضًا

الحدود التي يفرضها سلوكها المُقيِد على طيبتي الريفية الساذجة. وأما أنا، فقد ائتمنتني على تنفيذ أوامرها المتعلقة بآخر لحظات حياتها والتي توشك أن تقع. وأمرتني أيضًا أن يكون فني حقيقيا يحركه الشغف، لا آلة تهز غصون الأشجار. كانت هذه هدية كبيرة منها، بل وأعظم وصاياها.

ولكن ظل كل هذا غير كاف بالنسبة لي، أردت المزيد. كنت أود على سبيل المثال أن أعانقها مثلما كنت أعانق أمي، وأخبرها بكل ما لا أستطيع إخباره للآخرين، أخبرها أشياء كانت أمي تفهمها لا لذكائها أو نتيجة تعليمها، بل من خلال هوائيات الحب الخفية. ولكن إيمرنس لم تردني بتلك الطريقة الكاملة. هذا ما شعرتُ به أنا على الأقل؛ لم أكن شيئًا أساسيا بالنسبة لها. بعد انقضاء زمن طويل من اختفاء كل أثر للعجوز وبيتها، رأتني زوجة عامل الإصلاحات وأنا أحمل الزهور، وأدركت أنني ذاهبة إلى المقبرة، فعانقتني وقالت:

-كنتِ نور حياتها. كنتِ ابنتها. اسألي كل من يعيش هنا عن الطريقة التي تحدثتْ بها عنكِ. لقد كانت تقول أنكِ ابنتها الصغيرة. عن من تعتقدينها تحدثت طوال ذلك الوقت، وهي طريحة فراشها؟ لقد كانت تتحدث عنكِ. ولكن كل ما كنتِ ترينه هو إغواؤها للكلب بعيدا عنك. ما لم تلحظيه هو أنها كانت لكِ كما كان فايولا بالنسبة لها.

رافقتنا إيمرنس لما يقارب العشرين عاما. قضينا في تلك السنوات أسابيع لا تعد ولا تحصى، بل وشهورًا خارج البلاد. وكانت العجوز تراقب منزلنا، وتتولى أمر البريد والهاتف، وتتسلم أي مال يصل لنا. ورغم أنه كان يعوي ويتذمر، إلا أنها لم تأخذ فايولا قط إلى بيتها، ولا حتى لساعة واحدة، حتى لا يبقى بيتنا خاليا في غيابنا. أحضرنا لها مرة بعد عودتنا من أسبوع الكتاب في مدينة فرانكفورت تلفازا محمولا. كنا ندرك أنها لا تقبل الهدايا، ولكن فكرنا

في أن هدية كهذه يمكن أن تجلب العالم الكبير لمدينتها المحرمة. كانت هذه الأشياء في ذلك الوقت غير متوفرة في هنغاريا، وكان ذلك التلفاز الوحيد من نوعه فيها. وبما أنها كانت تسعى لكل ما هو حصري في حياتها العاطفية، اعتقدنا بأنها لن ترفض هدية كهذه. ستكون الوحيدة التي تملك شاشة صغيرة كتلك في كل الحي.

عدنا في الوقت المناسب، وذلك عندما بدأت العطلة. كانت عطلة عيد الميلاد المجيد؛ الوقت الذي عثرنا فيه على فايولا. في تلك الأعوام، كانت البرامج الدينية في التلفاز، أقل بكثير مما كانت عليه، وصاروا يعرضون بدلا منها الدراما الشعبية بأطفال يرتدون معاطف فرو وأحذية شتوية، ويغنون ويهتفون. وكان يعرض في المساء فيلم عاطفي تقع أحداثه في الحرب العالمية الثانية. اعتقدنا أن إيمرنس التي كانت تحضّر عشاءنا ستسعد بهذا التلفاز الصغير، ولكنها لم تبد أية سعادة، ونظرت إلي بعينيها الغامضتين الجادتين، وكانت توشك أن تنطق، ولكنها لم تفعل. سعدتُ بذلك أيما سعادة؛ لقد قبلت هديتنا، بل وشكرتنا وتمنت لنا عيد ميلاد مجيد وغادرت. كان العيد في تلك السنة مميزا، مثل تلك اللحظات التي كنت أراها على بطاقات التهنئة اللامعة عندما كنت صغيرة. كان الثلج يتساقط ناعما وكثيفًا في الخارج؛ كان الشتاء موسمي المفضل. وقفت حينها قبالة النافذة ورحت أتأمل. كنتُ أشعر بالسحر وروح عيد الميلاد والوطن. تداخلت أفكاري عن العيد وإيمرنس، المالكة الجديدة للتلفاز الذي تحتفل به في غرفتها.

أعتقد بأن كل ما حدث بعد ذلك، كان قد حدث بسبب ما وقع في تلك الليلة. كان الأمر وكأن الجنة رمت الهدية في وجهنا، أو أن إله إيمرنس الذي كان يراقب كل خطوة تأخذها، رغم ازدرائها له وإنكار وجوده، كان غاضبا مني ومنحني فرصة أخيرة لكي أدرك ما أنظر إليه، لا أن أرى وحسب.

لقد كنا نقف قبالة النافذة، فوق مصابيح الشارع التي تدفق ضوءها في تلك العاصفة الثلجية غير المسبوقة، نحدق بانبهار في الشتاء وندف الثلج الراقصة، إلى أن ظهرت إيمرنس في هذا المشهد فجأة. كانت تزيح الثلج، وغطاء رأسها وكتفيها وظهرها بيضاء تحت غطاء الثلج الثقيل. كانت تكنس الثلج .. في عشية عيد الميلاد؛ لا يمكن أن يترك الرصيف ممتلئا بالثلج هكذا.

احمرّ وجهي. بدت من الأعلى كرجل القش في قصة ساحر أوز. يا إلهي، ما هذه الهدية التي جلبتها للعجوز المسكينة. متى ستسنح لها الفرصة في الجلوس بسلام في بيتها، والواجبات تشد مئزرها من الفجر حتى فجر اليوم الثاني؟ لهذا نظرت إلينا بتلك النظرة المتعجبة. لو لم يكن نسيجها العاطفي قد غزل بخيوط أرفع، وأكثر رقة وحساسية مني لكانت رفضت الهدية، أو طلبت منا أن نزيح الثلج مكانها، أو أن نغسل الملابس، ذلك أنها لو جلست على الأريكة لكانت بودابست قد توقفت عن البث طويلا.

لم يجرؤ أحدنا عن قول أي كلمة للآخر. كان زوجي قد أدرك ما أدركته، وكنا أكثر خجلا من أن نتابع منظر الثلج وهو يتساقط في الشارع، وأدرنا ظهرنا لإيمرنس ومكنستها الكبيرة. كان فايولا يهز باب الشرفة، طالبا مني أن أدعه يخرج، ولكنني رفضت. لم أتحدث لا أنا ولا زوجي؛ ماذا عسانا أن نقول؟ كان ما تحتاجه العجوز هو الفعل لا الكلام. لم نفعل شيئًا سوى العودة إلى الغرفة ومتابعة تلفازنا. لم أستطع حتى الآن مسامحة نفسي على ما كان في وسعي فعله حينها؛ أن أقوم بأكثر من مجرد التفكير بها.

لطالما كنت متمكنة من الفلسفة وتحليل الأمور، ولم أخجل من الاعتراف بأنني أخطأت حينها. ولكن ما لم يتبادر إلى ذهني هو أنني كنت شابة وقوية مقارنة بها، ولم أذهب رغم هذا وأزيح الثلج. لم أرسلها إلى منزلها لتشاهد الفيلم رغم أنه كان في وسعي أن أتولى أمر الثلج. كنتُ قد رقصت مع

المكنسة كثيرًا وعملت بها، وأنا صغيرة في الريف. كنت أنا من يبقي باب منزلنا خاليا من الثلج في مثل تلك الأيام. بقيت في مكاني رغم كل هذا، ولم أنزل إلى الشارع. كانت عشية عيد الميلاد، واخترت أنا أيضًا أن أحظى بشيء حلو عوضا عن المر الدائم؛ أن أشاهد ذلك الفيلم العذب عوضا عن أفلام الوجوديين المنفرة التي اعتدت عليها.

الفعل

نعم، لا شك عندي من أن كل شيء بدأ بالانهيار حينها. أصيبت إيمرنس بالأنفلونزا في وقت ما أواخر شهر شباط. وبالطبع تجاهلت الأمر، وقالت بأنها أعراض عادية. كان ذلك الشتاء قد أتى محملا بثلج لم نره مثله من قبل، وانصب تركيز العجوز كاملا على إبقاء الشارع خاليا نظيفًا، رغم أن سعالها يكاد يخنقها في بعض الأحيان، وفقا لما سمعه من حولها. كانت شوتو وأديلكا تهرعان إليها، وتحضران لها كوبا ساخنا من الشاي مخلوط بنبيذ ممزوج بالتوابل. وكانت هي تتجرع هذا النبيذ الحلو، وتتوقف من حين لآخر لتتكئ على المكنسة حتى تنتهي نوبات سعالها الطويلة. كانت أديلكا تلح عليها وتزعجها، حتى وقعت هي تحت تأثير الأنفلونزا وأدخلت المشفى إثر ذلك. بدت الراحة على إيمرنس والأخيرة في المشفى لم تعد تزعجها طوال الوقت. وأما شوتو فقد كانت أكثر تكتما في مساعدة إيمرنس، عكس أديلكا التي لم تكن تصمت. لم يكن ما قيل في الشارع عن العجوز وعدم ذهابها لبيتها للراحة منذ أيام عدة قد أعجبها. كان الثلج لا يتوقف عن الهطول، ولا فائدة من إزاحته لأنه سيتراكم من جديد. تحدثت معي الزميلة التي اقترحت إيمرنس عندما كنت أبحث عن عاملة منزلية، وطلبت مني أن أتحدث مع العجوز وأطلب منها الذهاب إلى المشفى، والأهم من هذا أن تأخذ إجازة من هذا العمل الشاق وترتاح لبعض الوقت، وإلا فإن الحالة ستشتد. كانت قد سمعت سعالها، وقالت بأن ما ألم بإيمرنس لم يعد الأنفلونزا، بل تطورت

حالتها وأصبحت تعاني من داء الرئة. عندما ذهبت إلى العجوز، وأمسكت بيدها لتقف وتركز فيما سأقوله، كانت مختنقة تبحث عن هواء. صرخت بعد ذلك طالبة مني أن أدعها وشأنها. وقالت بأنني لو كنت أريد المساعدة حقًا، فعلي أن أهتم بنفسي بأمر زوجي وبالطبخ والتنظيف في البيت .. وطالما استمر الثلج في الهطول، فإنها لن تبارح الشارع، وأنها لا تحتاج إلى الراحة! كيف لها أن تذهب إلى سرير أعلم جيدا أنها لا تملكه في بيتها. وأضافت بأنه من المستحيل لها أن تستلقي بينما يمكن لأي أحد أن يطلبها؛ صحيح أن المستأجرين لديهم مفاتيحهم، ولكن ماذا لو ظهرت السلطات أو أي شخص لم تتوقع حضوره؟ كان من الأفضل حسب ما قالت أن لا تستلقي حتى في الليل؛ هكذا يمكنها أن تقف دون أن يصيبها ألم في ظهرها. وقالت بأن علي أن أتوقف عن القلق عليها؛ ليس من شأن أي أحد استلقت أو لم تفعل. لم تسألني هي قط لم امرأة كبيرة مثلي تملك كل مواد التجميل هذه في حمامها! وأمرتني أخيرًا أن أقول لزميلتي وأي طبيب بأن يذهبوا إلى أسِرتهم ويدعوها وشأنها، ومعهم جميع من يتسبب لها بالمتاعب ويأمرها ويملي عليها بالنصائح.

كان الغضب والحمى قد توهجا في وجهها الأحمر، وتابعت الكنس بعنف وشدة أكبر من ذي قبل، وكأنها بذلك تصفي حسابا مع غريمها الثلج، الذي لم يكن أحد غيرها يستطيع هزيمته. صرخت في وأنا أمضي قائلة بأن شوتو وزوجة عامل الإصلاحات يحضران لها طعاما يكفي الحي كله، ولا داعي لأن أقلق بشأنها. كانت تكره مراقبة أحدهم لها. نادرًا ما كانت تفقد أعصابها، ولكن في تلك الأيام وإن أزعجناها بما يكفي، كانت تهددنا بأنها ستفعل. كانت كلماتها تغرق في حلقها المختنق، حتى تبدأ نوبات سعالها، وتقرر أن تدر لنا ظهرها وتذهب لتتابع العمل. وفي تلك الأيام لم تكن

تصطحب فايولا أبدًا؛ لم يكن لديها الوقت لتتجول معه حسب ما قالت، ولم يكن من الجيد لكلب أن يبقى في مكانه دون حراك. لذا أمرتني أن أخذه إلى المنزل الدافئ. لا حاجة له بنزلة برد أيضًا.

كانت تلك السنة سنة غير عادية من كل النواحي، حتى نحن لم يكن حالنا كما كان عليه. ففي الفترة التي أعقبت عيد الميلاد، حين أهدينا إيمرنس التلفاز المحمول، شعرت بأن مدى حياتي بدأ يتسع. كان الأمر وكأن يدا خفيا، ومع حلول أول أيام العام الجديد، أدارت الصنبور الغامض الذي يتدفق منه الخير والشر إلى حياة البشر، والذي يغلق حينا ويفتح أحيان آخرى. شعرت في تلك الفترة بصنبور حياتي يتدفق بلا توقف. لم يكن ما يجري في حياتي عظيما، ولكنه كان جيدا. لم يحدث أن كان لدي ذلك الكم الهائل من الأمور التي توجب علي أن أنظمها وأقوم بها، ولم أفهم السر خلف كل هذا إلا بعد زمن طويل. فلسنوات عدة، كنت مقيدة من قوى خارجية، وشعرت وكأنني حبيسة دائرة غير مرئية ولكن محسوسة إلى حد ما. استغرق الأمر مني زمنا حتى استطعت أن أدرك أنه في مكان ما، كان يجب أن يتخذ قرار ما، وأن ينصب الحاجز المرمي، وأن يفتح الباب الذي لم نطرقه منذ سنوات، وصار في إمكاني أن أدخل إن أردت. لم أحاول في بداية الأمر أن أفسر الدلائل. كانت إيمرنس تنكس وتسعل، وأنا أتبضع للمنزل وأطبخ. أبقيت غرف المنزل مرتبة، وأطعمت الكلب وأخذته في جولاته. كنت أفكر دون توقف لم هذه الجمعية وتلك تضغطان علي بطلباتها الملحة، في حين أن حالة العجوز كانت تشتد وتصيح بها أن تذهب إلى أي طبيب. ولكنها كانت وفي كل مرة أتحدث في هذا الأمر معها، تصرخ وتأمرني بأن أغرب عن وجهها؛ كل الناس يسعلون، وطالما كانت الثلج يهطل، فإنها ستتابع عملها. كان يكفي حسب ما قالت أن أهتم لأمر المنزل حتى تعود هي، ولا فائدة من بالإلحاح عليها

للذهاب إلى الطبيب أو تناول أية أدوية، كنت أضيع وقتي.

كنت أتخبط بين المهام مثل عصفور تتلقفه الريح، دون يد إيمرنس الثابتة في حياتي. ظهر لي كل محرر في مجالي من العدم وعلى حين غرة، وطلب العديد من المصورين أن يأخذوا لي صورة. أدركت حينها أن أمرًا رائعا يلوح لي في الأفق، فلو كان كل هؤلاء يريدون مضايقتي، لقاموا بذلك بطريقة آخرى. لم يحدث من قبل أن كتبت عني مقالات رائعة مثل التي كتبت في تلك الفترة، ولم يحدث أن كان العالم مهتما بي هكذا. كنت مطلوبة في كل مكان، يهاتفني الصحفيون طوال الوقت، ويظهر لي مقدمي البرامج في الإذاعة والتلفاز؛ لقد انقلب عالمي حرفيا. وحتى حين كان زملائي يلمحون لي بما كان ينتظرني، فشلت في فهم تلميحاتهم. وفي صباح يوم ما، وبعد أن تلقى اتصالا من شخص مهم، أضاء وجه زوجي كما أضاء في ليلة زفافنا، ونطق أخيرًا. لا بد وأنها الجائزة.

بالطبع إنها الجائزة. كنا في منتصف شهر آذار، وكل هذه الإشارات، خاصة الأخيرة- اتصال صديق من شخصية مهمة والتحدث في موضوع غير موضوع الجائزة- لا يمكن أن يعني شيئًا آخر سوى أن الجائزة في طريقها إلينا. كان ينبغي علي حينها أن أكون سعيدة جداً، سعيدة للغاية بعد انقضاء تلك السنوات العشر الطويلة من المعاناة. كم كان ينبغي لي أن أكون سعيدة حينها.

ولكن كان كل ما شعرت به هو التعب الشديد. أصبحت حياتي، دونما فترة انتقالية، ظاهرة للملأ والإعلام، الأمر الذي أنهكني. كان نظامنا الداخلي قد انهار؛ لم تكن هناك من إيمرنس. تقلب الأحوال الذي عشته، والذي وضعني تحت الأضواء أكثر وكان عليه أن يمنحني السعادة، صعّب علي تقسيم وقتي والاهتمام بفايولا والطبخ والغسيل والتنظيف والترتيب،

والتردد على محلات تنظيف الملابس. تأملنا بخروج أديلكا من المشفى، وتشافيها من وعكتها، أن تقوم هي وشوتو بدور إيمرنس وكنس الثلج. وبختها إيمرنس في بادئ الأمر بكل وقاحة؛ صرخت العجوز بكل القوة التي سمح لها بها التهاب حلقها وطلبت منها أن تتركها وشأنها، ومن ثم صمتت فجأة وغادرت. أغلقت شوتو كشك الخضار الذي أصبح يباع فيه الآن البطاطس المقلية والكستناء المشوية، ووضعت لوحة كُتب عليها: مغلق لدواعي المرض، وتولت أمر المكنسة والثلج هي وأديلكا. واتضح خلال مساء واحد فقط، أنهما غير قادرتين حتى على إزاحة نصف ما تزيحه إيمرنس، عندما كانت تتمتع بصحة جيدة. توارت العجوز عن الأنظار. وحين ذهب السيد برودارتش، وطرق باب بيتها وسألها ما إذا كانت تحتاج أي شيء، صرخت من خلف الباب وأمرته أن يتركها. لم تسمح لأي أحد أن يزورها، ولم تكن لتسمح لأي بالدخول في المقام الأول، ورفضت أي دواء ناهيك عن زيارة الطبيب. كانت كل ما تحتاجه كما قالت بعض الراحة، لتستعيد قوتها وتعود كما كانت سابقاً. قالت بأنها ستقف على قدميها بمجرد أن تنام لبعض الوقت. ولم ترغب برؤية فايولا، ذلك أنه سيقفز وينبح ولن يدعها ترتاح. وليس فايولا وحسب من رفضت استقباله، بل وأنا أيضًا لأنها لم ترد أن تراني أو تستمع لما سأقول. لم ترغب بأي أحد، ولا حتى أنا.

واختفت إيمرنس، وأضحى الشارع بعدها أرضا يباب وصحراء مقفرة. لم يكن غريبا أن ما شعرتُ به بعد أن انسحبت العجوز، وأبعدت الجميع بمن فيهم أنا عنها كان الغضب العقيم لا الشفقة أو الذعر. لم ترد أن يزعجها أحد إذن؟ حتى أنا؟ يا للطفها ومراعاتها! لمَ أعلق في فوضى كهذه إلا حين أصبحت كل دقيقة في يومي ملك أحد الصحفيين وغيرهم؟ فبدل أن تكون حياتي أفضل، انهار كل شيء، وتوجب علي أن أجد حلا. كان زوجي

ممنوعا من الخروج في ذلك الجو البارد، وفايولا لا يكف عن النباح طيلة اليوم، وكان علي أيضًا أن أحرص على ظهور الشقة في أحسن صورة بسبب الزوار الذين توافدوا في كل وقت. كان الوقت الذي أحتاجه للقيام بكل هذه الأعمال لغزا لم أستطع التوصل لحله. وحتى جرس الهاتف كان يرن بلا توقف، وكنت محاطة بالصحفيين. وفي كل مرة أتمكن فيها من الخروج من بيتي، أجد الشارع وقد عج بالحركة؛ شوتو وأديلكا وهما تنكسان وتتحدثان؛ الجيران الذين تعلموا من العجوز الفعل اللائق حين يمرض أحد وهم يقطعون أكوام الثلج ويضعون أوعية الطعام على فناء بيتها الأمامي من أجل أن تأخذها. لم أمنحها أي شيء. كنت في وقت الطعام أفتح علبتين جاهزتين من السوق، وكانت تكفينا أنا وزوجي والكلب. لم يكن في وسعي أن أقدم لها أي طعام. جميعهم قدموا لها طعاما لذيذا ومصنوعا بحب. لم يفشل أحد في هذا الاختبار سواي، رغم أنني كنت أهرع وأقرع بابها عدة مرات في اليوم لأسألها ما إذا كانت تحتاج لشيء. كان هذا أقصى حدود رعايتي لها، ولم تطلب هي بدورها أي شيء مني.

كنت أدعو والقلق يغمرني، أن ترفض مساعدتي لها. لم يكن في وسعي القيام بكل ما ينتظرني من مهام، ناهيك عن طلباتها. بالإضافة إلى كل هذا، كان الثلج قد تسبب في شل حركة المواصلات، الأمر الذي دفعني إلى الذهاب بنفسي أربع أو خمس مرات في اليوم إلى المتجر، وأنا أجر فايولا معي، ذلك أنه لم يكن هناك مجال لإيصال أي طرد أو رسالة إلى بيتي في الوقت المناسب، ولم أستطع الحصول على أبسط الأشياء. استهلكنا كل شيء تقريبًا في المطبخ، وتوجب علي أن أتبضع من جديد. كنت أمشي بتخبط على الثلج وأنا أحمل الأكياس الممتلئة عائدة إلى البيت، ولم أتمكن رغم الجهد الذي بذلته، من إتمام كل ما هو مطلوب مني. وكان المصورون طوال تلك الفترة، متواجدين في

بيتنا يلتقطون الصور. لا أعتقد بأنه سبق لي وأن ظهرت متعبة وغير جذابة وشاحبة مثلما ظهرت في تلك الصور الذي أخذت لي قبل ثوان من إعلان الجائزة.

لم تفتح إيمرنس بابها في تلك الفترة ولو مرة واحدة، ولم يرها أحد. ولسخطها من القرع المتواصل، طالبتهم بأن يتوقفوا وأن لا يزعجوها. كان صوتها قد فقد كل قوته، وتغير إلى حد ما؛ لم يكن مكتوما بل غريبا. استمرت العجوز في رفض دخول الطبيب، ولم يكن أحد غيري يعرف السبب وراء ذلك. وبقيت علب الطعام التي أحضرها الناس لها في فنائها. كانت في البداية تأخذ الطعام وتفرغه، ومن ثم تغسل العلب وتعيدها إلى مكانها في الخارج. ولكنها توقفت، وأقلقني منظر علب الطعام الممتلئة وهي مصفوفة على فنائها دون أن تمسها. عندما سألناها لم لم تأخذ أيا منها، جاوبت من خلال الباب بأنها فقدت شهيتها للطعام، وأن برادها ممتلئ. كانت في تلك المرة تتحدث دون وضوح وتبتلع الكثير من الحروف. ظننت بأنها كانت تعالج نفسها بالإفراط في شرب الكحول. وكنت أعلم يقينا أن ما قالته كان غير صحيح. لقد رأيت البراد العتيق الذي تملكه؛ لم يكن يعمل على الكهرباء، ولا يمكن أن تكون قد ابتاعت الثلج الذي يحتاجه، ذلك أن الجميع في تلك السنوات قد توقف عن استخدامه، ولم يعد هناك من بائع ثلج في الشارع. ومثل ما فعلتُ في عشية الميلاد الأخيرة تلك، لم أر أبعد مما رأيت.

كنتُ أعلم أنها تكذب بشأن البراد، ولكنني لم أفكر بشكل كامل بما كانت تعيش عليه بالداخل هي وقططها. حاولت أن أقنع نفسي أنها قسمت الطعام الذي أخذته من الجيران؛ لقد أخذت الكثير. لقد كانت الحواف التي بين النافذة والدرف باردة جداً؛ ربما وضعت ما تبقى من طعام هناك. لم أفكر بالأمر طويلا. كنت في تلك الفترة مشغولة أهرع من مكان إلى آخر، وأجيب

على الاتصالات وأستقبل الزوار. ولكنني رغم هذا، لم أتوقف عن الذهاب لها وإخبارها أن في وسعي مهاتفة أحدهم من أجلها مثل جاري الذي كان أستاذا جامعيا في الطب. كنت أعلم أنها سترفض، وكنت أسعد سرًا برفضها، ذلك أنه لم يكن هناك حيز فارغ في حياتي.

كان عقلي لحسن الحظ لا يزال يتمتع ببعض الذكاء؛ هاتفت مركز الشرطة بحثًا عن حضرة المقدم لكي أخبره بمرض العجوز. ولكنه لم يكن موجودا. كان يتمتع بإجازته في منتجع رفضوا إعطائي اسمه. أخبرت ابن أخيها الذي حضر على الفور، ولكنها لم تدعه يدخل أيضًا. ترك لها حبات برتقال وليمون على عتبة بابها، وبعض الكرنب المحشو. زارنا السيد برودارتش مساء يوم ما، وسأل ما إذا كنت قد حسبت المدة التي لم تظهر فيها العجوز في فنائها. قال بأننا في أواخر شهر آذار، ما يعني أنها لم تخرج منذ أسبوعين.

كان المستأجرون قلقين من تحملهم مسؤولية عدم الاتصال بطبيب من أجلها، حتى لو كانت ترفض ذلك. وأشار إلى أمر كنت أعرفه جيدا، وقال أن باب حمامها يفتح على الفناء الأمامي، ولم يبد أنها كانت تستخدمه. كان الثلج يعلو شرفتها، ولو أنها ذهبت إلى الحمام لرأى هو آثار قدميها، ولكن لم تكن هناك من آثار سوى تلك التي تخص الجيران. ما الذي كانت تفعله العجوز عندما يأتي نداء الطبيعة؟ قال بأنه شم رائحة قوية تنبعث من خلف باب المطبخ، وهذا هو ما أقلقه. لا يمكن أن ندع إغلاقها الباب دوننا يستمر إلى الأبد. يجب أن نفعل شيئًا وإلا ستعاني لوقت طويل. وأضاف بأنهم ينوون كسر الباب، إذا ما رفضت فتحه لهم أو للطبيب. كانت أديلكا قد أحضرت أحد مسؤولي الحي صباح ذلك اليوم، لكي يفتح الباب، ولكن إيمرنس طردتهما. ووفقا لأديلكا، فقد كانت العجوز تكاد تفقد صوتها، وتمتمت للرجل شكواها ضد ازعاج الجميع لها. طلب مني السيد برودارتش

أن أطلب فريق الإنقاذ بسرعة وإلا فإن العجوز ستموت قريبا.

لقد بلغ بي اليأس مبلغه. لم يكن لأحد أن يدخل دون إذن منها، ولم تسمح لي بالدخول سوى مرة واحدة فقط. كان من المستحيل أن نتخيل ما سيحدث، لو علمت بنوايانا بالدخول عنوة. بقيت قلقة أقلب الأمر في رأسي حتى تبادرت لي الفكرة. أخبرت السيد بأنه يجب عليه أن ينتظر حتى الغد. سوف أذهب للتحدث معها وحدي، ومن ثم سأخبرهم ما إذا نجحت أو لا. إن لم تنجح فسوف نبحث عن حل أخر.

توجهت إلى بيتها في المساء نفسه، وناديتها من خلف الباب. وعدتها أن أحترم كل رغباتها، وأن أضع في عين الاعتبار الأسباب التي منعتها من فتح الباب لأي أحد. سوف أدخل وأقوم بكل ما يتوجب القيام به، ولكن يجب أن تخرج أولا. لن يتوجب عليها الذهاب إلى المشفى؛ يمكنها أن تبقى في بيتنا في غرفة أمي مع فايولا. وأخبرتها أن الطبيب ينتظرها لدينا. سيفحصها ويعطيها الدواء الذي سيساعدها على التعافي سريعا.

أغضبها اقتراحي، وأصبح صوتها أكثر قوة وحدة. لم تتلعثم أو تبلع الحروف، كانت تصرخ بوضوح، وتوعدت بأنها سوف توجه لنا تهمة الازعاج جميعا بمجرد أن تستعيد صحتها، لو لم نتركها وشأنها. لقد كنا لحوحين وخسيسين ومتطفلين بكل ما تحمل هذه الكلمات من معنى! قالت بأنه يحق لها أن تقضي فترة النقاهة التي تراها كافية، وهي حرة سواء استلقت على سرير أو قعدت على كرسي، لا شأن لأحد في ذلك. وهددت أخيرًا بالفأس الذي لديها، أنها ستقتلني وستقتل أي شخص تطأ قدمه عتبة بيتها. مرعوبة، عدت إلى بيتي وأنا أجر أذيال الهزيمة. أتى السيد برودارتش من جديد، ومعه عامل الإصلاحات وابن أخيها. قرروا كسر الباب، وبصحبتهم الطبيب. لم يكن ابن أخيها ينوي اصطحابها لبيته، ذلك أنه كان يخشى على

ابنته الصغيرة من العدوى، ولكنه قال لي بأنه سيحملها ويصعد الدرج حتى باب شقتي. كان دوري هو أن أدفعها لفتح الباب ولو قليلا، وسيتولون هم الباقي.

لم يبد زوجي أي اعتراض على كل هذا، رغم أننا خططنا لكل شيء وقررنا دون علمه. ما لم يستطع استيعابه كان استيائي الشديد من كسر الباب، رغم سهولة استبداله. لم يكن أمر إيصادها للباب حسب قوله جديدا علينا، ولم تكن العجوز سليمة العقل تماما. لم إذا كان عنادها وانسحابها الذي يشبه عناد البطل آخيل رهيبا بالنسبة لنا؟ يجب أن ننقذها حتى لو كان ذلك رغما عنها. لم يبد اعتراضه على إحضارها إلى بيتنا، إذا ما رغبت هي في ذلك. لم يحب وجود الغرباء معنا في البيت، ولكن لم يكن هذا يهم. لا بد أن نرعى العجوز، وتكون في بيت ذو تدفئة جيدة. سيحس بالذنب حتى آخر يوم في حياته، من يتركها تموت هكذا. كان في وسعي أن أرفض هذه الفكرة وأعترض عليها، ولكن ذعري حينها لم يترك لي مجالا. لقد أحببت العجوز، ولا أعلم لم ضايقتني فكرة إحضارها لبيتنا إلى حد أني كنت أبكي بلا توقف. لم أرد عليه. لم يكن في وسعي الرد. وحدي علمتُ عن مدينة إيمرنس المحرمة.

قررنا أنا والسيد برودارتش والطبيب أن ندعها تقضي تلك الليلة في بيتها. سنذهب لها في اليوم التالي بعد أن نكون انتهينا من كل مشاوراتنا، ونقوم باللازم. كانت تلك الليلة عصيبة، وساعاتها تكاد لا تنقضي وأنا أقلب الأمر في رأسي. ولكنني اقتنعت أخيرًا. لم يكن في وسعنا إنقاذها بأي طريقة آخرى. لو لم تحظ بالرعاية الطبية التي تحتاجها فإنها لا محالة ميتة. كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذها هي خيانتها. لقد كانت كمن صنع من حديد؛ ربما لم يمض الوقت على إنقاذها. ربما لو تصرفت بطريقة صحيحة، سأتمكن من إبقاء سرها. ولكن هذا سيقتضي جهدا أكثر بكثير، وشبكة من الكذبات

المحبوكة بإتقان، وطاقة عظيمة.

ذهبت إلى بيتها بمجرد أن أشرقت الشمس، وطرقت الباب. قلت لها بأن لدي طلبا صغيرًا، ولن يكلفها شيئًا. طلبت منها أن تقتطع ثانية من يومها وتخرج ليطمئن الجيران عليها. لم يكن من الحكمة أن تختفي عن الأنظار طوال تلك المدة، ولن يظن الناس سوى أن وضعها كان أسوأ مما قد يكون عليه. لم يرغب جيرانها أن يظن الناس أنهم لم يهتموا لأمرها، وهي تعلم جيدا إلى أي حد هم يحبونها. كانت خطتي هي أن أجعلها تفتح الباب قليلا، ويقفز الطبيب الذي يقف خلفي ليمسك يدها ويسحبها إلى الخارج. ويصطحبها بعد ذلك عامل الإصلاحات والسيد برودارتش وابن أخيها بمساعدتي إلى منزلي، ونضعها في غرفة أمي لترتاح.

أخبرتني بأنها كانت تنتظرني، لأمر ما، ولكنها لن تخرج أبدًا. كانت تود أن أقترب من الباب، وأنا أحمل صندوقا طويلا، ذلك أن قطها العجوز المخصي، كان قد مات وعلي أن أدفنه. لم تكن في حاجة إلى أي طبيب، وعلى الجميع أن يبقوا بعيدين عن فناء بيتها. ولو رفضوا تصديق أنها ما تزال حية فليشنقوا أنفسهم وليذهبوا إلى الجحيم. سوف يعرفون أنها حية إذا ما أعطتني شيئًا. يمكنني أن أقول أنني تخلصت من قمامة بيتها. سيكون هذا كافيا لأولئك المتطفلين، ولإسكات خوفهم. شق علي في البداية أن أفك رموز كلماتها ذلك أنها كانت تتمتم، ولكنني حين فهمت كدت أفقد صوابي. لم أكن من جامعي الصناديق، ومن أين لي أن أجد تابوتا بحجم قط؟ ما الذي يمكنني أن أفعله بجثة وأنا في انتظاري ملايين الأعمال الملحة. ولكنني قطعت لها وعدا.

أخرجت حين عدت إلى منزلي صندوقا مرميا من المخزن، وبدأ مزاجي يروق. لقد جعل القط الميت مهمتي أسهل. سيكون عليها أن تفتح الباب لتمرر لي الجثة، وسيكون في وسع الطبيب حينها أن يمسك بها. تكمن

الصعوبة في أن كل هذا سيحدث في اللحظة ذاتها. تأخر الطبيب، ولم يحضر إلا قبل لحظات بسيطة من توجهي إلى أستوديو تلفزيوني من أجل لقاء ما. طلب مني فريق العمل أن أحضر إلى الأستوديو في الرابعة عصرًا، وسيرسلون السائق ليقلني قبل الرابعة بربع ساعة فقط، وهو الوقت الذي كان في وسع الطبيب فيه الحضور. فكرت فيما سأفعله. سأناديها، وستفتح العجوز الباب، سأعطيها الصندوق لتضع فيه القط وتناولني إياه، وفي تلك اللحظة يخرجها الطبيب وابن أخيها والسيد برودارتش وعامل الإصلاحات ويأخذونها إلى شقتي، ويمكنني بعدها أن أذهب للأستوديو. كان وجهي قد امتقع من التوتر، وكنت ألتهم المهدئات كما لو كانت حلوى رغم أن خطتي بدت سهلة التنفيذ. كنتُ أشعر بالخجل من نفسي كيف لم أفكر بهذا الحل العملي من قبل.

كنت قد غيرت ملاءات سرير غرفة أمي من أجلها، وأشعلت المدفأة. كان الصحفيون الذين ما انفكوا يظهرون في ذلك اليوم، قد بدوا متفاجئين إلى حد ما بالتنظيف العظيم لغرفة لم تشعل مدفأتها طوال فصل الشتاء، وكان فايولا ينبح بلا توقف. أدرك الآن لم لم يتبادر إلى ذهني إمكانية فشل الخطة. لأول مرة أكون محط اهتمام الجميع، مأخوذة به ومقيدة. وكان كل أمر غير ذلك بالكاد أتدبر فيه. ولكن رغم هذا، ما من أحد عاقل يمكن أن يشكك في إمكانية تطبيق خطتي ونجاحها. كان الجميع يعلم كم تحبنا إيمرنس، وأننا لم نكن نستخدم غرفة أمي، وأن مجيئها سوف يجعل فايولا سعيدا، وأنها هي حتى لو كانت تحت قيد أشد شكوكها، ستكون واثقة من أنني سأفي بوعدي ولن أسمح لأي أحد بدخول مدينتها، وسأتولى أمر قططها. لم يكن هناك سوى أمر واحد أقلقني، وهو لحظة إدراكها أنني أنا الشخص الوحيد على الأرض الذي يمكن أن تفتح له بابها، لا أقف وحدي بل معي غريمها

الأبدي الطبيب.و رغم أنني أخاف من المسرح، وأتعرق من مجرد التفكير بالوقوف أمام الكاميرات، إلا أنني كنت خائفة من لحظة إخراج إيمرنس أكثر من اللقاء التلفزيوني الذي ينتظرني.

اتفقنا على أن يحضر الطبيب لفناء بيتها. وتمكنت من أن أعد وجبة الغداء. لم يكن فايولا على طبيعته، بل كان ينبح باستمرار، وصمت بعد ذلك لبقية اليوم. وعندما أخذته لأخرج به، كان يحاول العودة إلى المنزل. وعندما رن جرس البيت لم يرفع رأسه كما يدفعه فضوله دائما. ولكنه لم يكن نعسانا بل كان يراقب ما يحدث. كنت لأفهم سر تعاسته هذه لو كنت إيمرنس. لم أفهم لمَ اهتاج وكاد يفقد عقله عندما هممت بأن أخرج من الشقة دونه. حملت تابوت القط، وفسرت أمره للآخرين دون تركيز، وقلت بأنني سأضع فيه ما تحتاجه العجوز في الفترة القادمة. وصل ابن أخيها في الوقت الذي وصلت فيه سيارة الاستوديو. نزل سائق السيارة وقال لي أنه يعتذر عن إزعاجه هذا، ولكن الفريق يحتاج حضوري في الحال، ولا بد أن يتحدث المخرج معي؛ لقد أخطؤا في حساب الوقت الذي لا بد أن أذهب فيه. علي أن أذهب حالا.

أخبرته أن ليس في وسعي الذهاب الآن. كان لدي أمر يجب أن أقوم به ولا مجال لتأجيله؛ لن يستغرق كثيرًا من الوقت، يجب عليهم أن ينتظروني. وافق السائق وأخبرني بأن لدي خمس دقائق فقط قبل أن يتوجب علينا الذهاب. لقد بدت الخمس دقائق نظريا كافية بالنسبة لي. أذهب إليها، أخذ الجثة منها وأدع الآخرين يسحبونها ويأخذونها إلى منزلي. سيكون في وسعي وهم يقنعونها أن أغلق الباب خلفهم وأعطيها المفتاح لتطمئن أن لا أحد في وسعه الدخول. وسأعود من التلفاز لأجلس معها وأقنعها أننا نستطيع العيش سوية وأنني سأرعاها حتى تسترد عافيتها.

أقنع إيمرنس! كيف تخيلت أنني سأتمكن إقناعها؟ يبدو أنني فقدت عقلي

في تلك الفترة، وصدقت ما وددت تصديقه. كنت أفكر في وسط كل هذه المعمعة، في نوع الأسئلة التي قد تطرح علي في اللقاء. كانت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربع عندما حان الوقت. أشارع السائق بتباه إلى ساعته، ومد أصابع يده الأخرى مشيرًا إلى الوقت الذي أملكه. كنت قد وعدته، خمس دقائق فحسب.

كان ذلك اليوم من أواخر أيام شهر آذار. ورغم برودة الجو، إلاّ أن عطر البنفسج الذي ملأ حديقة إيمرنس كان يعبق في الهواء. كان الطبيب والسيد برودارتش وعامل الإصلاحات وابن أخيها يختبئون مستعدين للانقضاض. كنت قد حذرتهم من القيام بأي حركة، حتى أستلم الصندوق منها. وخلال هذا الوقت، كان كل أهل الحي على علم بما يجري. كان المنظر أشبه ما يكون بلوحة من لوحات بيتر بروغل والجماعات المتحلقة. عرفوا بعضهم بعضا، ووافقوا دونما تردد على الحل الذي توصلنا إليه. لاحظ عامل الإصلاحات الرائحة النتنة التي تنبعث من الباب. كانت مقلقة بالنسبة له بالأمس، ولكنها في ذلك اليوم كانت أقوى وأشد. لو لم ير استحالة حدوث أمر كهذا، لظن أن هناك جثة بالداخل. كان قد عرف هذه الرائحة جيدًا عندما كانت بودابست ترزح تحت الحصار.

طلبتُ من الجميع أن يتنحوا جانبا، لكي لا ترى إيمرنس أحدا غيري أمام الباب. وحتى المتفرجين في الشارع، ابتعدوا قليلا، رغم أنهم كانوا ليدفعوا المال، والكثير منه لمشاهدتنا ونحن ننقذ العجوز رغم رفضها القاطع. طرقت الباب بعد أن تأكدتُ من خلو فنائها من أي شخص. طلبتْ مني أن لا أدخل وأناولها الصندوق، وأنتظر عودتها. ضرب سائق التلفاز بوق سيارته، ولكنني لم أستطع فعل شيء ذلك أن باب بيتها بدأ يتحرك،وبدأت يدها تظهر شيئًا فشيئًا. لم أستطع تبين وجهها. ربما كانت تعيش في ظلام

دامس طوال تلك الفترة، أو أنها أغلقت المصابيح لتفتح الباب. لقد كانت الرائحة النتنة التي اندفعت من خلف الباب قوية، وكنت أود وضع يدي على أنفي ولكنني لم أفعل، ووقفت بأعصاب كلب ينتظر الرصاصة التي ستنهي حياته. لقد كانت الرائحة رائحة بودابست أيام الحصار فعلًا؛ امتزجت فيها رائحة التحلل ورائحة براز بشري وحيواني، رغم أنه كان من المستحيل تحليل أي شيء في تلك اللحظة العصيبة. ناولتها الصندوق. ضرب السائق بوق سيارته للمرة الثانية. أغلقت العجوز الباب خلفها، وسمعتها وهي تفتح المصابيح. أطل الطبيب من زاوية بيتها، ولكنني أشرت له بأن ينتظر. وفي اللحظة التي ضرب فيها السائق بوق سيارته للمرة الثالثة، انفتح الباب ومدت العجوز الجثة نفسها ملفوفة بمعطف رث، لا في الصندوق. لم يتسع الصندوق الصغير للقط. أمسكت بالجثة كما لو كنت أمسك برضيع قتيل.

كانت توشك على إغلاق الباب، إلا أن الطبيب كان قد وضع قدمه في المسافة الصغيرة بينه وبين الجدار، واندفع ابن أخيها من خلفه. لم أكن متيقنة ما إذا استطاعوا سحبها إلى الخارج بمساعدة عامل الإصلاحات كما اتفقنا، أو أنهم دخلوا بيتها. كنت قد هرعت إلى شقتي وأنا أحمل القط الميت. عبرت البوابة، وقطعت طريقي بين شخصيات لوحة بروغل المتراصين ليروا ما يحدث، وأنا أشعر غثيان شديد دفعني إلى رمي الجثة في صندوق القمامة. بدأ السائق يزمر دون توقف، ولكنني كنت مصممة على الذهاب إلى شقتي، ومتيقنة أنني إذا ما غسلت يدي بالماء الساخن في تلك اللحظة، فإنني لن أستطيع الإجابة على أي سؤال في اللقاء. لمَ حدث كل شيء هكذا بفوضى وتشوش؟ ستكون إيمرنس الآن في طريقها إلى بيتنا وهي تبدي اعتراضها ورفضها القاطع. لا بد وأنهم سحبوها ودفعوها إلى هناك. كان علي أن أكون معها، ولكن لم تكن باليد حيلة. كان زوجي في الشقة فقلت له بصوت قال لي

لاحقًا أنه لم يميزه مثلما لم يميز وجهي:

-هلّا فعلت شيئًا من أجلي؟ لا تنتظر حتى يأتوا بها إلى هنا. اذهب وأغلق باب بيتها، قبل أن ينظر إلى ما بداخله الجميع. أرجو أن لا تنظر أنت أيضًا. وعندما يجلبونها إلى هنا، أعطها المفتاح وأكد لها أنني سأتولى أمر كل شيء. لن يتوقف السائق عن ضرب البوق، وإلا لجلست وقلت لها هذا بنفسي.

وعدني أن يقوم بكل هذا. وخرجنا، أنا في طريقي لأستقل السيارة، وهو إلى بيت إيمرنس. لم أر العجوز ولا أي فرد من فرقتي. كل ما سمعته كان جلبة وقعقعة شديدة. ادعيت الصمم، واستقليت السيارة، وانطلقنا نسابق الزمن.

دون غطاء رأس

لا ندرك هذا الذي لا يغتفر عندما نقوم به، ولكن تداهمنا شكوك خفية حياله. أخبرت نفسي حينها أن الشعور السيئ الذي تشبث بي لم يكن سوى رهبتي من التحدث أمام الكاميرا. ولكنه كان شعورًا حقيقيا بالذنب. وجدت نفسي عندما وصلت إلى الأستوديو متأخرة جداً، رغم إلحاح السائق، وجلست أمام الكاميرات بوجه يخلو من أي مسحوق زينة. جلستُ وأعصابي متشاحنة، وبدوت محطمة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. كنت أشعر طوال وقت المقابلة أن المذيع كان يبحث عن إجابات أكثر مني، أفكار أكثر أصالة، ولكن عقلي كان في مكان آخر وأنا أجيبه، كنت أفكر في المشكلة التي في بيتي. كنت قد اتفقت مع الطبيب أن تبقى العجوز لدينا إذا ما كان مرضها ليس بذاك السوء أو غير حرج، وإن كان غير ذلك فإن الإسعاف سيأتي ليأخذها. ولكن كان سيكون كل هذا قد قرر في الوقت الذي سأعود فيه إليهم.

لقد كان هناك العديد في فريق عمل البرنامج الذي استمر إلى مالا نهاية. ولم تنتف الحاجة لوجودي بمجرد انتهاء اللقاء، بل استمروا بالتحدث معي ولم يريدوا مغادرتي. كنت أنتظر اللحظة التي يمكنني فيها المغادرة بفارغ الصبر، رغم أن تلك الساعة كانت ساعة مجدي؛ للمرة الأولى في حياتي أكون جزءا من عالم التلفاز. لو كنت أصررت عليهم، لسمحوا لي بالذهاب، ولكنها كانت فرصة استثنائية بالنسبة لي، للقاء من كنت أشاهدهم على

الشاشة كل يوم. كنت أعلم ضرورة مغادرتي، ولكنني لم أفعل. نظرت أخيرًا إلى ساعتي، لأدرك الزمن الذي مر سريعا. طلبت سيارة أجرة على الفور وقفلت عادة إلى البيت.

كان اليوم يقترب من نهايته عندما نزلت من سيارة الأجرة. وكان الشارع يغرق في صمت عجيب، وفارغ على غير العادة. أتى الصوت الوحيد الذي سمعته من شقتي. كان صوت فايولا وهو يشتكي ويعوي بمرارة. لو كانت إيمرنس موجودة هناك لما كان حزينا هكذا. أدركت دون أن يطلعني أحد على ما حدث، أن الوضع أكثر تعقيدا مما تخيلت. كان علي أن فهم هذا منذ اليوم الذي توقفت فيه إيمرنس عن العمل لدينا فجأة، وأخبرتنا أن نقوم بكل شيء بأنفسنا. ولكنني لم أكن أهتم لأحد غير نفسي في الفترة الأخيرة. نزلت من سيارة الأجرة أمام بنايتنا. كان صندوق القمامة على بعد خطوة مني. ألقيت نظرة لأرى ما إذا كانت الكومة المرعبة تلك ما تزال موجودة، وبالطبع كانت موجودة. سرت بي رعشة، ووجدت نفسي أغلق الغطاء بسرعة. لم أصعد بعد ذلك إلى شقتي، بل قررت أن أذهب إلى بيت العجوز، لأتأكد ما إذا أغلق زوجي الباب كما طلبت منه.

كان عامل الإصلاحات حينها واقفًا أمام نافذته، يغلق الدرف برقة، كما يعامل أي شيء آخر في حياته. لم أتخيل أن يفعل ما فعل حينها. انتظرته أن يلوح لي بيده، ويطلعني على ما كان قد حدث اليوم، وأنا في الأستوديو أتشدق بالتفاهات. ولكنه عوضا عن ذلك أغلق درف نافذته، لتقف الشرائح الخشبية بيني وبينه. شعرت بأنه لا يود أن يتحدث معي. تملكني الرعب وبدأت أركض في الحديقة؛ لقد عشت تجارب كهذه من قبل. كان وجه عامل الإصلاحات يضيء خلفي، بتعبير يشابه ذلك الذي نراه يستحل وجوه الممرضات حين نذهب إلى المستشفى لنزور مريضا ما، وندخل الجناح ونجد

شخصا آخر في السرير ذاته، وتطلب منا الممرضة بهدوء ونبرة باردة تخلو من أية مشاعر، أن نذهب إلى الطبيب لأن لديه ما يخبرنا به. يا إلهي الرحيم، كيف انقلبت الأمور هكذا، ولم تسر كما تخيلت؟ لا بد وأن باب بيتها مغلق كعادته، وقططها في مكانها الآمن لم تتشرد. كانت تلك أفكار اللحظة الأولى فقط -وتلاها العديد- عندما سرت رعشة بجسدي وأنا أدرك أنه مهما كانت الجائزة التي نلتها، وحتى لو كان التلفاز كله يطلب ودي لا فريق برنامج واحد وحسب، وجميع أفراد الحكومة يتمنون لي السلام والراحة وأنا أتحدث للملأ عن الإهانات التي تلقيتها خلال سنوات عملي، ما كان يجب علي أن أترك إيمرنس تواجه وحدها ما كان قد حدث. كان خيالي المثقل حينها قد توقف عند فكرة اضطراري لتنظيف بيتها في تلك الليلة، ومحاولة التخلص من الرائحة النتنة، حتى لا يشتكي أي أحد في البناية. ولكنني أدرك الآن أنه ما كان علي أن أتركها في تلك اللحظة التي خسرت فيها استقلاليتها، وفتحوا بابها عنوة حتى لو كان ذلك لدخول الطبيب وحسب، وأخذها وهي تحتج من بيتها. لم تكن هذه الفكرة قد تبادرت إلى ذهني في ذلك الوقت. أدركت بكل مرارة، أن هالة الجائزة قد بدأت تسيطر علي. خطفني بريقها لأستقل السيارة سريعا، بعيدا عن المرض والشيخوخة والوحدة والعجز.

فقدتُ القدرة على المشي بمجرد أن وطأت قدمي شرفة بيتها الأمامية. تجمدت في مكاني عاجزة عن التقدم بحذائي الأنيق. لقد توقعت أخبارًا سيئة، لكن ليس إلى ذلك الحد. لا يمكن لخيال أن يستحضر ما رأت عيني. لم يكن باب إيمرنس مفتوحا ولا مغلقا. لم يمكن هناك باب. لقد كان بابها مسنودا إلى غرفة الغسيل، وقفله كان ما يزال فيه مكانه. لقد نُزع الباب كاملا من مكانه، ولا بد أن أحدهم رمى قطعة ثقيلة عليه، ذلك أنه كان مكسورًا من الأسفل، وظل الجزء العلوي منه سليما. لقد كان شبيها بالأبواب التي في

اللوح الفلمنكية؛ الباب المقسوم من المنتصف، والجزء العلوي المطوي منه والمرأة المبتسمة التي تتكئ عليه وكأنها تقف من أجل أن ترسم على لوحة ما. تخيلتُ إيمرنس وهي تحدق من تحت غطاء رأسها، وتقيم الوضع وكيف أنني لم أكن هناك، وأن الطبيب كان يقف في مكاني، متأهبا للإمساك بها. لم يدم مشروع إعادة البيت إلى وضعه طويلا. تمكن مني الضعف حتى جلست على الكرسي الذي في الخارج، لأستجمع قواي من جديد. كنت أعلم جيدا أنه لا مفر؛ علي أن أقتحم عالم الرائحة النتنة هذا. استرحت لبضعة دقائق، شحذت همتي ووقفت. تذكرت مكان مفتاح المصابيح في تلك الليلة التي أدخلتني بها بيتها، وبحثت عنه حتى وجدته وأضأتها. لم يصدر في تلك المرة أية أصوات غامضة وصغيرة؛ كان الصمت مهيمنا. ولو كانت القطط ما تزال تختبئ، لكانت حشرت نفسها في مكان ما من الرعب.

كان الضوء الذي بدا بياضه صارخا في المرة السابقة، يحتفظ بكامل قوته. وجدت نفسي أقف بين البراز، في غرفة كانت نظيفة لا تشوبها شائبة ولا وسخ. وكانت أكوام الطعام الفاسد منثورة على الأرض، وفوق أوراق الصحف. رأيت زبديتها الشهيرة مقلوبة على الأرض، وجيوش من الديدان غزت محتوياتها. كانت هناك أيضًا نصف سمكة غير مطبوخة ومتعفنة، وبطة مقطعة حاصرتها تلك الديدان. كان الطعام الذي أحضره الناس مرميا على الأرض؛ الرب وحده يعلم متى نظفت إيمرنس بيتها آخر مرة، فحتى الصراصير كانت تحتضر. علا كل هذا الرعب الذي تكشف أمامي بودرة بيضاء سميكة. كان المشهد أشبه ما يكون بجمجمة ميت من العصور الوسطى، مخيفة وممتلئة بالدود ومغطاة بالسكر، ولكن يمكنك أن ترى تحت هذه القشرة البيضاء، الابتسامة الساخرة. لم يكن هناك أي أثر لإيمرنس، ولا لقططها. كانت كل النوافذ مفتوحة نزعت درفها وأطرها، إلا أن الرائحة

الخانقة للبودرة البيضاء المطهرة بقيت طاغية في الغرفة، وأكثر شراسة من الكلور ومعطرات الجو التي كانت تستخدمها. لم يكن في الإمكان الحصول على هذه الكمية الكبيرة من البودرة في مطبخ أحد أو في المحلات حتى. لم يكن الطبيب وحده والإسعاف من أستدعي. لقد حضر فريق إزالة التلوث أيضًا.

كانت يديّ متصلبة من الفزع والذنب، حد أني عجزت عن فتح باب بيتي. قرعت الجرس ففتح لي زوجي. لم يحدث في حياتي أن وبخني على أي شيء، ولم يفعل في ذلك اليوم أبدًا. كان كل ما فعله هو هز رأسه، عاجزًا عن قول أي كلمة تعبر عما رآه، وذهب إلى المطبخ ليعد الشاي. وكان فايولا في ذلك الوقت قد زحف باتجاهي، وانكمش بالقرب مني. كانت أسناني تصطك وأنا أحتسي الشاي. لم أسأل أي سؤال؛ كان مفتاح بيت إيمرنس أمامي على الطاولة. لم يقل أحدنا شيئًا عن اللقاء التلفزيوني. انتظر زوجي حتى انتهيت من تجرع الشاي، وطلب سيارة أجرة وذهبنا إلى المشفى دون أن ننطق حرفًا. بدأنا نتكلم عندما علمنا أن الطبيب حدد لها جناحا وكان الجميع فيه بانتظارها ولكنها لم تظهر حتى ذلك الوقت. كيف حدث هذا؟ ألم يأخذوها هم إلى هناك؟ قالت لي الممرضة أنهم سيحضرونها، ولكنهم أخذوها أولا ليطهروها؛ لم يكن من الممكن وضعها في سرير بالحالة التي وجودها بها.

لم أفهم في البدء ما كانت تقوله، وحدقت بها ببلاهة، وبدأت أفقد إحساسي بما حولي. كانت هناك مجموعة من الممرضات اللطيفات حولنا، واللاتي عرضن المساعدة، وجلب أي دواء أو كوب ساخن من القهوة أو الشاي من أجلي؛ لم أكن على ما يرام. ولكنني لم أكن أرغب في أي شيء. جلسنا أنا وزوجي وانتظرناها. كان من المستحيل حينها أن لا أسأل زوجي

عما كان قد جرى، فأخبرني بما رآه.

كان الطبيب قد تمكن من الإمساك بذراعها، في الوقت الذي وصل فيه زوجي بيتها. حاولتْ المقاومة، إلا أن الجلطة البسيطة التي أصابتها بحسب ما اكتشف الطبيب، كانت قد أثرت عليها. كانت عاجزة إلى حد كبير عن استخدام ذراعها اليسرى، وعاجزة بالكامل عن المشي على قدمها اليسرى. لا بد وأنها كانت مشلولة منذ أيام، ولكن بينتها الرائعة مكنتها رغم ذلك من سحب ذراعها منه وإغلاق الباب وقفله. رفضت أن تجيبهم على أية أسئلة. ووقف جميع من كان لديهم وقت في الحي على شرفتها الأمامية يتفرج. بقيت العجوز صامتة لبعض الوقت، متجاهلة كل نداءاتهم، ولكن حين هددها الطبيب بالاتصال بالسلطات، صرخت متوعدة بأنها ستقتل أول شخص يلمس الباب. لم يجرؤ أي أحد على استخدام القوة، بسبب الاحترام الكبير الذي أكنوه لها. حاول غريب جذبته الجلبة وبعد اكتشافه ما حدث، أن يدفع الباب بقوة. ولكن بمجرد أن بدأ القفل يتزحزح، انكسر جزء من الباب، لا من الخارج كما هو متوقع، بل من الداخل، وخرج منه فأس وطار بعيدا كما في أفلام الرعب. لم يجرؤ أحد بعد ذلك على الاقتراب من الباب، لا من الخوف وحسب بل وبسبب الرائحة النتنة التي بدأت تفوح خارجا.

كانت العجوز عاجزة عن المشي تمامًا منذ أسبوع من إصابتها بالجلطة، وطريحة على الأرض ترفع نفسها بواسطة مرفقيها. شعرتْ بطريقة ما أن عليها أن تحل المسألة دون الخروج من بيتها، وفكرت بالتأكيد أنها إذا لم تخبر أحدا بمدى عجزها وحاجتها إلى الإنقاذ، فإنه لا أحد سيكتشف الأمر ولن يأتي أي طبيب أو سيارة إسعاف، ولن يكون عليها الذهاب إلى المشفى. ومن بين هذين الخيارين الفظيعين، قررت أن تبقى في بيتها. لن تضطر إلى الزحف إلى الفناء الأمامي والخروج، لو تمكنت القطط من رعاية نفسها. سوف تعيد

كل شيء إلى حاله، عندما تتشافى وتتمكن من المشي مجددا. ولو ماتت، فإن كل هذا لا يهم. لن تعرف بعد ذلك ما قد يحدث. كانت قد أعلنت في عدة مناسبات، أنها، إلى جانب العديد من الأمور، لا تؤمن بوجود حياة آخرى بعد الموت. وفي كل ذلك الوقت، كانت الفضلات البشرية والحيوانية المتعفنة تتراكم على الأرض. وبين كل هذا كان الأكل المطبوخ وغير المطبوخ يتخمر ويعلوه العفن.

تمكنوا أخيرًا من الإمساك بها، بعد أن دخل الرجل الغريب من الجزء الأسفل المكسور من الباب، وضرب القفل بكل قوته بالفأس فانكسر. وفي محاولتها للدفاع عن نفسها، سقطت العجوز في الفناء الأمامي عند أقدامهم. لم يكن هناك مجال لإبقاء العجوز مصيبتها سرًا. فحتى الفستان الذي الرب وحده يعلم منذ متى ترتديه، كان يحمل أثار ما حدث؛ قذارة متيبسة لم تعهد على ملابسها النظيفة جداً. طلب السيد برودارتش سيارة إسعاف، وأتت السيارة في الحال. كانت إيمرنس في ذلك الحين قد فقدت وعيها بمجرد أن خرجت إلى الهواء النقي. تشاور جاري الطبيب الذي أحضرته أنا وطبيب سيارة الإسعاف، وأعطياها حقنة. لم يصطحبها الإسعاف على الفور، فحالتها حسب ما قرر الطبيبان لم تكن حرجة. يجب أن تُدخل إلى المشفى، ولكن سيبعثونها أولا إلى فريق إزالة التلوث. لم تكن المريضة وحدها من تستدعي الرعاية الفورية، بل وحتى بيتها.

حضر الفريق ووضعوا بودرة ما على كل المكان، ومن ثم رشوه بسائل. وحملوا بعد ذلك إيمرنس ليذهبوا بها إلى مركز إزالة التلوث، وذلك لأنه يجب تهيئتها قبل الذهاب بها إلى المشفى. يجب أن ينظفوها من رأسها حتى أخمص قدميها؛ لا يمكن لها أن توضع في سيارة الإسعاف وهي بهذه الحالة. وبمجرد أن بدءوا برش مبيد الحشرات حول بقايا الطعام المتعفن، قفزت

حشرات ومخلوقات متعددة من البيت، بمن فيهم بعض القطط البدينة. كانت دائرة الصحة وحدها من سيقرر ما يتوجب فعله حيال بيت إيمرنس. لا يمكن أن يترك ويبقى كما هو، من أجل قاطني البناية على الأقل. كما لم يكن بالإمكان إغلاقه بالأبواب أيضًا، ولا حاجة لفعل ذلك؛ لم يكن أحد ليجرؤ على اقتحامه وبداخله كل تلك الفضلات. قالوا بأنهم سيضعون الباب من جديد، بمجرد أن ينتهي عمل فريق التخلص من التلوث.

كان المشهد الوحيد الغائب من حياتي، هو منظر العجوز طريحة على الأرض بين كل تلك الفضلات واللحم المتعفن، وهي أخذة في التعافي من أثار الجلطة والشلل، ولكن غير قادرة على الحركة الكاملة بعد. طرح ابن أخيها الذي كان يجلس معنا أنا وزوجي بالمشفى، مسألة أقلقته. كان يخشى وجود لصوص يستطيعون احتمال ما احتملته إيمرنس. كانت دفاتر الحسابات هدفًا سهلا لهم، ويجب أن نجدها. أخبرته بأنني سوف أبقى حتى يحضرون إيمرنس، ويمكنه أن يذهب إلى بيتها ويبحث عن الدفترين التعيسين. ذهب الشاب وعثر عليهما على الفور. وجدهما في الفجوة بين الأريكة ووسائدها. قال بأن هذا المكان هو المكان الذي اعتاد والده أن يخبئ فيه كل شيء.

كان زوجي قد انغمس في قراءة كتاب يحمله كعادته. وجلست أنا أفرك أصابع يدي؛ لقد شعرت وكأن ذراعي اليسرى قد ماتت. أتت العجوز ولكننا بالكاد تعرفنا عليها، ذلك أنها لم تكن ترتد ما اعتدنا أن نراها ترتديه. بقيت صامتة وأغلقت عينيها، وتركتهم يفعلون بها ما يشاءون. كانت العضلات حول فمها ترتعش، وبالكاد تدرك ما يجري حولها. وضعوها في سرير وحقنوها بسائل عن طريق الوريد وغطوها. شعرتُ بالخجل والحزن ثقيلين على كتفي، وأردت أن أكون إلى جانبها ولكن الطبيب أمرنا أن نعود

إلى المنزل. لم يكن هناك ما يمكننا فعله، ولم تكن لتتعرف علينا وذلك بسبب الصدمة التي تعرضت لها. لم يكن واثقا من حالتها حتى تلك اللحظة، ولم يعرف كيف يطمئننا. قال بأن كتلة الدم التي شلتها توشك أن تتحلل، وأن الأشعة السينية أظهرت بأنها تشافت إلى حد كبير من داء الرئة، ولكن قلبها متعب جداً، ويستحيل معرفة ما يمكنه احتماله بعد ذلك. تردد بعض الشيء وتابع قائلا أننا لا نعلم إلى حد هي ترغب في أن يحتمل قلبها أي شيء. لم يكن من الواضح أبدًا ما إذا كان تحسن صحتها سيحل مشاكلها، ذلك أن مرضها والحالة التي أحضرت بها، قد جعلاها في موضع هوان لا حدود له. لقد صنع الطب المعجزات، ولكن في حالة إيمرنس، لم يكن بوسعه فعل أي شيء من أجلها. قال الطبيب بأنه لم يمر عليه الكثير من المرضى بقلب متعب ومنهك كقلبها.

للمرة الأولى .. للمرة الأولى منذ أن دخلت إحدانا حياة الآخرى، أراها دون غطاء رأسها. لمحت في شعرها المغسول للتو والمعطر، والذي استحال أبيضا بياض الثلج، شعر أمها الأسطوري الجميل. استطعت من النظر إلى حدود رأسها، أن أتخيل وجه أمها الذي تلاشى منذ زمن بعيد. كانت وهي أقرب للموت من الحياة، ودون أن تعلم، تشبه أمها إلى حد كبير. لو قال لي أحدهم في المرة الأولى التي قابلتها فيها، وفكرت في أي زهرة من الزهور قد تكون، أنها زهرة الكاميليا البيضاء أو زهرة الدفلى أو الياقوتية لكنت ضحكت. ولكن في تلك اللحظة ودون قطعة تغطي جبهتها المستديرة الذكية، وحين انكشف لنا سرها، كان جمالها مشعا رغم عمرها الكبير وشقائها. كانت تبدو برداء المرضى البسيط والمعقول أرستقراطية حقيقية. كانت سيدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى وهي تستلقي قبالتنا، ولامعة كالنجوم.

أدركت في تلك اللحظة أنه ما كان علي أن أهجرها وأغادر. لو كنت معهم عندما حدث ما حدث، لاستخدمت شهرتي الجديدة التي أسأت استخدامها، وأقنعت الطبيب أن يدعها تأتي لشقتنا. لن يكون هناك داع لأي فريق؛ أستطيع أنا أن أحممها وأنظفها وسيساعداني شوتو وأديلكا. كان في وسع التلفاز أن يتابع برامجه دوني. كان الأهم أن أمنع الغرباء من تخريب بيتها الذي لم يره أحد غيري. عندما وقفت في البرلمان لاستلام ميدالية الجائزة، لا بد وأن الجميع ظن بأنني رمز للنجاح. ولكنني وحدي من علم أنني فشلت من الاختبار الأول. في ذلك الوقت وفي تلك المرحلة الأخيرة على الأقل، توجب علي أن أفعل كل ما بوسعي لإصلاح الأمور، وإلا فقدتها للأبد. كان علي أن أفعل المستحيل، وأن أتغير، وأقنعها أن ما حدث في ظهيرة ذلك اليوم لم يكن سواء حلم.

حفل التكريم

هاتفت المشفى مرتين في تلك الليلة؛ لم تتغير حالة إيمرنس الصحية، ولم تتطور. قطعتُ بعض شرائح اللحم، ووضعتها على طبق وخرجت إلى ذلك البيت الفظيع. أخبرني جاري الطبيب أن الحيوانات كانت قد فرت وانتشرت في الخارج، ولكن ربما تعود، ذلك أنها لا تعرف بيتا غير ذلك البيت. كان المساء قد حل، وعم الصمت الأرجاء، ولو كانوا فزعين لعادوا فعلًا. بحثت عنهم تحت كل قطع الأثاث وخلفها، والرائحة تكاد تقتلني لكنني لم أجد لهم أثرًا ولا صوتًا. وعندما ذهبت مرة آخرى بحلول فجر اليوم الثاني، وجدت اللحم لم يمس، ولم يعد أي قط رغم صلواتي. ولكن كان من الأفضل لهم أن يفروا من ذلك البيت؛ لم أكن أفكر بعملية أو واقعية، ولا حتى بما سيكون في صالحي. صليت من أجل أن يعود واحد منها على الاقل أو اثنين، حتى إذا ما انتهيت من تنظيف البيت وإعادته إلى حاله السابق، تعود إيمرنس إذا ما خرجت من المستشفى لتجد بعضا مما تحب معها. ولكنني فشلت في العثور عليهم، مثلما فشل فريق إزالة التلوث. فشلت في العثور على أي منها، سواء كان حيا أو ميتا. ربما شعروا والباب يقلع أن العالم ينفجر من حولهم؛ ليفروا ويرتموا لأحضان المجهول والخطر والموت الذي كانت إيمرنس قد أنقذتهم منها. لم ير بعد ذلك اليوم أي قط يتسكع حول بيتها، وكأنهم كانوا يتلقون إشارة سرية تحذرهم منه. حتى فايولا الذي كان يعرف الطريق أكثر من أي أحد، رفض الاقتراب من حطام منزلها. كما لم يهتم لأمر البيت، حتى بعد أن

رمم وجدد بعد موتها، وسكنه أناس آخرون. لم يلق له بالا رغم المصباح المضاء الذي عهده، وأزهار البنفسج التي كانت تزهر كل صيف. كان يبحث عنها في كل الأماكن التي مشيا فيها، ولكنه لم يبحث عنها قط في بيتها. لقد عرف الأرض التي خيضت عليها المعركة وخُسرت، رغم أنه لم يشهد أيًا مما حدث حينها. عم الشارع صباح اليوم الأول، هدوء مخيف مثل الذي يعم البلاد ورئيس دولتها على فراش الموت، وشعبه القلق يبكيه ترقبا؛ لم يكن هدوءا مدفوعا بأوامر عليا بل خالصا من قلوبهم. كان فايولا طريح على فراشه، وكأن أحدهم قد قطع عنقه؛ لم يصدر منه أي صوت. وعندما اصطحبته، لم يرفع رأسه قط، ولا حتى لينظر إلى الكلاب الآخرين.

***

التقطت وأنا في ريعان شبابي العديد من الصور، بكاميرا بدائية ودون موهبة تذكر. وبدا اليوم الذي منحت فيه الجائزة، وأنا أفكر فيه الآن نسخة من صورة التقطتها قديما، وظهر فيها الشخص وكأنه يتحرك في اتجاهات متعاكسة في الوقت ذاته، بسبب وهم بصري ما. كنت قد صورت أمي، وبعد أن استلمت الصور من محل تحميض الأفلام، لم أصدق ما رأيت. بدت أمي التي أردت أن أخلدها، تذهب وتأتي في نفس الوقت، وظهر جسدها وكأنه يكبر ويصغر في سلسلة حركات متعاكسة. كانت عائلتي تري هذه الصورة للشبح الذي يتصرف بطريقة متناقضة في الوقت نفسه، لجميع من يأتي إلينا. لا بد وأنني ظهرت بهذه الطريقة يوم تكريمي. فخلال تلك الساعات، كان لكل فكرة وفعل أقوم به صورته العكسية في داخلي وحولي ومن خلفي، وكأنني كنت داخل مرآة.

كان يومًا حافلا بدأ منذ الفجر حين ذهبت لأتفحص صحن اللحم

في بيتها، وأبحث عن القطط المشردة. ذهبت مسرعة من بيت إيمرنس إلى المشفى. لم أكن وحدي؛ وجدت شوتو قد سبقتي وأديلكا أيضًا. واجهنا ثلاثتنا إيمرنس مستيقظة، وصامتة ومؤكدة بها لا يدع مجالا للشك أنها ترفض بذلك أي مهادنة أو استرضاء، وغير مستعدة أصلا لأن تغفر. ظلت شوتو تخرج القهوة الساخنة، وتسأل العجوز ما إذا كانت تريد بعضا منها، ولكنها كانت ترفضها وترفض أي مشروب بارد أيضًا. وإضافة إلى الطعام الذي أحضرته معها، كانت أديلكا تحمل في حقيبتها هديتين بعثت كعربوني صداقة. كانت الهدية الأولى حساء دجاج أعدته زوجة عامل الإصلاحات من أجلها، والثانية حلوى الجزيرة العائمة في سلطانية من زوجة السيد برودارتش. ولكن إيمرنس لم تنظر إلى كل هذا؛ لم تكن مهتمة أبدًا لا بالهدايا نفسها، ولا بالرسائل التي حملتها. أخبرتنا الممرضة بعد وقت أن الزوار أزعجوها طوال اليوم بحضورهم. كان ذلك اليوم بداية عطلة نهاية أسبوع وطنية، وأراد الناس أن ينتهوا من أمر الزيارة سريعا. كانت كل تلك الزيارات عديمة الفائدة، بغض النظر عن من يكون الذي حضر من أجلها. شعر الجيران بالإهانة، عندما لم تنظر العجوز إليهم.

لم أحضر معي أي شيء، وبقيت أحدق في ساعتي من وقت لآخر، لأحدد إلى متى ينبغي لي أن أبقى معها. لم أزعجها بأي حديث، ولكنني كنت من حين لآخر أمسح على جسدها من تحت الغطاء بيدي. وفي كل مرة ألمسها فيها، كانت تبعد جسدها عني. لم يصدر منها غير هذا، لتثبت أنها مدركة لوجودي معها. وبعد مرور بعض الوقت، كاد طبيب مستاء أن يصرخ في وجه شوتو وأديلكا، قائلا بأن الوقت مبكر على معرفة ما إذا كانت ستنجو من براثن الموت أم لا، ولكن إن نجت فإنه كان واضح أنها لم ترد لأحد أن يشهد تلك المرحلة. لقد كان إطعامها، ومضايقتها بالكثير من الأطباق

مضيعة للوقت. كانت تتجاهلها كلها وترفض أن تأكل. كانت تعطى كل ما تحتاج لتحافظ على صحتها عن طريق الوريد. وتابع قائلا بأنه لو كان الناس يريدون مساعدتها فعلًا، فإن عليهم أن يدعوها وشأنها. وقد كان محقًا. كانت تعامل الجميع بغض النظر عن م يكون كما تعاملني تماما، وذلك بإغلاق جفنيها حتى لا ترى من أمامها. أخذت معي من المشفى وأنا عائدة إلى البيت لأرتدي فستاني الأسود استعدادا للحفل، وأجد حلا لملامحي المتعبة، صورة وجهها الذي بدا كقناع للموت بعينيها المغلقتين تلك.

تضمن الظرف الكبير الذي حمل إشعار الجائزة بعض الأشياء الهامة، مثل الورقة اللاصقة التي تسمح بدخول سيارة الأجرة إلى المدخل الرئيسي المفروش بالسجاد. وكم كان هذا رائعًا؛ لم يكن في وسعي المشي أبدًا. لم أقل أي كلمة ونحن في طريقنا إلى الحفل، ونطقت بالقليل ونحن هناك. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أمنح فيها جائزة بطريقة أو وسط ظروف صعبة، كما أثبتت الصور التي التقطت لي. كانوا قد قادونا قبل مراسم توزيع الجوائز إلى غرفة كبيرة تعج بالمصورين للاحتفال بهذا اليوم العظيم. وحتى في خضم توتري الشديد، شعرت كما كان الموقف كله مدعاة للضحك ومأساويا في الوقت ذاته. سوف تخلد الصورة التي التقطت لي ووضعت في الألبوم الرسمي، لحظة خيالية؛ الخوف العالق في وجه بطلة أسطورية عريقة، كانت قد نظرت إلى عيني ابنة إلهة البحر ميدوسا وانقلبت بسبب اللعنة حجرا. لقد أتيت إلى الحفل من فراش الموت. لم أحتج إلى طبيب ليخبرني أن إيمرنس لن تتعافى، وأنني مسؤولة عن ذلك بشكل أو بآخر. كنت أفكر: لن تعود كما كانت أبدًا، وأنا أقول لمن حولي في الحفل شكرًا وبالطبع وبكل تأكيد. لم يكن ذلك لأن بنيتها الرائعة لن تستطيع التغلب على هذه العقبة، برعاية الطبيب وبأخذها الأدوية. كان الأمر يتعدى حدود قدرة الطب، وأدويته. لم تعد

إيمرنس ترغب بالعيش، ذلك أن هيكل حياتها والأسطورة التي ارتبطت باسمها قد دمرت. لقد كانت مثالا يحتذى به، ولم تتأخر قط في تقديم المساعدة لأي أحد. فمن جيب رداء عملها المنشى، كانت تخرج مكعبات السكر المغلفة، ومحارم الكتان. كانت ملكة الثلج. كانت تعبر عن الثقة، عن ثمرات الكرز الأولى نضوجا في الصيف، وعن صوت تساقط الكستناء في الخريف، واليقطين الذهبي المشوي في الشتاء، وأول البراعم على سياج حديقتها في الربيع. كانت إيمرنس نقية غير قابلة للفساد؛ الشخصية الأفضل التي لطالما طمحنا أن نكون مثلها. برأسها المغطى دائما، ووجهها الهادئ كبحيرة، لم تطلب من أحد أي شيء، ولم تعتمد على أحد. لقد ساندت الآخرين، ولم تزعجهم بما يثقل كاهلها، وعندما احتاجت أخيرًا إلى مساعدتي، هرعت إلى التلفاز لألعب دوري في برنامج ما، وخلفتها في بؤس مرضها المميت، للغير ليشهدوا لحظة التدهور الوحيدة في حياتها.

كيف لي أن أصفها حق الوصف، أو أن أشف حدود تعاطفها كاملة. كيف لي أن أعبر عن المرأة التي رحبت بالقطط في بيتها. لقد كانت طيبة بعفوية، وكريمة بطبعها، وقادرة على إظهار يتمها ليتيم مثلها، ولكن رافضة تمامًا منح صوت لوحدتها التامة. كانت كشبح السفينة الأسطورية الهولندي الطائر، وهي توجه دفة سفينتها الغامضة وحدها، إلى عرض البحار المجهولة، مدفوعة برياح علاقاتها المتغيرة منذ الأزل. كنت مؤمنة دائما أنه كلما كان الأمر بسيطا، كانت مساحة الفهم الخاطئ له ضيقة جداً؛ وإيمرنس الآن لن يكون لديها الفرصة لتجعل أي أحد يفهمها أو يفهم قططها. بغض النظر عن كل ما قد تقوله، فإن تلك الرائحة النتنة التي انبعثت من بيتها، والفضلات التي فيه، قد دمرت مصداقيتها. لقد شهدت جثتا الدجاجة والبطة، والسمكة الفاسدة والخضار المسلوق بها لم يكن يومًا صحيحا؛

شهدت بجنونها لا بأن جسدها استسلم وترك إرادته الحديدية وحيدة. كيف كان يمكن لها بعد الجلطة أن تنظف البيت وترتبه، وترمي بقايا الطعام؟ لقد كان زحفها في بداية مرضها إلى الفناء لأخذ الطعام الذي تركه الجيران بحد ذاته معجزة طبية. وأما الانسداد البسيط الذي بدأ جسدها يتغلب عليه، فقد جعل حياتها مستحيلة في عين مجتمعها كله، ومحى كل عملها الذي قامت به طوال حياتها، وذلك بانتزاع المكنسة الكبيرة من يدها.

امتلأت صالة تقديم الجائزة بأفراد من عائلتي وأناس أعرفهم منذ زمن وغيرهم، حد أنني لم أجد كرسيا لأقعد عليه، ولكنني سعدت بذلك لأنه يعني إمكانية مغادرتي السريعة للحفل. انتظرتهم لينادوا اسمي، وأستلم الجائزة، وأذهب إلى صالة الطعام وأدعي أنني أكل. ولكنني فضلت المغادرة على الفور. وشعرت بأنه إذا ما أدركت شوتو أو أديلكا أو غيرهن ما يتوجب القيام به، وقامت به قبلي فإنني سأنهار أيضًا لا إيمرنس وحدها. لن يكون في وسعي النظر إلى وجهها ما حييت، إذا لم أقم بالأمر بنفسي. ولكن الحفل استمر إلى ما لا نهاية. لقد كان أعظم حدث رسمي في حياتي، ولم يضاهه عظمة سوى الحفل الذي تلاه ذلك في المساء الذي انتهى بشكل ذكرني بحلم من أحلام طفولتي. لطالما أردت أن أصعد درجا طويلا وفسيحا، وأنا أرتدي فستانا بذيل طويل ويتأملني الجميع ويؤخذون بقوامي الممشوق، وجاذبيتي الساحرة. لو كان في وسع الإنسان أن يمشي بشكل سيء كما يغني خارج اللحن، فإنني في ذلك الحفل مشيت بشكل سيئ جداً.

صعدت الدرج بظهر منحنٍ وبؤس شديد، وصافحت يد كل من اضطررت إلى مصافحته في طريقي، ومن ثم خرجت من المبنى من درج جانبي، متيقنة من أنهم إذا ما سمحوا لي بدخول المستشفى في ذلك الوقت فإنهم لن يعلقوا على فستاني. ولن تنظر إلي إيمرنس، حتى لو اقتربت منها

عارية مثلها ولدتني أمي، أو بفستان ملكي مستعار.

إلى جانب المرارة البائسة والمستمرة، فإن الأمر الوحيد الذي أتذكره عندما أفكر في يوم الجائزة ذاك، هو التعب الذي شعرت به طوال ذلك الوقت. انتهى دوري في الساعة الواحدة. خلعت فستاني بمجرد عودتي، وارتديت ملابس العمل، وذهبت إلى بيت إيمرنس أحمل أدوات التنظيف. لم أكن لأتركها هكذا بين يدي الخزي، ولن تكون هناك أي حاجة لرجال فريق إزالة التلوث. ففي الوقت الذي سيأتون فيه إلى البيت، سيجدونني نظفت كل شيء. لقد كان ذلك اليوم سبت إحدى العطل الرسمية في البلاد، وكنت واثقة من أنني سأنهي العمل بنفسي، ذلك أن رجال الفريق في إجازة لا محالة. لن يجدوا حين يعودوا سوى النظافة والترتيب. ولكن سقط الدلو من يدي حال وصولي فناءها الأمامي، وذلك لأنني وجدت رجال الفريق وهم في فترة راحة، يستمتعون بسجائرهم. كان جاري الطبيب قد غفل عن إخباري عن أمر مهم، وهو أن دائرة الصحة قد أمرت بتطهير فوري، وتدمير لكل الأثاث مع دفع التعويض للمالك، وذلك لمصلحة الصحة العامة. وقفت أمامهم مصدومة. لا بد وأني بدوت كمهرج سرك حزين بكامل زينته والألوان على وجهه، ذلك أنني خلعت فستاني ولكنني لم أزل مساحيق التجميل عن وجهي، وشعري المموج مرفوع كما كان للحفل. بغض النظر عن كل هذا، من كان ليوافق على ما سيفعلونه، أو حتى يفكر فيه؟ هل ظنوا بأنهم يستطيعون دك بيت شخص هكذا؟

رد علي مسؤولهم قائلا بأنهم لن يفعلوا شيئًا كهذا. سينظفون كل شيء أولا بطريقة منظمة، ويتخلصون من الوسخ ويفركون الأرض وقطع الأثاث والجدران، من ثم سيحرقون ما ظل قذرًا بعد كل هذا وملوثا. قال لي:

-ضعي الدلو لو سمحتِ، ولا تحاولي المساعدة رجاء. لا مكان بيننا

للمبادرات الفردية، فهذا عمل أناس محترفين، وعمل السلطات. ولكن يمكنكِ كممثل لصاحب البيت، أن تشهدي أننا قمنا بعملنا وفقا للقوانين والأنظمة. ليس مسموحا أن يقف على العمل أحد غير المريضة نفسها، ولكنهم أخبروني أنها ليست في كامل قواها العقلية الآن. هلّا تعاونتِ معنا يا سيدتي وقمتِ بدور الممثل القانوني مؤقتا والتأكد من أن الجرد الذي قمنا به صحيح، ذلك لأن المالك سوف يعوض بشكل كامل من مجلس المدينة على أي شيء نتخلص منه. لا نفع من رفع الشكوى. أرجوكِ لا تتجادلي معنا؛ إنه أمر رسمي.

أدرت ظهري وعدت مسرعة إلى البيت، وتوجهت إلى الهاتف. لقد أخبرني أحدهم أنه صار في وسعي مهاتفة حضرة المقدم، الذي عاد إلى العمل بعد إجازته. ولكنه لم يكن في مركز الشرطة، بل في طريقه إلى بيت العجوز. وصلنا أنا وهو إلى البيت في الوقت ذاته تقريبا، وكان أفراد فريق إزالة التلوث الستة قد بدؤوا العمل، مرتدين قفازات مطاطية ومآزر وكمامات. أزالوا النفايات الآسنة، وألقوا بها في ناقلة نفايات تنبعث منها رائحة الكلور، وغسلوا كل شيء بدقة وعناية بمحلول كيميائي، وفركوا جميع قطع الأثاث ووضعوها في الخارج على فناء إيمرنس الحبيب، الذي تركوا عليه المقعدين المغطيين بالنفايات وأريكة الحب الملوثة وخزانة الملابس. وضعوا كل شيء تمكنوا من تنظيفه من القاذورات، أو لم يمسه شيء منذ البداية في مكان أبعد قليلا. وهناك، قبالة أزهار البنفسج خاصتها، رأيت تمثال عرض الأزياء الخاص بأمي، وقد علقت عليه الصور، وبدا وكأنه من رؤيا. كانت هناك أوراق وكتب تنبعث منها رائحة كريهة وقطع من الملابس التي وقعت في الفضلات مكومة على أريكة الحب تلك، إضافة إلى تقاويم قديمة وصحف وصناديق ونسخ من أعمالي أصرت أن تأخذ نسختها منها، رغم أنها لم تفتحها

يومًا. وبعد أن وضعوا كل شيء في الخارج، وعزلوا بعض القطع عن مجموعة قُرر وكُتب في السجلات أنه سيُتخلص منها، رشوا الأريكة والمقعدين بالبنزين، وأشعلوا فيها النار. كان من فكرت فيه وأنا أشاهد النار تشتعل هو فايولا. على هذه الأريكة كبر فايولا. وعلى هذه الأريكة التي اتخذتها العجوز سريرًا، استراحت دائما. وعلى هذه الأريكة جلست القطط التي كانت أبدية يومًا مثل عصافير تقف على سلك كهرباء. وفي الحريق، تلاشت إلى عدم أحذية إيمرنس وجواربها وأغطية رأسها.

في تلك اللحظات، وللمرة الأولى، تولى حضرة المقدم دور المحقق والشرطي. فقبل الموافقة على تدمير أي قطعة، كان يفحصها جيدا، ويدفعها إلى الجانب لو كان في الإمكان إنقاذها من النار، بل وفرغ الأدراج بنفسه. كان ما تبقى في المطبخ حينها قطعة واحدة فقط، كانوا قد طهروها ونظفوها، وفركوا الجدران. وأما الأثاث القديم المتبقي في الفناء فقد بدا خجلا من نفسه، والنار تلتهم الأريكة والقطع الآخرى. كان المارون بالبيت، وبعد أن انتبهوا لدخان النار ينظرون إلى ما يحدث في الفناء حتى يطردون بعيدا.

لم يبق في المطبخ في ذلك الوقت سوى الخزانة الحديدية التي سدت مدخل الغرفة الآخرى الأصغر. ووضحت صحيفة معدنية أن هذه الخزانة قد صنعت في مصنع الفولاذ القديم لإيمري غروسمان. لقد كان باب الخزانة قد فتح عنوة مرة من قبل، وذلك في فترة حكم حزب الصليب السهم، ولكنه هذه المرة لم يحتو على شيء سوى أكواب خزفية أزيلت منه. لو كانت إيمرنس تملك أي مجوهرات أو مال فقد ابتلعتها النار لا محالة. لم نعثر على أي شيء في الأدراج، ولم نبحث أنا وحضرة المقدم تحت وسائد الأريكة التي بحث فيها ابن أخيها من قبل. وباقتراب حلول وقت الغداء، أخبرنا الرجال بأنهم انتهوا من تطهير كل شيء، وسيبدؤون بالعمل في الغرفة الداخلية. ولكن في

تلك اللحظة تولى حضرة المقدم القيادة، ولم يعترض الرجال عندما قال لهم بأن محتويات الغرفة الصغيرة لا تشكل خطرا على صاحبة البيت أو الجيران، ذلك أن الخزنة منعتها والحيوانات والحشرات من الدخول إلى الغرفة وسدت الطريق إليها. وإلى جانب ذلك، فإن بداية إجازة عطلة الأسبوع الطويلة جعلت الفريق يركز على العمل الجيد الذي قام به، ويرى عدم جدوى القيام بالمزيد، ناهيك عن مركز حضرة المقدم في الشرطة المحلية، ومعرفته الشخصية بصاحبة المنزل، وهو يدرك ما يقول عندما يأمرهم بترك الغرفة الصغرى كما هي. لقد رموا للنار معظم حاجيات مطبخها وأغراضها الشخصية، وهذا بحد ذاته يفوق ما يقوى قلب العجوز على احتماله. وأخبرهم المقدم أيضًا بأنه سيتولى أمر كل ما تبقى، وإن كانت هناك حاجة للقيام بالمزيد من التطهير والتنظيف، فإنه سيتواصل مع الفريق. ولو لم يهاتفهم، فهذا يعني أن كل شيء سار على ما يرام وفي حالة جيدة. ووقع معي على توليه مسؤولية الأمر نيابة عن مركز الشرطة.

كان الجميع راضًيا بهذا الاتفاق، وأعلن رئيس الفريق بأنه لم يعد يرى أي مصدر خطر آخر، وأن اقتراحات حضرة المقدم وجيهة. ولكن بقيت مهمة أخيرة عليهم تنفيذها، وهي إزاحة الخزنة ورؤية حالة الغرفة الصغيرة، حتى يتسنى لهم التوقيع على السجل وعدم تجاهلهم أي شيء بضمير مرتاح. لم يكن هناك أي مفتاح لباب الغرفة تلك، وكان الرجال مترددين في كسر الباب. لقد أظهرت حالة خشب الباب والطلاء الأبيض الذي لم يتغير أن إيمرنس لم تزح الخزنة، وتدخل الغرفة منذ زيارة حضرة المقدم سابقا عندما كان ما يزال ملازما ثانيا. وبهذا الباب المقفل أصبح بإمكانهم أن يذهبوا؛ لا يمكن أن يكون داخل تلك الغرفة طعام أو حشرات. كما لم يدخلها أحد منذ عقود. وبذلك ذهبوا سريعا وبدأت إجازتهم.

وصل في ذلك الوقت ابن أخيها وهو عائد من المشفى، وظل يحدق في النار فزعا. أخبرنا بأن حالة العجوز لم تتغير. كان ما أقلقنا حينها لا قلبها المتعب بل سلبيتها. حيث لم تكن تتعاون مع الأطباء، وبينت بها لا يدع مجالا للشك أنها لا تكترث لما يحدث لها. كانت رسالتي من البرلمان قد وصلتها، وفهمتْ ما قيل لها ولكنها لم تبد أي تفاعل أو تعليق، وهذا ما أثار قلق طبيبها. لم تكن تكترث.

رسالتي من البرلمان! رحت أفكر في فحوى هذه الرسالة. وشق علي أن التركيز، وأنا أقف على فناء بيت خرب تنبعث منه رائحة المطهرات، ويحترق على بعد خطوات مني عليه ماضي إيمرنس. لقد رمى الرجال في تلك النار وسائد وملاعق خشبية وأدوات عتيقة وبسيطة لتنظيف وتدبير المنازل، وأغراض لا شك حملت ذكريات لا تعد ولا تحصى. وأدركت فجأة أنني لست متيقنة ما إذا كنت قد حملت صندوق الجائزة إلى بيتي أو لا. لقد كنت ذاهلة طيلة حفل التكريم. أتذكر الآن وبعد الوقوف أمام الكاميرات، لحظة سريالية آخرى. كانوا قد وضعوني في غرفة برفقة زميل لي، ومذيع كان يستجوبني حول كل شيء؛ حول أفكاري ومن أشكر لمساعدتي على الوصول إلى ما وصلت إليه. أتذكر أنني ذكرت اسم إيمرنس مثالا لشخص تولى أمر كل ما قد يشغلني عن الكتابة، فخلف كل إنجاز، هناك جندي مجهول من دونه لن يكون هناك أي عمل مهم في حياتك. سمعت الممرضات في المشفى التقرير وفق ما ذكر ابن أخيها، وهرعت واحدة منهن إلى العجوز لتخبرها أنهم يتحدثون عنها، ووضعت المذياع بالقرب من إذنها لتستمع للجزء الأخير. ولكن إيمرنس أظهرت لا مبالاة تامة، ولم تنطق حرفًا. ربما كان السر خلف صمتها، الأدوية المختلفة التي كانت تأخذها بأمر من الطبيب. ولكنني أدرك أكثر مما يدرك ابن أخيها. لقد فهمت إيمرنس كل حرف،

ولكنها لم تكن تهتم لأي من هذا. لقد كانت تبغض الشهرة الإعلامية، والكلمات المنمقة طيلة حياتها. كان يتوجب علي أن أكون معها في محنتها، وفي الجلجثة التي كادت تصلب على أرضها، ولكنني لم أكن معها، وكان عليها أن تقف وحدها في وجه كل هذا الذي فعل بها واحتماله. لذا لم تعد تهمها الآن ثرثرتي وكلماتي الرخيصة. كانت تعتقد بأنني سأقضي وقتي وأنا مستلقية في نعشي في النظر إلى عدد الذين حضروا مراسم دفني. كانت تعرفني أكثر من أي شخص آخر، وتدرك أنه لا أمر أسوأ بالنسبة لي من عجزي عن إيجاد الكلمات المناسبة.

وبدأ ابن أخيها إجازته وهرع إلى عائلته. ولكنه قبل أن يفعل، تحسر وتعاطف بشكل ساذج معي على الخراب الذي حل بالمطبخ وما بقي لي لأرثه. وأضاف بأن ما أحرقوه كان خسارة حقيقية. لم أفكر في هذا الأمر، وانفجرت ضاحكة رغم الكآبة التي استحلتني. هاهو نصف إرثي يذهب أمام عيني! يا لحظي! جلست أنا وحضرة المقدم بعد ذلك على كرسي الحديقة لبعض الوقت، لتأتي زوجة عامل الإصلاحات التي لطالما كانت طيبة القلب وتراعي الآخرين وهي تحمل القهوة. ولكننا لم نشربها. بقينا نحركها ونحدق في المدى أمامنا. سألني حضرة المقدم أخيرًا:

-كيف حدث كل هذا؟

-إنني السبب، حدث كل هذا بسبب خذلاني لها.

تنفست الصعداء وأنا أخبره بتفاصيل كل ما حدث، وهو بعيد يتجول في غابات فيشيغراد. لو كان في وسعي أن أهاتفه حينها، لما حصل الكثير مما حصل، لا بهذه الطريقة على الأقل. وحتى لو تركتُ إيمرنس وحدها تواجه محنتها، كان ليأتي ويقضي معها الساعة الحاسمة من حياتها تلك، الساعة الوحيدة التي احتاجت فيها مساعدتنا. بقي المقدم صامتا ولم يعلق. كان يقف

محايدا؛ لم يعزيني ولم يلمني على ما حدث، بل سألني ما أنوي فعله. لا شيء .. كل ما سأفعله هو إحضار العجوز لتعيش معنا إذا ما نجت، وننسى أمر رحلتنا إلى الخارج. كان علينا السفر أنا وزوجي بعد ذلك اليوم بثلاثة أيام إلى أثينا كأعضاء من بعثة هنغارية لمؤتمر سلام دولي نظمه اتحاد الكتاب اليوناني. وقررنا أنا وهو أن نمضي بعض الأيام بالقرب من البحر. كانت تلك الرحلة لتكون رحلة استجمام رائعة، ولكن ما حدث ألغى كل شيء. لن أخذها أبدًا حتى لو كلف الأمر عدم الذهاب إلى أثينا مطلقا.

غضب حضرة المقدم فجأة، ورفع صوته. لقد قمت بما يكفي من الأخطاء؛ هل أنوي التسبب بالمزيد من المشاكل؟ لن يرضى المسئولون الأجنبيون عن تخلف وفد ما عن الحضور. سوف يفكرون بكل الأسباب الممكنة، بما فيها حظرنا من السفر من قبل السلطات. قال بأنه لا يحق لي الزج باسم البلاد في أموري الخاصة، وطلب مني الذهاب. لم تكن هناك فائدة من بقائي. لن يكون في وسعي فعل شيء في اليوم الثاني، إذا ما ماتت العجوز. وإذا ما عاشت، كما يعتقد الطبيب، فإنها تستطيع انتظاري حتى أعود. أسبوع واحد سيمر بسرعة. سوف يتولى هو خلال هذه الفترة كل الأمور. سوف يبدل الباب، ويستلم التعويض من المجلس البلدي. وقال بأنه لن تُرفع أي شكوى ضد إيمرنس، فلا يعد عجز حركة جسد أحدهم عن الحركة وعجز يده عن رفع الأشياء جريمة بل أمرًا مؤسفًا. لم تهدد العجوز سلامة الناس للمتعة. وأضاف بأنه سيحضر لها أثاثا أجمل وأريح من أثاثها القديم. سوف يذهب إلى مستودعات الحكومة التي يخزن فيها أثاث بيوت أناس ماتوا دون أن يكتبوا وصيتهم. ووعد بأنه سيظل إلى جانبها يخدمها، وعلينا أنا وزوجي أن نمضي قدما ونلتزم بواجبنا المهني وما يتوقعه الوطن منا. سيكون جسد إيمرنس قد اتخذ قراره وقت عودتنا. سوف تقف على قدميها حينها لو كان في

وسع صحتها التحسن، ولو لم يحدث هذا فإنهم سوف يؤخرون الدفن حتى نعود. وسيكون لدينا الوقت لنفتح الغرفة الصغيرة حين عودتي. وأخبرني بأنه سيضع بابا جديدا لبيتها في يوم الإجازة ذاك. وحين تنتهي إجازة نهاية الأسبوع الطويلة، سيرسل أحدهم ليزيل قفل باب الغرفة الصغيرة، ويركب بابا جديدا. وسنحدد عندما ندخلها سوية، ما إذا كانت تستدعي حضور فريق إزالة التلوث. ولكنه لم يظن بأن الغرفة ستحتاج لتدخل كهذا؛ لم تستخدم العجوز هذه الغرفة قط.

نزعت الفستان الذي كنت أشعر به يحترق عن جسدي بمجرد أن وطأت قدمي المنزل. لم أكن قد تناولت وجبة الغداء، وأردت أن أطعم فايولا، ولكن زوجي كان قد حاول وفشل في ذلك. كان الكلب قد بدأ إضرابه عن الطعام. وعندما خرجنا به، كان يجر نفسه إلى جانبنا، ورغب في العودة إلى المنزل سريعا بعد أن انتهى من ترك أثره على أشجار الطريق. لم ينبح مرة، ولم يرغب في الشرب. لقد كانت الأزمة في قمتها، ولم يكن في وسعنا فعل أي شيء. لقد كان هذا رده على كل ما قد وقع. ولم يكن في وسعي الأكل أيضًا. كانوا قد ملؤوا صحني في البرلمان، ولكنني هناك أيضًا عجزت عن بلع لقمة واحدة، وبقيت أقدم أجوبة لا معنى لها لأسئلة لم أفهمها. جلست لثوان في شرفة شقتي، ومن ثم قفزت من مكاني متيقنة من أنني إذا لم أكن هناك في المشفى بالقرب من إيمرنس، فإنها ستموت. أنا وحدي التي في وسعي أن أحميها من الرعب الذي أحاط بنا كلتينا.

خرجتُ إلى المستشفى سريعا، لأجدها وقد استعادت وعيها كاملا، وكان الطبيب مبتسما. أخبرني بأنها أصبحت أكثر قوة، وبدأتْ تتكلم. طلبتْ من الممرضة أن تضع عليها غطاء، لتبدو محتشمة، فهي تكره العري. وطلبت لاحقًا غطاء رأس فأعطوها غطاء الجراحين. كان مظهرها مختلفًا، ولكنها

ارتاحت بوضعه. ظن الطبيب بأنها توشك أن تخرج من الحفرة التي وقعت فيها. وطلب منا أن نحضر لها ملابس نوم وغيرها من الضروريات، ذلك أنهم أحضروها إلى المشفى دون أي شيء معها.

لم أجرؤ على النظر إليها والطبيب يتحدث إلي، لا بسبب ما حدث بل بسبب ما كانت عليه حينها. لقد بدا شكلها لا يصدق وهي تضع غطاء الجراحين، لا لأنه لم يناسبها، بل لأنه ناسبها تماما. رأيتها أستاذة عظيمة تظهر أخيرًا مواهبها الحقيقية غير المستغلة. بقيت أستمع لما يقول صامتة. ما الذي كان في وسعي أن أقوله؟ لا شأن للطبيب في حقيقة عدم امتلاكها أي مناشف أو ألبسة نوم أو أي من الأغراض التي أبقت في خزانتها، أو أن ما تبقى لها ملقى على حديقتها، مبتل بالمطهرات وتنبعث منه رائحة قوية. سوف تشك في الأمر لو أحضرت لها ما تعده عادة غير محتشم من خزانتي. سوف تميز مناشفي، فأغراضي لم تكن مصنوعة من الكتان كأغراضها. كان علي أن أجد حلا.

منذ اللحظة التي رأتني فيها أدخل الغرفة، غطت وجهها بمنشفة صغيرة مثل الملوك القدامى الذين أخفوا صراعهم مع الموت عن أعين البلاط اتباعا للتقاليد الملكية. ولكنها لم تكن قريبة من الموت، بل بدت أكثر حيوية من الصباح. كل ما في الأمر هو أنها لم ترغب في رؤيتي. لا ترغب في رؤيتي؟ فليكن. قفلت عائدة إلى الحي، وذهبت أولا لأبحث عن شوتو في كشكها. طلبت منها إذا ما كانت تنوي الذهاب إلى إيمرنس، أن تأخذ ما تعتقد بأنها ستحتاج من مناشف ومستلزمات، وتختلق عذرًا لعدم جلبها حاجيتها الخاصة. وجدت جيراننا برفقة شوتو؛ كانوا يحاولون وضع جدول لزيارة العجوز المريضة، والوجبات التي سيجلبونها من أجلها. عدت إلى بيتي، مترقبة حضور رجال حضرة المقدم ليجدوا حلا لبيتها الذي كان بلا باب.

كنت أعلم أنه يتوجب علي انتظاره حتى يأتي، مهما كان الوقت ليقف على الأمر بنفسه ويحرص على قيامهم به بكل احترام وشرف. لقد كانت حدود طاقتي على ما أعيشه تتراءى أمامي وأكاد أصطدم بها. دوائر وخطوط متعرجة ترقص أمام عيني. كنت لأمنح روحي لأي شخص كي يهزني ويقول: لا حاجة لأن تبكي وتنتحبي؛ إنه مجرد كابوس. شعرت والوقت يمضي أن ما كنا نعيشه يستحيل أن يكون حقيقيا. لا يمكن أن تعصف كل هذه الأمور السيئة بشخص واحد فقط.

حضر رجال الشرطة متحمسين بملابسهم المدنية، وهم يحملون لوح الخشب. ورغم أنهم في تلك الأيام لم يعودوا يغلقون التوابيت بمسامير بل بمشابك، إلا أنني شعرت و رجال الشرطة يغلقون فتحة الباب بأربعة ألواح عمودية وأربعة ألواح أفقية أنهم يغلقون تابوتا. كانت طرقات المطرقة تلك تعلن نهاية العديد من الأشياء؛ انقضاء حياة إنسان، ونهاية عمر بيت، وحلول الفصل الأخير من ملحمة إيمرنس.

كان الوقت قد حان حينها للانطلاق إلى احتفالات البرلمان بالجوائز، ولكن لم تحدوني أي رغبة في التأنق. شعرتُ وكأنني أُدق في هاون. هاتفت المشفى أولا لأسألهم عن حال إيمرنس، وأخبروني بأنها تحسنت أكثر، وأنها نائمة الآن إثر مهدئ قوي أعطوه إياها. وكانت تأخذ أيضًا مضادات حيوية، وهذا يدعو إلى التفاؤل. إلا أنها لم تكن تتكلم إلا قليلا، وتغطي وجهها بالمنشفة عندما يقترب منها الزائرون. كان زوارها كثر، إلى حد مزعج، وظلوا يهزون انبوب المحلول الموصل بيديها.

كانت إيمرنس حية تتحسن، وكان في وسعي أن أستعد لأجمل وأروع ليلة في حياتي. كان هنا أمل لفستاني بأن يتجاوز المقاييس الموضوعة لفساتين الحفلات، ولكن وجهي كان ليعجز أي خبير تجميل عن فعل شيء حياله.

عندما أخبرت أول من قابلت من معارفي في الحفل أنني لا أشعر بحماسة تجاه كل ما يحدث حولي، فهمتْ ما أود قوله مباشرة ولم تطلب مني أي توضيح. لم يفاجأ أحد حين اختفيت من الصالة الكبرى التي بدت في ذلك المساء كسماء ليلة صيفية تلمع بالنجوم. كان بريق الميداليات والحلي يلمع حولي، والأضواء الساطعة للثريا تراقصت وانعكست على الأرضية المصقولة. لا بد وأن قاعات الرقص القديمة قد بدت هكذا طوال الوقت. ورغم كل هذا، ما رغبت بشيء قدر عودتي إلى بيتي بسرعة، والارتماء على سريري. سأعلم صباح اليوم التالي الحكم الذي صدر بحقي. لن يكون لدي مفر إذا ما ماتت. وإن عاشت، فإن القوة التي لم تخذلني قط، ستخرجني مرة آخرى وربما للمرة الأخيرة، من الهاوية التي كنت أنتفض خوفًا منها.

فقدان الذاكرة

كانت ليلتي تلك عصيبة؛ خالية من الأحلام حمدا للرب ولكنني ظللت أستيقظ فزعة معتقدة بأن الهاتف قد رن. كنت قد طلبت من الممرضات أن يبقينني على علم بأي تغيير يطرأ أو أي أمر يحدث في كل الأوقات. ولكن الهاتف لم يرن. وبحلول الصباح، اصطحبت فايولا الزاهد بكل شيء حتى الطعام، ومن ثم انطلقت إلى المشفى.

بدا التحسن واضحا على إيمرنس. كانت الممرضة قد انتهت للتو من مسحها وتنظيفها، وأحضرت طعام الإفطار لها. وفي اللحظة التي رأتني فيها من خلال الباب المفتوح، بدأت تتلمس وقبضت على المنشفة ووضعتها على وجهها. طرقت بمرارة غزت قلبي، باب الممرضة المناوبة في الليلة الماضية، وكانت الأخبار جيدة. لو استمرت تتحسن بهذه السرعة، فإنه سيكون في وسعنا أن نذهب إلى أثينا دون قلق. ستتجاوز العجوز الأزمة، وستصبح بصحة جيدة كما كانت. ولكنها أخبرتني بأنني لا أستطيع أخذها إلى بيتي إلا بعد عدة أسابيع، وبشروط معينة مثل توقفها عن العمل نهائيا. وسألتني ما إذا كان لديها منزل يضمها، وأشخاص يقومون على رعايتها. بالطبع لديها، وليتها تدرك ذلك. قلت لها بأننا اتفقنا على أن تسكن عندنا حتى تستعيد كامل طاقتها الجسدية والعقلية.

أدركتُ حقًا أننا سنذهب إلى أثينا، وراح زوجي ينهي إجراءات السفر. كان حماسي لهذه الرحلة يكاد ينعدم. رتبت شنطتي بتردد وتراخ، متشبثة

بالأمل الساذج بتراجع الضيف عن دعوته، وإلغاء المؤتمر في اللحظة الآخيرة. كنت في زيارتي الأخيرة للمشفى قد تحدثت مع الطبيب الذي قال بأنه لا يرى مانعا في سفرنا، بل وضمن لنا كليا سلامتها الجسدية، ولكنه أخبرنا بأن ما يدور في عقلها من اختصاص طبيب الأعصاب لا اختصاصه. لم يؤثر الانسداد الذي تلاشى كليا من دماغها على مراكز النطق فيه، إلا أنه ما يزال يعرقل حركتها وبقيت إحدى قدميها مشلولة. وأضاف بأن سر صمتها لا شك يعود لسبب نفسي. بدأت أفكر في اللحظة التي دخلت فيها الجناح، ووضعت إيمرنس المنشفة التعيسة تلك على وجهها رافضة أن تراني. وقررت أن لا أزعجها أكثر. لا بد وأن فايولا هو الوحيد الذي لن تغطي وجهها عنه، أو تنظر إليه بكراهية. أدرت ظهري لها دون أن أودعها حتى. وأنا أمشي بتؤدة عائدة إلى المنزل، رأيت جارين اثنين لنا وهما يحملان بعض الأطباق لها. وفي المنزل، كان فايولا لا يزال مضربا عن الطعام، ولم يكن يهمني هذا؛ كنت أشعر بمرارة وذنب ثقيل وتعب شديد لم يعد يهمني بعدها شيء. حملت وسادته وأوعيته وطعامه وكل ما قد يحتاجه وذهبت به إلى شوتو طالبة منها أن ترعاه لبضعة أيام حتى ننتهي من مهمتنا ونعود. دخل ورمى نفسه على الأرض في بيتها الصغير بسلبية تامة، ولم يرفع رأسه حين خرجت، وكأنه ليس كلبنا. تابعت حزم أمتعتي، وكنت أعمل كالآلة بلا مشاعر. أعتقد بأن الشيء الوحيد الذي أدركته حينها، أنه لا شيء يهم، حتى نفسي. هاتفت المشفى مرة آخرى بعد العشاء، ولم أذهب لزيارتها. ولم أذهب؟ كانت صحتها جيدة، وتأكل طعامها. كل ما قلته للممرضة هو تمنياتي للعجوز بالشفاء العاجل، وبعثت لها بتحياتنا جميعا. كانت رسالتي تلك باردة كبيان رسمي. وقلت بأنه لا حاجة لأن تقلق بشأن عملها في الشارع، فكل شيء كان يسير على ما يرام؛ كان صديقها حضرة المقدم قد تولى كل شيء، وبيتها كما هو بالشكل الذي ترغب به، ونظيف للغاية. نفذ كل ما هو ضروري ولازم. سوف تعرف كل

شيء بكل تأكيد عندما تخرج من المشفى. وأضفت قائلة للممرضة: أخبريها أن لا تنتظر حضوري -تنتظر! لم تكن تنظر في وجهي- وذلك لبضعة أيام. لم أخبرها أنني سأسافر ولكنني أخبرت ابن أخيها حتى يعرف لم لم يجدنا لو حدث وهاتفنا لأمر ما. وغادرنا في رحلة مساء ذلك اليوم إلى أثينا.

استيقظنا صباح اليوم التالي في الفندق باتصال هاتفي من اتحاد الكتاب اليونانيين. كنت ما أزال متعبة ولم أستوعب ما قيل لي. لم تكن اللغة السبب ولا جودة المكالمة. لا بد وأنني كنت أعاني من صدمة ما، ذلك أنني فجأة لم أعد أفهم ما يقال لي في أي لغة. لم يكن في وسعي حتى أن أطلب كأسًا من الماء، ناهيك عن مناقشة إمكانية التعايش في عالم مشترك يعمه السلام. أجلسونا في الصف الأول في المؤتمر، ووجدت نفسي أغط في النوم منذ أن بدأ الحديث. اصطحبني زوجي إلى الفندق، واعتذر نيابة عني من الجميع، وأطلع رئيس الجلسة على ما حدث معي باكرًا، أو ما يستطيع إخباره به على الأقل. كان علي أن أدير إحدى جلسات النقاش، ولكنني وجدت نفسي أتلعثم وأتأتئ. أشفقوا علي حينها، وأحضروا لي سيارة، وأرسلوني إلى فندق في مدينة غليفادا. ما الذي كان في وسعهم فعله مع مبعوث متعب إلى هذا الحد؟

من خلف أشجار نبات الآس والخطمي والياسمين والزعتر، كان بحر إيجة يتلألأ أمامي. وما كنت لأرى أيا من هذا لو لم يلفت زوجي انتباهي إليها. كنت على حافة انهيار عصبي، وبالكاد أدركه. كان لون الماء عند وصولنا أزرقا زرقة الياقوت، وانقلب بلون العنبر بحلول الغسق، وأحمرًا مشتعلا عندما اندست الشمس داخله. أخبرني هو بكل هذه التفاصيل؛ لم أر شيئًا. نمت اليوم كله، وعندما استيقظت وسحبت نفسي من شبه الغيبوبة الكاملة تلك أخيرًا، تجولنا في المدينة رغم أنني لا أتذكر الآن أي شارع ولا

حتى اسم الفندق. الأمر الوحيد الذي أتذكره من تلك الرحلة هو سحابة العطور التي حملها الهواء حولي، وجثة الكلب التي دفع بها الموج خارج مائه. فكرت في فايولا دون مشاعر، وكأنه كان مجرد حلم، وكأنني كنت مجرد حلم وكل شيء حدث لي.. الجائزة وإيمرنس وفريق إزالة التلوث والباب الذي انكسر بالفأس.

حل عيد الفصح مبكرًا في ذلك اليوم، في بداية شهر نيسان، وكان اليوم الأخير الذي قضيناه في اليونان هو يوم الجمعة العظيمة. أحمل ذكرى قريبة من قلبي ليوم الجمعة العظيمة والذهاب إلى الكنيسة ورؤية جسد المسيح في النعش. كانوا يضعون سلة مذهبة ممتلئة ببتلات الورد، لنأخذها ونلقيها على النعش حتى يغطى الجسد تماما. ويقرعون الجرس بعد ذلك في البرج الصغير ليأتي جميع سكان قريتنا الصغيرة ليقفوا ويتحلقوا حوله.

عندما رأونا ندخل الكنيسة في ذلك اليوم، ونلقي ببتلات الورد، اقتربوا من زوجي، وأشاروا إليه بأن ينضم لهم في الحداد على مخلص البشرية. ما أزال أذكر حتى الآن منظره وهو يقرع الجرس، وشعره الأشقر الكثيف الذي تخلله الشيب يحركه نسيم البحر. ووضعوا بعد ذلك حبل الجرس في يدي، وأعتقد بأنهم كانوا راضين عن أدائي. لقد بكيت بكاء مريرًا وأنا أقرع الجرس، ولكنني لم أبك على المسيح، بل على نفسي. عدنا في اليوم التالي إلى أثينا وغادرنا من مطار إليكيون. لقد كانت الرحلة مذهلة لطيبة الكتاب اليونانيين الدافئة التي فاقت كل التوقعات. لقد ودعوني وقدموا لي الهدايا، وعدت محملة بالكثير. بل ورّافقونا إلى المطار. ولو امتنعوا عن دعوة أي كاتب هنغاري بعد ذلك فإنني السبب بلا شك.

قررنا أنا وزوجي في الطائرة أن يعود هو بالحقّائب إلى البيت، وأتوجه أنا مباشرة إلى المشفى. كدت أن أنشج بمجرد أن دخلت المصعد، وأنا أفكر في

كل الاحتمالات لما قد حدث في فترة غيابي. ماذا لو لم تسر الأمور على ما يرّام كما توقعنا، وكانت إيمرنس في قبو المشفى في ثلاجة بانتظار الدفن؟ ماذا لو كانت على قيد الحياة ولكن بمرض لا يمكن علاجه؟ ربما نقلوها إلى جناح آخر من المشفى دون استشارتي؟ فكل تلك القرّارّات الوحيد الذي في وسعه قانونيا اتخاذها هو ابن أخيها لا أنا.

وكان السيناريو الوحيد الذي لم أفكر به ينتظرني. استقبلتني ضحكات عالية وأنا ما أزال في أول الممر. كانت تلك الضحكات ضحكتها النادرة، والتي كان في وسعي أن أميزها من بين ألف ضحكة. ابتسمن الممرضات في وجهي حين بدأت أسرع، وصرخت إحداهن، ولكن لم لدي وقت لأسمع ما قالت. هرعت إلى الباب المفتوح الذي أتى منه الصوت. كانت الغرفة ممتلئة بالزوار. لا بد وأن إيمرنس قد ألقت تعويذة على الممرضات، وإلا كيف يسمح لهذا العدد بالدخول؟ كان هناك ستة أشخاص على الأقل حولها، وكانت شوتو تلقي ببقايا وجبة لم تكن وجبة مشفى عادية بل طبقا أعده أحد الجيرّان. وأما حافة النافذة، فقد وضع عليها أطباق وأوعية لم أرها من قبل، وأباريق وأكواب. كانت العجوز تقعد مديرة ظهرها للباب، وقد وضعوا خلفها العديد من الوسائد، ولا بد أنها أدركت من تعابير وجوه من حولها، أن زائرا جديدا ولا متوقعا قد أتى.التفتت ضاحكة باتجاه الباب، وهي تظن أن الداخل هو الطبيب. احتقن وجهها بالدم بمجرد رؤيتها لي، وفرت منه جميع معالم السرور. كانت قد تمكنت من استخدام يديها بشكل عام، عكس آخر مرة زرتها فيها حين كانت تبحث عن المنشفة بيد وحيدة مرتبكة. وكانت تجلس أمام ضيوفها دون غطاء الرأس، ولكنها غطت وجهها لحظة دخولي. سكت الجميع. كانت ردة فعل قاسية وفظة، وبنفس قوة لكمة منها على وجهي. وفجأة أصبح لدى الجميع أمورًا مهمة يجب عليهم أن يقوموا بها.

جمعن النساء الأطباق والأوعية، وغسلن أدوات تناول الطعام خاصتها، وودعن بعضهن وداعا متواضعا وخرجن. لم تتحدث معي شوتو في أي شيء ولا حتى عن الكلب. كل ما فعلته هو أنها هزت أصابعها وأشارت لي من الممر، وفهمت أنها تريدني أن أهاتفها في السادسة، أو أنها ستأتي إلي ونتحدث. ما كان ليخطر على بالي أن أولئك الأشخاص بهذه البراعة، وأنهم سيشعرون بقرون استشعار عقلية دقيقة كتلك، أن إيمرنس في غيابي قد فكرت في أمري وقررت أنني شخص ناقص وضعيف. لم يدرك هؤلاء لم فكرت بي إيمرنس بهذا الشكل، ولم يكن هناك داع من قلقهم. فبغض النظر عما حدث، كان من الأفضل بالنسبة لهم أن يتحاشوا الأمر، ومن الذوق أن لا يتدخلوا.

للمرة الأولى. للمرة الأولى منذ أن وقع الانهيار وحدث كل شيء، أمتلئ بالكره، ويبدأ لوم الذات بالتسلل مني. بحق السماء ما الجريمة التي ارتكبتها في حقها؟ أ لأنني لم أدعها تموت؟ كانت لتموت لولا الأدوية والحقنة. لم أكن إلى جانبها، لأنني لم أستطع. لم أرغب في تركها وحيدة، ولكنني اضطررت. ذهبت لأعمل لا لأستمتع. فهي من بين الجميع تعلم جيدا أن التلفاز بالنسبة لي ما هو إلا عمل. وإذا لم ترغب في رؤيتي، فهذا خيارها. في وسع ابن أخيها وحضرة المقدم وشوتو وأديلكا والآخرون أن يزوروها ويطمئنوا عليها. لا حاجة لها بوجودي. لم أحاول أن أتحدث معها، أو أن أوضح لها ما حدث. لا يغير هذا من الأمر شيئًا بالنسبة لها. يمكنها أن تضع غطاء الرأس هذا حتى يوم القيامة. لم يعد هناك من داع للركض بين البيت والمشفى، وأنا متعبة للغاية، وفي وسعي أن أكون مسترخية في حوض الاستحمام في بيتي، من أجل ردة فعل كهذه. غادرت الغرفة متوجهة إلى مدخل المشفى حين أوقفتني الممرضة وتحدثت بتأني شخص كان ينتقي كلماته:

-أرجوك أيتها السيدة الكاتبة، إن السيدة العجوز ليست بخير. إنهم

يظنون أنها بخير، ولكنها تكون مرحة هكذا عندما يأتون فقط. وأما بقية اليوم، فإنها تظل صامتة تماما.

دعوها تصمت. لاحظت الممرضة ملامح وجهي، وشعرت بأنها تحتاج إلى قول المزيد.

-إن تحسن صحتها مذهل، ولكنه سطحي جداً. عندما كنتِ هنا آخر مرة، لم يكن في وسعنا تقييم حالتها بشكل واضح، ولكننا تمكنا من ذلك الآن. يمكنها أن تحرك أطرافها، ولكن ليس في وسعها أن تمشي. يأتي حضرة المقدم لزيارتها كل يوم، ونحاول الآن أن نحدد مسارها العلاجي معه.

حسنا إذن، يمكنني الذهاب إلى منزلي ما دام حضرة المقدم يزورها كل يوم. يمكن لأفراد جوقة الشرطة أن يحضروا معه أيضًا، والكشافة كلهم، لم لا! ما من سبب يدفعني للاهتمام الآن أو القلق بشأنها. جميع جيراننا يمطرونها بكل ما تحتاجه، ويوفر لها المقدم كل الحماية والآمان. لا تحتاج إلي؟ هو كذلك. لقد قدمت كل ما في وسعي لها.

-هلاّ ....

توقفت الممرضة عن الكلام. فهمتُ تمامًا ما عجزتْ عن قوله، فالكلمات صنعتي. يجب أن لا أتضايق من تصرفات العجوز، وأن أتجرع كل ردة فعل غير عادلة بحقي، وأتحمل مزاجها المتقلب، لا لأنها ستبقى مشلولة حتى آخر عمرها، بل وربما لن تحيا طويلا. لا يمكن أن يكون هذا صحيحا. ستعيش إلى الأبد؛ لم يعد أمرها مهما بالنسبة لي.

الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات، أشعر أن تلك اللحظة كانت اللحظة الثانية والأخيرة التي أقرر فيها مصيرها. كانت اللحظة تلك هي اللحظة التي تركت فيها يدها.

-سوف أهاتفكِ على أية حال إن احتاجتك.

-لا. لا تزعجي نفسكِ. لن تحتاج إلي. ولن تقبل بأي شيء مني سواء كان ذلك عملا أؤديه من أجلها أو شعورا أمنحه إياها.

خرجت من المشفى، ومشيت إلى بيتي بخطوات بطيئة. أخبرت زوجي بما علمته. استمع إلي دون أن يقاطعني، وظل صامتا لبعض الوقت، ومن ثم فاجأني بأمر لم أتوقعه منه. تنهد وقال: «يا للمسكينة إيمرنس» .

إيمرنس المسكينة! كنا أنا والكاهن في كنيسة منطقتنا نتجادل لسنوات، حول شخصيتها. ووجدت نفسي في تلك اللحظة بعد أن عدت من المشفى، أكاد أميل لرأي هذا الكاهن فيها.

تابع زوجي كلامه:

-في بعض الأحيان يمكن أن تصبحي غير منصفة إلى حد أعجز عن تصديقه. كيف لم تفهمي ما هو واضح لكل من حولك؟ لقد فهمه الجميع، كل سكان الشارع وحضرة المقدم. إنه واضح جدًا من الكلام الذي قلته لي.

ما الذي كان واضحا؟ حدقت فيه مثلما يحدق فايولا عادة، عندما لا تكن أوامري له واضحة، ويحاول هو بدوره فك رموزها. ما هي الجريمة التي ارتكبتها، ويفوق أثرها ما حدث في ذلك اليوم التعيس؟ فمنذ تلك الفترة، وحياتي حلقة لا تنتهي من لوم الذات والشعور بالذنب. لم يغادرني هذا الشعور ثانية واحدة. كانت أمسية حفل استلام الجائزة تلك تغص برعب لم أعيه، وأما رحلة أثينا فقد كانت جحيما حقًا، وعندما حرمت من النوم حاصرتني الهموم مثل قطيع ذئاب.

-إن إيمرنس تشعر بالخزي منكِ ومن كل ساكني الشارع. إنها تدعي فقدانها الذاكرة، لأنها بهذه الطريقة تستطيع على الأقل احتمال ما حدث

ومنظرها على الأرض أمام مرآى الجميع والفضلات تعلو جسدها ورداءها، بكرامة مهشمة. هل يتوجب علي أن أبين لك أنت من بين جميع كل الناس ما يعنيه الخزي؟ أبين لكِ ما يعنيه كل هذا رغم أنكِ السبب؟ أليست الخطة تلك كانت خطتك؟ لقد سلمتها لهم مقيدة، بكل أسرارها، في الوقت الذي كان يتوجب عليكِ فيه حمايتها مهما كان الثمن. أنت الوحيدة في هذا العالم التي في وسع كلماتها أن تدفع العجوز إلى فتح بابها. خنتها وكنت اليهوذا ذاته الذي خان المسيح.

أصبحتُ يهوذا؟ ألا يكفي أنني أكاد أموت من الإنهاك؟ لقد تلقيت ما يكفي، ولم أجد ذلك الوقت مناسبا لمحاضرة كهذه. كان كل ما أردته أن أرتمي على السرير. كانت شوتو قد وعدتني بالمجيء في السادسة. ارتميت على السرير بعيدا عن نفسي وعن إيمرنس، وطلبت من زوجي أن يوقظني إذا لم أستيقظ حينها. كنت أظن أن التعب سيتمكن مني وسأنام، ولكنني لم أستطع الاسترخاء حتى، وكنت أنا من فتح الباب عندما أدركت عودة فايولا من نباحه. كان نحيفًا للغاية، ولكنه سعيد. للمرة الأولى في حياته، كان سعيدا حقًا برؤيتنا. بدا وكأنه يريد أن نشعر بعودته إلينا من جديد. وفكر في أن كابوسه انتهى وسيرى إيمرنس، بعد أن عثر علينا. شكرت شوتو على رعايتها، وسألتها عن ثمن مجالستها له. كان المبلغ الذي طلبته معقولا، فدفعته لها. وحتى بعد عودة فايولا لنا ودفع المبلغ، لم تكن شوتو تنوي المغادرة.

-أرجوكِ أيتها السيدة الكاتبة، هناك أمر يجب أن تعرفيه ما لم يخبرك به الطبيب والممرضات. إن إيمرنس تتحسن، ولكن بطريقة غريبة جداً. إنها لا تتذكر سوى شذرات مما حدث؛ هناك فجوات. لا فكرة لديها عما حدث مسبقا، لا عن الفأس ولا عن سيارة الإسعاف ولا عن معاناتها. سألتنا

كيف أحضرت إلى المشفى، فأخبرتها بأنكِ أنتِ من رتب الأمر. إن جل ما يشغل بالها الآن هو ما إذا كان باب بيتها موصدا، وأخبرناها أنه موصد وأنكِ تملكين المفتاح. إنها تعرف القصة التي أمرنا حضرة المقدم أن نخبرها بها. أننا طرقنا باب بيتها مرة، ولم تجبنا فقلقنا عليها، وهرعنا إليكِ ولكنها لم تجبك عندما أتيت أيضًا. تيقنا حينها أن شيئًا ما ألم بها، ففتح الأستاذ الطبيب الباب عنوة -كان كل سكان الحي ينادونه بهذا اللقب. حاولت أن أتخيل شكله وهو يحمل عتلة في يده ليفتح الباب ولكنني فشلت- ووجدناها فاقدة الوعي أمام الباب. قام عامل الإصلاحات بحملها، ونقلناها على سيارة السيد برودارتش إلى المشفى التي تتلقى فيه الرعاية منذ ذلك الحين. لم نقل أية حرف عن فريق إزالة التلوث، ولا عن القطط أو أي شيء. ولم يفش لها أحد بسر ذهابكِ إلى أثينا. أرجو أن تأكدي لها الآن أنكِ أغلقت الباب، وأنك تذهبين إلى هناك كل يوم للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. سيحين الوقت لاحقًا لأن تكتشف بنفسها غرفتها التي خلت من كل شيء، وكل الأشياء الفظيعة التي كانت بداخلها. إن الجميع يعاملها بلطف شديد. كان حضرة المقدم وابن أخيها يكذبان باتقان. فبعد كل شيء أُخبرت به العجوز، اعتقدتْ بأنه في وسعها التحسن وأن تعود كما كانت. لا أعلم كيف سيكون وقع الأمر عليها عندما تكتشف حقيقة ما حدث.

كانت تتوقع الثناء مني وعبارات الشكر والمديح، ولكنني لم أقل حرفًا، رغم أنها استحقتها. لقد نجح جميع الجيران في اختبار الشرف والكياسة، ولكنني ركنت إلى صمتي. لقد كنت أعرف إيمرنس الحقيقية. لمعت بصيرتي أخيرًا، واخترقت الظلام حولي لأفهم ما كان يدور من جديد. فقدان إيمرنس لذاكرتها؟ يا لهذه الخدعة! كانت تتصرف طوال حياتها وكأنها من الأسرة المالكة؛ تغير ذاكرتها لتتناسب مع الواقع السياسي. لم يفاجئني ما توصلت

إليه أخيرًا، بل أفزعني. علقت شوتو على برودة أصابعي الشديدة، بعد أن صافحتها وهي تهم بالمغادرة. وأملت بأن لا أكون مريضة أنا أيضًا.

لقد توصل زوجي إلى الاستنتاج نفسه، ولم يكن هناك داع للجدال. رميت نفسي على الكرسي، وبدأت أمرر أصابعي في فرو فايولا. كان يتوجب علي أن أقرر ما سأقوم به. هاتفت حضرة المقدم، ولكنه لم يكن موجودا، ووعدني موظفوه بأنهم سيبلغونه باتصالي. ومن ثم هاتفت ابن أخيها، ورد علي. كان يعيش في العالم الحالم المتفائل نفسه الذي تعيش فيه شوتو. يا لهدية السماء هذه؛ لا تتذكر عمته شيئًا. أخبرني بأنهم سيطلعونها على كل ما حدث، حالما ينتهون من تجهيز البيت وتأثيثه، وتنظيف المطبخ وتركيب الباب الجديد. لم تكن خلفيتي الطبية أفضل من خلفيته، ولكنني كنت أعرف إيمرنس أكثر منه. رأيتها وهي تخرب الوجبة التي بذلت جهدا لتعدها، وتجولت معها في متاهة ذكرياتها. سوف تنسى أمر قططها؟ مستحيل. لو نستها فعلًا لما كانت سألت عن حال بيتها. كانت تتذكر كل شيء، ولكنها لم تجرؤ على السؤال بصراحة. يمكن للأدوية التي تتناولها في البداية أن تتسبب بغياب عقلها، ونسيان بعض الصور. ولكن بمرور الأيام، فإن الصور التي أصبحت حدودها خفيفة ومبهمة، تستعيد لونها الساطع. لو كان في وسعها أن تتذكر شوتو وجميع من في الشارع، فإن كل شيء حول منزلها ثابت في وعيها، بما في ذلك الحيوانات التي تعيش فيه، والبطة المقطعة، والسمكة الفاسدة، وكل شيء أحاط بها في فترة شللها المؤقت تلك. لقد أبقت الأمر سرًا، لأنها أرادت أن تشق طريقها مثلما شقت طريقها من أعماق هوّات سابقة. إيمرنس، الضعيفة التي يمتنع الجميع عن إخبارها بالحقيقة، والمسكينة التي لم تجرؤ على السؤال، وتُركت تتحسس طريقها خلف الظلال. لذا ما الذي يدفعني لأن أكون حساسة هكذا؟ لم يكن ذلك الوقت وقت التفكير بمن أهانت أو

كيف قامت بذلك، هذا إذا كان في وسع مريض أن يهين أحدا فعلًا. هيا، فلتذهبي إلى المشفى من جديد. ففي كل هذا المسلسل، لم يكن هناك سوى بطل واحد وهو إيمرنس لا أنتِ. إنه مسلسل امرأة واحدة.

لم تكن وحدها. كانت زوجة جاري الطبيب جالسة في الغرفة معها، وكانت العجوز ترد بنشاط وسرور. علمت أن السيدة كانت قد تكلمت مع المشفى من أجل إيمرنس أيضًا. لا بد وأن فريق المشفى قد تعجبوا من الأشخاص الكثر الذي اهتموا لأمرها. لقد وجدت إيمرنس زيارة الشابة الجميلة لها إطراء كبيرًا، ولم تكن ترغب في القيام بتقليد رمي المنشفة على وجهها أمامها. ولكن بمجرد مغادرة زوجة الطبيب، أخذت العجوز المنشفة. لم أكن مخطئة على الإطلاق؛ كان عقلها يعمل بشكل طبيعي. ولأن الشابة كانت بريئة لم تعرف شيئًا، لم تكن المنشفة -على العكس مني- مناسبة لها. وأنا أقترب من سريرها، وضعت على وجهها الحجاب مثلما يضع كاهن رداءه الكهنوتي، وبه عزلت نفسها عني وعن خزيها. نظرت حولي. كان على الطاولة، إلى جانب العديد من الأدوات الطبية، اللوحة التي كتب عليها: يمنع دخول الزوار، والتي كانت معلقة على الباب عندما كانوا يحاولون إنقاذ حياتها. علقتها على مقبض الباب من الخارج، ومن ثم سحبت المنشفة من على وجهها، ورميتها على السرير الفارغ الذي بجانب سريرها. لم يكن في وسعها الإمساك بها؛ يجب عليها أن تنظر إلي مباشرة. اتقد الغضب والكره في عينيها.

-دعينا نتوقف عن كل هذا. إذا كنتِ تكرهيني إلى هذا الحد لأنني رفضت أن أدعك تموتين، فلا مشكلة لدي. ولكن لا تخفي وجهكِ هكذا. أخبريني بوضوح؛ لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر. أردت أن أساعدكِ. لم تسر خطتي كما توقعت، ولكنني لم أرد سوى إنقاذك، حتى لو لم تصدقيني.

تسمرت عينيها علي منذ بدأت أتكلم. كان الأمر أشبه بمواجهة محقق وقاض في الوقت ذاته. وفجأة ودون سابق إنذار، بدأت الدموع تنهمر من عينيها. كنت أدرك ما تبكي من أجله. كانت تبكي سرها الذي انكشف، وقططها التي خشيت أن تسأل عن مصيرهم، والمحاكاة السيئة لسلوكها الذي لم تكن تشوبه شائبة، والفأس وموت أسطورتها، وخيانتي. لم تقل شيئًا، ولكنني فهمت. لو أنني قبلت باختيارها الموت في عجزها، ولم أجعل انهيارها وهي لا تزال حية يحدث أمام جميع من أكنوا لها كامل الاحترام، لشعرت بأنني أحبها حقًا. لم تكن إيمرنس تؤمن بالجنة، ولكنها أمنت باللحظة الراهنة. عندما دفعتها لفتح بابها، انقلب عالمها رأسًا على عقب، واندفنت هي تحت أنقاضه. لم قمت بذلك؟ كيف استطعت أن أقوم بذلك؟ لم تقل أي كلمة من كل هذا، ولكن الجمل التي لم تقل ظلت تحلق بيننا.

-إيمرنس، لو كنت أنا في مكانك، هل كنتِ ستدعيني أموت؟

لتجيب بجفاء بعد أن توقفت عن البكاء:

-بكل تأكيد.

-ولن تندمي على أي شيء؟

-أبدًا.

-ولكن حتى لو لم أنقذك، فإنهم سيرون كل شيء، سيرون السمكة والقطط والفضلات.

-لم يكن كل هذا ليهم، لو تركتني أموت. ما الذي يعرفه الشخص الميت، أو يراه أو يحس به؟ وحدك من يتخيل أن الجميع ينتظرونها في الأعلى، وأن فايولا حين يموت سيذهب إلى هناك أيضًا، وسيكون بيتك وبيئتك مثل التي أنتِ فيها الآن. سيحضر لكِ ملاك آلة الكتابة ومنضدة جدك، وسيستمر كل

شيء كما كان. يا لكِ من غبية. كل شيء بالنسبة للموتى سيان. لم بحق هذه الأرض لم تدركي هذا؟ إنك كبيرة بما يكفي.

لم يكن الأمر خزيا وحسب، بل غضبا وكرها. ليكن الأمر كذلك إذن. ولكن لا تتوقعي التوبة مني. إنني لست مثل أديلكا.

-ما الغاية من المدفن إذن يا إيمرنس؟ لم تجمعين رفات والدك ووالدتك والتوأم في المدفن الخيالي؟ ألن تكون الأشجار البرية والحشيش إلى جانب الحفرة كافية بالنسبة لك؟

-سيكون كافيا لكِ، لا لي أو لعائلتي. يمكن لعائلتكِ أن تدفن بالقرب من تلك الأشجار. لا يشعر الموتى بشيء، ولكن يجب إكرامهم. إنك مدينة لهم بهذا. ولكن ما الذي تعلمينه عن الشرف؟ هل تظنين بأنني سأضع قلبي على يدي وأكون تحت إمرتك مثل فايولا، إن رميتي لي عظمة شهية من البرلمان؟ لن أفعل أبدًا. تتقنين اللفتات الكبيرة، ولكن لا وقت لديك لأن تبقي عندما تنقذين حياتي وأكون في حاجة لك لتخفي تعاستي عن عيون العالم. اخرجي من هنا. اذهبي وادلي بتعليق آخر. كيف تجرأت على شكري لنيلك الجائزة!

كانت تدرك جيدا ما تفعل، وهي تنطق بكل هذا في وجهي. كانت كل واحدة منا تعرف الآخرى جيدا. وقفت وهممت بالخروج ولكنها نادتني مجددا قائلة:

-هل تخلصت على الأقل من كل القاذورات؟ هل تعتنين جيدا بقططي؟ هل وضعتي بابا جديد؟

فكرت في لحظة حيرة وحيدة، أن أخبرها أنه لم يتبق من بيتها سوى نصف الأثاث، وأن الباب اختفى والقطط ضاعت. لو أنني خضعت لإغراء هذه

الفكرة لما كنت تجاوزت تلك الليلة، ولكن ولحسن الحظ كان خطأ لم أرتكبه. قلت لها بأنه لا أحد غيري اجتاز عتبة بيتها، وأن زوجي والسيد برودارتش، قد أعادا الباب كما كان، وسمرا لوح إعداد المعجنات الخشبي الخاص بها على الشق المكسور منه حتى لا تخرج قططها، وذلك بعد أن سحبها الطبيب إلى الخارج مباشرة. وأكدت لها أنني قمت بكل ما هو لازم في الليلة التي أدخلت فيها إلى المشفى. وكل ما فعلته في اليوم الثاني هو القيام ببعض اللمسات النهائية، ليعود كل شيء كما كان. كان التنظيف مضنيا، ولكنني انتهيت منه. وأخبرتها أنني لم أتخلص من النفايات في الصندوق القريب منها، بل حملت كل شيء في دلو وألقيته في صناديق قمامة متفرقة في الشارع المجاور لنا، حتى لا يعرف أحد أنني أنا من قمت بذلك. تدفقت الكلمات مني مثلما يتدفق الماء من نبع. كان الأمر أشبه ما يكون بطقوس قراءة رواية قصيرة أمام جمع من الناس. جميع القطط بخير ما عدا القط الذي مات بالطبع. لقد دفنته تحت وردة برية. أطعمهم جميعا اللحم، لأنه لا وقت لدي للطبخ. وأخبرتها أخيرًا بأنه يجب علي أن أذهب سريعا إلى المنزل، لأننا لم نأكل شيئًا، فقط قططها الذي تناولوا طعامهم، وأخشى لو تأخرت أكثر أن أعلق تحت المطر.

هممت بالخروج من الغرفة؛ كان الذي عشته يفوق ما يمكن أن يستوعبه يوم واحد. ولكنها أوقفتني بكلمة واحدة:

-ماقدوشكا

لم ينادني أحد بهذا الاسم سوى والديّ. لا أحد غيرهما أبدًا. تسمرت في مكاني، في انتظار ما سيحدث. كان قلبي يخفق بسرعة، وتضاربت المشاعر بداخلي؛ مشاعر خجل من كذبي وأمل، وإحساس بالذنب وفيض من الراحة. رفعت العجوز يدها قليلا آمرة بقربي منها. ماقدوشكا .. نطقت بها مرة آخرى. بدت الكلمة مختلفة تماما، تفيض عما عهدته، وتخفي ما لم أعهد

من قبل. كانت مثل رعشة خفية؛ تيار عابر من الكهرباء. كانت نبرة صوتها خفيضة تكاد تكون خشنة، ولكنها لم تكن بغيضة بل تشبه صوت سحب الستارة. جلست مرة أخرى بالقرب من سريرها، وأنا أتفحص أصابعي بإمعان وهي تتحدث.

-كل القاذورات النتنة الفظيعة تلك؟ بيديكِ الضعيفتين الصغيرتين هذه؟ وحدك في الليل حتى لا يرى أحد؟

أدرت رأسي بعيدا؛ لم أحتمل نظرة عينيها. وفجأة، فتحت فمها وعضت يدي بلثتها الخالية من أي سن. لم يحدث أن صعقت وصدمت في حياتي إلى ذلك الحد. سيظن أي أحد يرانا هكذا بأننا منحرفتين أو مجنونتين. ولكنني فهمت ما عناه هذا الذي فعلته، والذي كان يفعله فايولا عندما لم يستطع التعبير عن نفسه بالأصوات. لقد ألفت حركاته هذه تعبيرا عن فرحه العظيم وحماسته. شكرتني إيمرنس مرة بعد مرة، واعترفت بخطئها لاتهامها لي بالخيانة وأنا الشخص الذي كان قد أنقذها. لم تكن موضوعا للسخرية والتهكم كما توقعتْ. ولم يعلم الجيران أي شيء، ولم يروا كل الفضلات في بيتها. لم تفقد ماء وجهها، ويمكنها أخيرًا أن تعود.

لم أعش الكثير من اللحظات التي تدفعني لأن أرتعد خوفًا عندما أتذكرها، ولكن تلك اللحظة كانت واحدة منها. لم أعش قبلها ولا بعدها أبدًا ذلك الخليط العجيب من الرعب والنشوة. كان كل شيء على ما يرام. قطط إيمرنس وهي تدور حولنا وتلعب، ودرف النوافذ وهي تحرس الظلام المطمئن، وأريكة الحب وكل إمبراطورية إيمرنس التي غدت مع دخان النار تلك. سحبت يدي؛ كان كل شيء أكثر مما أحتمل، وأدركتُ أن دموعي بدأت تنهمر. بدأت العجوز تمسحها برقة وتسألني ما الخطب؟ ف الآن سيكون بوسعها أن تعود إلى بيتها دونما خزي، ووعدتني بأن تتحسن سريعا.

مسحت دموعي قبل أن أغادر، فيما كانت هي تجمع الكعك وألواح الشوكولاتة. مدتها لي وأمرتني أن أعطيها لفايولا.

شوتو

أخذت صحة العجوز تتحسن بسلاسة. ونمت الخصلات العريضة حول وجهها الجميل الخالي من أي تجاعيد من جديد، بعد أن قُصها فريق إزالة التلوث. لاحظ الجميع، بمن فيهم أطباؤها وزوارها وحضرة المقدم، أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها. ولكن كلما أصبحت هي مرتاحة أكثر ومبتهجة، كان قلقي ينمو أكثر ويتفرع. لقد علقت في شبكة من الكذبات التي لا فرار منها ولا فكاك، الأمر الذي دفعني إلى التحدث مع طبيبها مجددا. لقد كان متضايقا من المجرى الذي سارت عليه الأمور، ولكنه لم يملك أي حل بديل. سيتوجب علينا أن ننتظر حتى آخر لحظة ممكنة، قبل أن نخبرها بحقيقة ما حدث. وسيكون حضرة المقدم خلال ذلك الوقت، قد انتهى من طلاء المطبخ وتجديده، وتركيب الباب الجديد. ارتأيت أن لا أضيع وقتي وأشرح له بأنه حتى لو جهز بيتها مثل جناح في قصر وندسور، فإنها لن ترضى، وذلك لأن ما أحبت لم يكن له بديل لديها. ولو كانت تريد أن تغير أثاث بيتها، لكانت فعلت منذ زمن بعيد، ولكن الرب وحده يعلم كم الذكريات التي حملها مطبخها الذي لم يتطابق فيه غرضين أبدًا. وكانت هناك مشكلة آخرى. لم يكن الأمر أنها سترفض كل شيء اخترناه لها وحسب، بل وستتدهور حالة الصحية. لو عادت ووجدت أثاثا جديدا، فستدرك أن أمرًا ما حدث للقديم، وستعرف ما كذبت بشأنه.

-يجب أن تفهم أيها الطبيب أن العجوز حية لأنني أخبرتها أن سرها لا

يزال محفوظا، وليس هناك ما يدعوها للشعور بالخزي والخجل، وأن في وسعها أن تعود إلى بيتها بثقة، ولن تكون وحدها فقططها تنتظرها.

-لا تخشي شيئًا؛ سوف تجتاز الأزمة.

نظرت إليه دون أمل. لم يفهم ما قلت، ولم يفهم إيمرنس.

كان سكان الشارع جميعهم يبحثون عن القطط، حتى تعود وتجد شيئًا واحدا تحبه على الأقل ينتظرها. ولكنني لم أتمكن من وصف أشكالها لهم من المرة الوحيدة التي رأيتها فيها. كل ما تذكرته هو أنه كان فيها الأبيض والأسود، وكان لبعضها خطوط. لم نجد أي أثر لها، ولكننا وجدنا قطا رماديا ميتا صدمته سيارة، ولم يكن ملك أي أحد من سكان الشارع. ربما كان واحدا من قططها. كنا في ذلك الوقت مترقبين بخوف شديد، ما لا محالة واقع. وأصبح فناء بيت العجوز يعج بالناس من جديد، وكانت الدائرة تكبر باستمرار وهم يأتون حاملين كراس صغيرة ومقاعد، للتحدث عن مشاكلها بكل جدية. بدا وأن شوتو أصبحت القائدة، وصار الناس يحضرون لها القطط المشردة التي عثروا عليها، لتقرر هي ما إذا كانت قطط إيمرنس أو لا. وكانت أديلكا مساعدتها المتحمسة، رغم أنها لم تر تلك القطط قط. وكان الكائن الوحيد الذي رفض أن تطأ قدمه فناء العجوز هو فايولا. كان في وسعه أن يشم الرائحة غير المألوفة، والعدائية التي تحملها، وأبغضها.

اكتسب في ذلك الوقت عادة جديدة استمرت عدة أشهر. ولكنها لحسن الحظ لم تودي به إلى فاجعة، والفضل في ذلك يعود إلى حضرة المقدم. فقد بعث برسالة تحمل معلوماته الشخصية لكل مراكز الشرطة في المدينة ومكاتب البلدية ومطاردي الكلاب، وأخبرهم أن كلبا ضالا يجيب على الاسم فايولا، كان يخرج ويتجول في الشوارع بحثًا عن صاحبته، وطلب منهم أن يأتوا به إلى بيتي. بدأ فايولا بعد عودتنا بوقت قصير من أثينا بفعل

ذلك والتغيب لأيام طويلة باحثا في الحي، والغابات عن إيمرنس. عاد في مرة من المرات إلي وكان ينبح بحماسة وجنون، راغبًا بإطلاعي على أمر ما. ركض قاطعا شارعين، وأخذني إلى سياج بيت ما. ونظر بعد ذلك في عيني وهو يشعر بالذنب، فالشيء الذي أخرجني من أجله كان قد اختفى، ولكنه رآه بكل تأكيد. كنت أعرف لم دعاني. لا بد وأنه وجد قطا من قطط العجوز. لم يفر القط منه لأنه يعرفه، ولكنه اختفى بعد أتى فايولا ليدعوني. شككنا لاحقًا في أمر جثة قط عثر عليها بالقرب من النساء في السوق. كان قطا أبيضا وأسودا، وتعلو صدره نجمة، هاجمه كلب بوحشية وقتله. كانت نهاية كهذه منطقية بالنسبة لي، ذلك لأن إيمرنس ربت قططها على أن لا تخشى من عدوها اللدود، أو تعتقد بأن كلبا سيؤذيها. اختفت بقية القطط بعد ذلك، ولم نجد لها أثرًا، وكأنها لم تكن في بيتها يومًا.

توقفت عن الذهاب إلى المشفى في تلك الفترة. لم يكن لدي الوقت للقيام بذلك، ولم أشعر بجدوى هذه الزيارات. حاولت بالبداية أن أهرب من مخاوفي وهمومي، ولكنني لم أستطع. وكنت سأسعد لو كان في وسعي الكتابة، ولكنني وكما قلت سابقا، أحتاج إلى حالة الصفاء لأكتب. هناك العديد من الأمور التي أحتاجها، مثل بواعث الكتابة والهدوء والسلام الداخلي والحماسة الحلوة المرة التي نختبرها حينها، ولكنني كنت أفتقدها جميعها. لم يكن بقاء إيمرنس على قيد الحياة حتى ذلك الوقت يمنحني الراحة والسلام حين أفكر بها. ما كنت أشعر به هو الضياع وقلة الحيلة، وخجل ملح لا ينقضي.

هرعت أديلكا مرة إلي لتدعوني إلى فناء إيمرنس. كان الجيران هناك، وحان وقت مناقشة الأمر من جديد.

بدأت شوتو تتحدث في صلب الموضوع مباشرة، وسألتني ما الذي أتوقع

حدوثه الآن؟ وما الذي ستفعله إيمرنس إذا ما استعادت قوتها، وعادت إلى بيتها؟ قلتُ لها بأن ما سيحدث هو ما اتفقنا عليه. لا يمكنها أن تعاود العمل أول الأمر، وستقضي فترة التعافي المتبقية في بيتنا. كانت يدا إيمرنس تعملان بشكل سليم وعقلها أيضًا، ولم يبق لها سوى أن تعاود المشي دون مساعدة من أحد. ولكن الأطباء كانوا مطمئنين لوضعها، ويتوقعون تعافيها بشكل كامل مع مرور الوقت. كنت صامدة أمامهم مثل ممثل سيء، انحدر أداؤه أكثر في مسرحية فاشلة. أوقفتني شوتو عن الكلام بتلويحة من يدها، وبدأت تتحدث بنبرة تكاد تكون بشوشة، وكأنها تحاول إقناعي بالعكس:

-ولكنها كما تعلمين جيدا، لن تقوى على العمل من جديد، ولا مجال لتعافيها كليا. انتهى أمر إيمرنس يا عزيزتي الكاتبة، حتى لو كان ذلك بعد عام من الآن، وهذا البيت كما تدركين، يعود لمن يشرف على البناية. لا بد من وجود أحد ليهتم بشؤونها وشؤون المستأجرين. يجب تنظيف المدخل والدرج. يحتاج هذا المكان إلى مسؤول جديد، ولا يمكن أن يتشارك المستأجرون المهام حتى يوم القيامة. لا يمكن أن يستمر هذا الوضع، حتى لو كان العمل بسيطا بالنسبة لهم، وكأن إيمرنس لم تقم يومًا بما يفوق استطاعة الجميع من أعمال.

غضبت زوجة عامل الإصلاحات وصرخت فيها كما لو قامت شوتو بالإساءة لها شخصيا، وقالت:

-لا يمكنكِ أن تتحدثي بهذا الشكل!

وأعلنت باسم كل سكان البناية أنهم لن يتخلوا عن العجوز أبدًا. وأكدت لشوتو بأنهم سيتابعون تشارك المهام، وينتظرونها حتى تتحسن صحتها، مهما طال الأمر. كان الجميع يؤدي واجبه، وسيستمرون في فعل ذلك. وتساءلت كيف تفكر شوتو بهذه الطريقة، وأكدت مرة أخرى بأنهم لن يلقوا بالعجوز

في الشارع.

-من قال أنها ستلقى في الشارع؟

تحدثت شوتو، وهي ترمق زوجة عامل الإصلاحات. كانت كإحدى آلهة المصير الثلاث. وتحدثت بكل بواقعية. للتو أدرك أنها الوحيدة بيننا التي كانت تدرس كل الاحتمالات الممكنة، والوحيدة التي كانت شجاعة كفاية لأن تواجهها.

-لن يكون هناك داع لأن تعيش في الشارع. يمكن لحضرة المقدم أن يساعدها، وتوضع في دار رعاية للمسنين، أو إحدى المساكن الجيدة لهم. ويمكن لابن أخيها أن يأخذها لبيته ويرعاها، أو السيدة الكاتبة إذا كانت تعني حقًا ما تقوله. ويجب أن تقضى شؤون البناية، ويزاح الثلج لا من هنا وحسب، بل ومن البيوت الآخرى كما ينص العقد الذي وقعت عليه العجوز. إن السيدة الكاتبة بلا خادمة تساعدها، وإن لم تستطع تدبير أمور بيتها الخاصة، فكيف لها أن تقوم بالمزيد من الأعمال هنا؟

ساد الصمت. ومن ثم بدأ الجميع بالتحدث في الوقت ذاته. كان الوضع أشبه ما يكون بما يفعله أفراد الطائفة الخمسينية البروتستانتية وهم يتحدثون بألسنة مختلفة وكلمات غير مفهومة في يوم العنصرة، ولم يفهم أحد منا ما قاله الآخر. كنت أنا أول من تكلم وقلت بأن إيمرنس يمكنها بكل تأكيد أن تعيش معنا، وعلى أحد أن يتولى أمر البيوت. ستكون العجوز سعيدة بيننا، فهي تحبنا. انفجرت شوتو ضاحكة ضحكة لا تشي بحسن نيتها.

-استيقظي مما أنتِ فيه هيا. أتظنين حقًا بأنها سترضى بالبقاء لديكم؟ ستعيش إيمرنس طالما صدقت أن بيتها موجود. ألا يتوجب عليك التفكير فيما سيحل بها إذا ما اكتشفت الحقيقة؟ لم تسمع بها بعد. يسعدني أن أراكم

تتقاسمون العمل بينكم هكذا، ولكن هل سألتموها ما إذا كانت لا تمانع دعمكم هذا؟ حسنا، سوف تستضيفها السيدة الكاتبة، وستتكفل بكل مصاريفها، ولكن هل هذا هو الحل الذي سترضى به العجوز؟ هل ترغب بأن يقوم أي أحد برعايتها؟ هل وافقت على كل هذا؟

كانت أديلكا تبكي بصوت مسموع، وتمسح عينيها، فيما لزم البقية الصمت. كنتُ أنا أعمقهم صمتا. كنت قلقة بشان ما نطقت به شوتو منذ البداية.

-ما الذي تفعلينه حقًا؟ إنكِ تعرفينها جيد. لن ترضى بالجلوس لدى أي أحد، وفي أي مكان. يجب أن تنتبهي لما قد تفعله بعد أن تعود إلى بيتها وتكتشف ما حدث. إنها قوية كفاية؛ لو كنت مكانك لأخفيت الفأس. كانت ستقتل رجال الإسعاف في ذلك اليوم. وستركض خلفنا جميعا حال عودتها، ستحاول قتل السيدة الكاتبة أو الطبيب أو حضرة المقدم ومن سمح لهم بإشعال النار في أثاثها. لا تريد إيمرنس أي حياة؛ لا تريد سوى حياتها التي لم تعد تملكها.

انتهى الاجتماع، والجميع مكتئب. كانت أديلكا منزعجة حد أنها عجزت عن الاعتراض على ما قالته شوتو. وأما الأخيرة فقد غادرت، وغادرت أنا أيضًا. غادرنا دونما وجهة أمامنا. وأبقت زوجة السيد برودارتش بقية المستأجرين، وبمساعدة زوجة عامل الإصلاحات، كتبت خطة للقيام بمهام إيمرنس على ورقة مسطرة. بقيتُ طيلة ذلك اليوم منزعجة وشديدة الحساسية، وحُرمت النوم مثل شخص فزع من تغير غير متوقع للأسوأ. ولكنني كنت قد توقعت حدوث المتاعب، سواء كانت متاعب جديدة أو تطورات سيئة لما حدث مسبقا. وبعد أسبوع واحد من كل هذا، هاتفني السيد برودارتش والذي اختاره المستأجرون ليكون المسؤول في غياب

إيمرنس، مدفوعا بقلقه وانزعاجه وأخبرني أن شوتو اتصلت به وأعلنت أنه إذا ما أتى دورها، وأراد المستأجرون ذلك، فإنها ستكون سعيدة جدًا بالتخلي عن كشكها وإعادة الرخصة للمجلس البلدي، وتولي منصب إيمرنس، والقيام بكل المهام المنوطة به. اتصل بي ليسألني ما رأي بكل هذا، وما هو قراري.

لطالما فكرت في ما حدث في بستان جثسيماني في القدس من زاوية المسيح وحسب، ولكنني الآن وللمرة الأولى، أفكر فيما شعر به يحيى المعمداني أو القديس فيلبس عندما علما أن الرجل الذي رافقهما في رحلتهما، وأدركا قواه أكثر من غيرهم وهم يرون ابنة جايروس تستيقظ من الموت، واستمدا قوى عصية على الفهم منه، يتعرض للخيانة هكذا. سألني السيد برودارتش من جديد ما رأيي في كلام شوتو، ولم يكن لدي ما أقوله. كانت فعلتها مخجلة حقًا. وضعت سماعة الهاتف وأنا أفكر كيف تجرأت على طلب الوظيفة. كيف تجرأت شوتو التي كانت معدمة ولا أمل لها في حياة كريمة، حتى أتت إيمرنس وبمساعدة حضرة المقدم، وجلبت لها كشك الخضروات والفواكه. كيف لشوتو أن تفعل هذا بالمرأة التي أطعمتها، وقدمت لها الملابس حينما لم تملك شيئًا. أصبح كل شيء ممكنا. لم أكن غاضبة حينها وحسب، بل بدأ الهلع يسري في. رفض السيد برودارتش عرضها في الوقت الحالي، ولكن إن عادت إيمرنس وظهر أنه لم يعد بوسعها العمل، فسيضطر المستأجرون حينها للتصرف حيال الأمر. لا يمكن أن يقوموا بعملها عنها حتى آخر حياتها. فقد كان معظمهم مسنون أو منشغلون بالعديد من الأعمال والوظائف الإضافية، وليس في الإمكان الاتصال بأحد منهم في أي وقت تستدعي الحاجة لإزاحة الثلج مثلا أو التعامل مع أنبوب ماء مكسور، أو تسلم طرد ما من ساعي البريد أو تنظيف المداخن. بالإضافة إلى أن السلطات لن تبحث عن المستأجر

الذي يكون مسؤولا في ذلك الوقت، في كل مرة يستدعى الأمر ذلك. إما أن تستعيد إيمرنس قوتها، وتؤدي جميع مهامها، أو أن تخرج من البيت وتسكن معنا ربما، ذلك أن تركها العمل يعني خروجها من هناك. ماذا سأفعل معها يا إلهي إذا لم تكن قادرة على المشي أو الغسيل أو الطبخ أو الخروج إلى السوق وزيارة المرضى وهي تحمل زبديتها تلك؟ ماذا سأفعل يا إلهي؟

أخبروني وأنا في المشفى في اليوم التالي أن رئيس الأطباء يود رؤيتي. كنت أعلم ما سيقوله لي. ذكرتني شخصيته بشخصية بعض النقاد الذين يلعبون بالقواعد غير المكتوبة للصنعة، ويرمون للكاتب مديحا مبهما ليتلقفه ويعضه مثل كلب عجوز، ومن ثم يردونه قتيلا. بوجه مشرق، بدأ هذا الطبيب يشيد بإفراط ويثني على قدرة إيمرنس العظيمة على التحسن، وقوتها التي مكنتها بعد موجة الاكتئاب الأولية تلك من أن تصارع للبقاء، والتقدم الإيجابي لوضعها، وكيلوغرامات العضلات التي اكتسبتها. هل كنت أعلم بأمر الماء الأبيض الذي بدأ يتكون في عينيها؟ لا؟ لا مشكلة فإنه مجرد دليل على التقدم في العمر، ولم يزعجها الأمر لأنها لم تكن تقرأ، ولن يمنعها هذا من مشاهدة التلفاز. كنتُ أنتظر رصاصته، وفعلًا أطلقها.

-أود أن تخبريها شيئًا فشيئًا أن موعد خروجها من المشفى وعودتها إلى البيت قد اقترب. لا شك في أن هذا ما تريده الآن. إنها تتحدث عن بيتها، وتحن إلى حديقتها كثيرًا، وتقول أنها فوتت بداية الصيف الذي هو الفصل المفضل بالنسبة لها. أعلم أن الحقيقة أبقيت سرًا عنها، وهذا كان قرارًا حكيما منكم. ما كانت للتحسن لو عرفت كل شيء من البداية، ولكنها استعادت قوتها الآن، وأظن شخصيا بأنها تستطيع مواجه الحقيقة. هلا تفضلتِ وطلبتِ من حضرة المقدم أن ينهي تجهيز بيتها سريعا؟ فقد قررنا أن الوقت قد حان الوقت لأن تعود.

-لا، ليس الآن. لا يمكن أن نقوم بشيء كهذا بعد. لم نتخذ القرار حول مستقبلها حتى الآن. وحال بيتها كما هو منذ انتهى فريق إزالة التلوث من عملهم. لم ننته من أي شيء حتى الآن؛ يجب أن ندرس الأمر أكثر. لا يمكن أن نقوم بما تطلبه. إنه مستحيل.

-على العكس تماما؛ لا يستدعي الأمر كل هذا التفكير والوقت. سوف أبقيها في المشفى لأسبوع واحد فقط، ويمكنك خلاله أن تجهزي كل شيء. ويجب أن تضعي في الحسبان، أنها ستحتاج إلى المساعدة في كل شيء. وبالنسبة للمشي، فإنها لن تستطيع القيام بذلك خلال الفترة القادمة، وربما حتى آخر عمرها. ولكننا سنوفر لها مساعدة حكومية، وتحدثنا في هذا الشأن مع المجلس البلدي. سيتوجب عليك التنسيق مع أحدهم، لكي يوفر لها ما تحتاج من السوق ويطبخ لها، لأنها لن تستطيع مغادرة السرير. ولا تنسي أمر المبولة أيضًا. ستأتي ممرضة لكي تعطيها الحقن التي تحتاجها، وتحممها وتغير لها ملاءات سريرها. وإن لم يكن بوسعك ترتيب الأمر مع عائلتها وأصدقائها، فبوسع حضرة المقدم أن يجد لها مكانا مناسبا. ولكن نؤمن من كل الحب الذي رأينا الجميع يغدقه عليها، أن أحدهم بلا شك سيرحب بها في بيته.

وكأن المتحدث كان شوتو، وليس الطبيب؛ إنها القناعة ذاتها.

-ولكن ماذا سيحدث أيها الطبيب إذا لم ترد أن تعيش مع أي أحد منا؟

أدركتُ وبمجرد خروج هذه الكلمات من فمي، الهراء الذي تفهوت به: لا تريد، لا ترغب، لن توافق، قد تعترض. كيف لها أن تفعل هذا؟ يعلم الجميع أن كل شيء في حياتها منذ تلك اللحظة سيحدث لها دون قدرة منها على الاعتراض؛ لا شيء سيعتمد عليها هي سوى الموت.

نظر الطبيب إلي بطيبة، وكأنه لم يسمع تعليقي الأحمق الأخير. وقف وأمسك بيدي.

-أؤكد لكِ أننا حزينون ولا نود أن تغادرنا. يحبها الجميع هنا، وأحبها أنا أيضًا. إن بنيتها معجزة طبية مقارنة بمن هم في مثل عمرها، والأمر ذاته ينطبق على عقلها. إنها حالة غير اعتيادية، ولكن لا يمكنني أن أترك أحد يحتاج الرعاية أكثر منها دون سرير. ويؤسفني أن أقول بأنها على الأرجح ستبقى مشلولة هكذا لبقية حياتها. لا يمكننا أن نبقيها لدينا حتى تموت. صدقيني لقد قدمنا لها أكثر بكثير مما نقدمه عادة لأي مريض. وهناك أمر أخر أهم من كل هذا.

انتظرت الرصاصة الثانية منه. سقطت العظمة الأولى الشهية من فمي، ولكنني لا أزال حية. وما سمعته بعد ذلك كان حقًا أهم شيء.

-لا تجعلي رجال الإسعاف يأخذوها إلى غرفة لم ترها من قبل، مطلية للتو وبأثاث جديد، ومن ثم تنقلينها لمكان آخر لأنها لا تستطيع البقاء وحدها. إنها قوية بما يكفي لاحتمال الحقيقة. أخبريها بكل شيء، بالفأس وفريق إزالة التلوث، ولا تخفي عليها أي تفصيل صغير. يجب أن تفعلي هذا هنا، حيث يمكنني أن أعالجها. لا تدعيها تعود إلى البيت وتتقصى أثاثها القديم وقططها. لقد ناقشت هذا الأمر مسبقا مع جيرانها، وأخبروني بأنكِ أقرب واحدة منها، وأنك أفضل من يخبرها بأمر كهذا. كما أنكِ أنت من خطط لكل هذا، وأنتِ الشخص الذي يجب أن تشكره إيمرنس. لو لم تدفعيها لفتح بابها، لكانت ماتت بعد ذلك بيومين.

لا شك، ستشكرني على هذه الحياة التي أنقذناها من أجلها، وعلى القطط الضائعة أو الميتة التي خففت عنها وحدتها، والأثاث الذي كانت تقدره والتهمته النار، المهام التي يقوم بها المستأجرون بكل حب ولكنهم سيتوقفون

بعد حين. لن تدخل إيمرنس أي بيت حتى لو تسبب رفضها هذا في قتلها. لن يرضيها سوى بيتها. ولكن أين سنجد بيتها الآن؟ لن تسعد بالبقاء معنا. إنها تحتاج إلى أغراضها الخاصة بها. وكيف لي أن أدخل حياتنا شخصا طريح الفراش ويحتاج إلى رعاية دائمة؟ وبما أن هذا الخيار هو الخيار الوحيد، متى سأجد الوقت لأحضر لها المبولة في الفراش، وأحممها وأطبخ من أجلها و أقلبها حتى لا تصاب بقرحة الفراش؟ لن تأتي الممرضة كل يوم؛ ماذا سأفعل بشأنها لو توجب علي أن أسافر؟ وماذا سيفعل زوجي؟ هل ستأتي لتسكن معنا إن طلبت منها؟ أعلم يقينا من أنها سترفض الفكرة، ولكن أين ستذهب حينها؟ لا مكان لها عند غيرنا. لن يستقبلها ابن أخيها، وحضرة المقدم تزوج الآن للمرة الثانية. لا خيار آخر أمامها. يجب أن تعيش معنا.

غادرت المشفى وأنا أفكر فيما سأفعله إن رفضت دعوتي لها. غادرت دون أن أزورها، وهرعت من أجل أن أناقش الأمر مع زوجي. كنت أستطيع أن أرى أن هناك أمرًا ما يجري أمام بيت إيمرنس. كان الناس يحيطون بشاحنة بضائع موقفة في الشارع. ذهبت لأرى ما كان يحدث، ووجدتهم يطلون جدران مطبخها، ويجددون شرفتها الأمامية. وكانوا قد أزالوا الألواح المؤقتة من الباب ووضعوا محلها الباب الجديد. وأما النساء فقد كن منشغلات بالتنظيف والفرك، وهن مجموعة من المدانات اللاتي أحضرهن حضرة المقدم من المركز. كان العمل يجري على قدم وساق في بيتها. ذهبت إلى منزلي لأستخدم الهاتف. لم يفهم حضرة المقدم ما كان يزعجني، فقد ركب الباب الجديد، وطلي المطبخ وعادت الأرضية نظيفة كما كانت، وسيصل الأثاث خلال أيام. تساءل ما الذي يزعجني بعد كل هذا، ولم يغمرني هذا اليأس.

ما هي المشكلة! ألم يستطع أحد أن يدركها؟ أخبرته بخيانة شوتو، الأمر

الذي أربكه قليلا، ولكنه أكد لي وأصر أن القانون سيحمي إيمرنس. لا يمكن لهم أن يطردوها من بيتها، ولا يمكنهم حتى أن يدفعوها إلى الخروج منه، ذلك أن أمر عجزها الدائم مجرد توقع. وعلى أية حال، يجب على السكان أن ينتظروا عامين، فهذه هي المدة الممنوحة قانونيا كإجازة من العمل للمرضى. قد يحدث الكثير خلال هذه المدة الطويلة، قد تتحسن حالتها، وقد تموت. وحتى انقضاء ذلك الوقت، سيتوجب على سكان الشارع أن يتأقلموا على الوضع، وسيحرص شخصيا على وجود ممرضة لها. ما الذي يقلقني الآن؟ كل شيء تحت السيطرة. تجاوزنا الفترة الحرجة، وللجميع الحق في أن يمرض ويرتاح. كان ما يطلبه مني هو أن أكمل ما قد بدأت. لقد بقيت العجوز على قيد الحياة لأنها منحتني ثقتها العمياء، وصدقت كل كذبات الجيران الرائعة. ولكن لا داعي لكل تلك الكذبات الآن. يجب أن أتوج إنجازي، وأطعم الأخبار السيئة بالجيدة، وأوضح لها أن ما فُقد، اتخذ شكلا جديدا، وأن بيتها الجديد هو نفسه بيتها القديم، وهو في انتظارها لتعود.

لم يفهم ما كنت أقصده أيضًا، أو ربما لم يستطع؛ كنا نتعامل بعملات مختلفة. كانت أبرز المصطلحات التي ضمها قاموس إيمرنس هي القذارات والفضيحة وموضع سخرية الناس في الشارع والخزي. بينما كانت مصطلحات حضرة المقدم تشتمل على القانون والنظام والحلول والوحدة والتدابير الفعالة. كان كلا الكتابين صحيحين، ولكن مكتوبين بلغتين مختلفتين. هل يمكنه الآن على الأقل أن يتفضل ويوضح للعجوز ما حدث فعلًا؟ لم أكن بينهم عندما وقع ما وقع، وذهبت إلى التلفاز. كانت تعلم جيدا من بقي، ومن غادر.

-لا أخشى القيام بذلك. إن إيمرنس امرأة عاقل، وتقللين من شأنها إن كنتِ خائفة من إخبارها أنك أنقذتها لا لأجل هزيمة لا رجاء منها، بل من

أجل هذه النهاية السعيدة الغريبة. سوف أخبرها بكل شيء في الظهيرة. لا تقولي شيئًا لشوتو، لا داعي حتى لأن تحييها. سوف أخبر إيمرنس بخيانتها لها لا تقلقي. سوف يدفعها هذا الأمر أكثر من أي دواء في العالم. سيدفعها غضبها لأن تقف على قدميها من جديد. ما ستواجهه شوتو، إذا ما تجرأت وقابلت إيمرنس، سيكون أمرًا مختلفًا. سوف أتولى الأمر، ولكن يجب أن أقول بأنكِ خيبتِ ظني فيكِ. لحسن حظنا أنكِ صمدتي حتى تلك هذه المرحلة الأخيرة.

النهاية

لقد تحملت من قبل ساعات شبيهة بساعات الظهيرة تلك. لقد عشت التوتر ذاته في اليوم الذي دخل فيه زوجي غرفة العمليات، وفي الليلة التي سبقت دفن والديّ. استلقيت على السرير الذي استلقت عليه أمي، بالقرب من فايولا الذي كان في عالم آخر. وفي حوالي الساعة السادسة، أتتني أديلكا قلقة تخبرني بأنها ذهبت إلى المشفى، ولكنهم لم يسمحوا لها برؤية إيمرنس. لم تكن لديها أية فكرة عما كان يجري حينها. كانت اللوحة التي تمنع دخول الزوار إلى غرفة إيمرنس، قد علقت على الباب. وعندما تكلمت أديلكا مع الممرضة، وطلبت منها أن توصل الحساء للعجوز، رفضت وطلبت أن تأخذه معها. لا ترغب إيمرنس في أي شيء، ولا تود استقبال أي زائر في الوقت الراهن. وأخبرتني أديلكا أن زوجة عامل الإصلاحات لم تستطع زيارتها أيضًا، وعادت بالكيس الممتلئ الذي كانت تحمله. ضُرب الفأس إذن؛ حان موعد ذهابي إليها. استجمعت قواي وخرجت لأجد شوتو، مدفوعة بأخلاقيات عمل غريزية، تكنس كشخص ضائع في حلم. لم يبد على وجهها أي أثر للشعور بالذنب عندما رأتني، بل كان ظاهرًا عليها أنها كانت سارحة بأفكارها. ربما سمعت من أديلكا عن حظر الزيارة الجديد، وراحت تتساءل ما إذا كان ما حدث سيساعدها في الوصول إلى هدفها، أو يعيقها، مثلما صار عندما قدمت عرضها للسكان على فناء بيت العجوز.

قابلت وأنا في الطريق إلى المشفى، جارتين عائدتين تحملان وعائيهما.

كانت النساء قلقات على إيمرنس، وخشين أن حالتها قد ساءت. كان لون السماء قد استحال رماديا داكنا، والرياح باردة شديدة عصفت بأوراق الشجر. ربما كان جو كهذا سيؤثر عليها، ولذا قرر الفريق الطبي أن يعزلها لبعض الوقت. لم يحرسوها هكذا وهي في أضعف حالاتها وتكاد تموت. يجب أن أذهب إليهن، ليخبرنني بالحقيقة.

توجهت إلى الغرفة، وأزلت لوحة منع الزيارة تلك. رأتني الممرضة، وهزت رأسها؛ لا شك في أنها تلقت تعليمات ما. دخلت وأنا أفكر في أن حضرة المقدم كان محقًا فيما قاله. لقد أقحمت نفسي في حياتها، والآن وقد خشيت أن أنزع المقص الحاسم من يد الإلاهة المصير أتروبس، يجب علي على الأقل أن أتحلى ببعض الشجاعة وأرى ما حدث في معمل القدر ذاك. كانت إيمرنس مستلقية وظهرها للباب. لم تلتفت حين دخلت، ولكنها لا شك ميزت وقع خطواتي مثلما كان يميزها فايولا. الفرق الوحيد الواضح عن اليوم السابق، هو أنها وضعت المنشفة من جديد على وجهها.

بقينا صامتتين. لم يمر علي من قبل هيئة أكثر غموضا وهدوءا من هيئتها تلك الظهيرة، والظلام يخيم والأغصان تضرب زجاج النافذة. جلست إلى جانبها وفي يدي لوحة حظر الزيارة.

-كم قط بقي؟

سألتني أخيرًا من خلف حجابها، بصوت غريب غرابة وجهها المخفي.

جاوبتها بكل صدق، ذلك أن أي شيء تعرفه الآن لن يغير من الأمر شيئًا. قلت لها:

-لم يبق أي قط يا إيمرنس. نعتقد أن ثلاثة منهم قد ماتوا، والبقية مفقودين.

-تابعوا البحث، ستجدون البقية مختبئين في حديقة ما.

-سوف نفعل بكل تأكيد.

صمت ثقيل، لم يفر منه سوى صوت الأغصان وهي تتصارع مع زجاج النافذة.

-لقد كذبتِ علي. قلتِ بأنك نظفتي كل شيء بنفسك.

-لم يكن في وسعي فعل أي شيء يا إيمرنس. كان فريق إزالة التلوث قد قاموا بالعمل كله.

-وتركتهم يفعلوا ذلك؟

-لا يمكنني أن أعترض على أمر رسمي، ولم يكن في وسع حضرة المقدم أن يعترض أيضًا. لقد كان الوضع مأساويا .. كارثيا.

-مأساوي! لقد ذهبتِ إلى البرلمان في ذلك اليوم أو اليوم الذي بعد!

-حتى لو كنت في بيتي، لم أكن لأغير شيئًا حتى لو ضايقتهم وأصررت. لقد أخبرتكِ، كان الأمر مرتبطا بأنظمة وتدابير تتعلق بالصحة العامة. لا يمكنني أن أعترض على أمر كهذا.

-لم تكوني في بيتكِ، أين كنتِ؟

-في أثينا يا إيمرنس. كان هناك مؤتمر ما. لقد نسيتِ أمره ولكننا تحدثنا عنه منذ مدة في البيت. كنا مبعوثين، وتوجب علينا الذهاب.

-لقد ذهبت وأنتِ لا تعلمين ما إذا كنت سأموت أو أعيش؟

لم يكن لدي جواب: بقيت أراقب قطرات المطر وهي تنزلق على زجاج النافذة. كان هذا ما حدث؛ لقد ذهبت إلى أثينا.

رفعت المنشفة فجأة عن وجهها، وحملقت في. كانت باهتة كالشمع.

-من أي البشر أنتِ؟ وحضرة المقدم؟ الوحيد الشريف بينكم هو صاحب السعادة؛ لم يكذب علي على الأقل.

لم يكن لدي ما أجيبه بها. صحيح أن زوجي لم يكذب عليها، ولكن حضرة المقدم أيضًا كان من أنبل الرجال الذي قابلتهم في حياتي. وأما أنا فهكذا كنت. وما فعلته كان أنني ذهبت إلى أثينا. وكنت لأذهب لأثينا حتى لو كان والدي يقبع في المشفى في حالة حرجة، وذلك لأن وزارة الخارجية اليونانية ستفسر الأمر بشكل معين، لو تخلف المبعوث الهنغاري. وتسميتي مبعوثا بعد استلامي الجائزة، هي لفتة لا يمكن أن أتجاهلها من الدولة لأنني كاتبة ولا حياة خاصة لدي، ولأن الأمور تحدث لي مثلما تحدث مع الممثلين. لدي دور يجب أن ألعبه، حتى لو كانت هناك مشاكل في بيتي.

قالت لي بهدوء:

-اخرجي من هنا. لم تشتري بيتا قط، رغم أنني طلبت منك ذلك، وكان لدي الكثير من الكنوز التي كنت سأعطيكِ إياها لتضعيها فيه. ولم تنجبي الأطفال رغم أنني وعدتك أنني سأربيهم وأرعاهم معكِ. علقي اللوحة على الباب. لا أريد أن أرى أي شخص كان قد شهد خزيي. لو كنتِ تركتيني لأموت كما قررت عندما أدركت أنني لن أكون قادرة أبدًا على مزاولة أي عمل حقيقي، لكانت روحي تحرسكِ. ولكنني الآن لا أطيق رؤيتك بالقرب مني. اذهبي.

أمنتْ إذن بحياة آخرى بعد الموت، وكان كل ما تقوله هو إغاظة للكاهن ولنا فحسب.

-افعلي ما يحلو لكِ من الآن فصاعدا. إنك لا تعرفين ما يعنيه الحب،

رغم أنني آمنت يومًا بأنكِ ستفعلين. تنقذينني من أجل هذا؟ من أجل ما بقي من فتات؟ ليس هذا وحسب بل وتريدين أن أعيش معكم وتقومين على رعايتي؟ كم أنتِ غبية!

-إيمرنس!

-اخرجي هيا. اخرجي واذهبي إلى التلفاز وألقي خطابا. اذهبي واكتبي رواية، أو سافري إلى أثينا. إياكم أن يقترب أحد منكم مني لو أعادوني إلى بيتي. لقد تركت لي أديلكا مقصها، ولن أتردد في استعماله ضد أي منكم. لم تكترثين إلى هذا الحد بمصيري؟ هناك العديد من بيوت الرعاية. هذا أفضل بلد في العالم، ولدي الحق في حال مرضي أن أقضي سنتين كإجازة مرضية. هذا ما أخبرني به صديقك. هيا اذهبي. لدي الكثير لأقوم به.

-ولكن يا إيمرنس معنا ....

-معكم؟ وأنتِ ربة منزل، وتقومين على رعايتي؟ وماذا عن صاحب السعادة؟ اذهبي إلى الجحيم! ليس هناك من شخص عاقل في بيتك غير فايولا.

كان عشائها إلى جانبها، كما أحضرته الممرضة لم تمسه. كادت حركة جسدها وهي غاضبة أن تسقط الصحن، ولكنني لم أجرؤ على الاقتراب. أمنت فعلًا أنها ستطعنني بالمقص إذا ما فعلت. كانت في ذلك الوقت قد استلقت على ظهرها، وبدأت تحملق في السقف. لم أودعها وأنا أخرج. عدت إلى البيت مسرعة وأنا أتساءل، ما الذي كان يتوجب علي أنه أقوله لها ولم أقله. ولكن لم يكن هناكِ غير ما قلت.

سكنتُ بعد ساعة من عودتي وهدأت أعصابي. أعتقد بأنني كنت قد هيأت نفسي لا شعوريا لمواجهة أسوأ بكثير. ولكن لم يدم وهم السلام هذا

طويلا، وعادت كل مخاوفي تقفز بسبب زوجي. كان يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يقول بأنه غير مرتاح لضبط النفس هذا والهدوء من قبل إيمرنس. لم يكن هذا أسلوبها الذي عهدناه. كان أي إنفجار وغضب عارم أكثر منطقية منها ومتماشيا مع شخصيتها. وحين حاولت أن أحلل حالتها العقلية، لم أعط الفرصة الكافية، وقاطعني فايولا فجأة. فقد الكلب عقله تماما، وجن جنونه. كان ينبح عاليا، ويحك السجادات ويدفعها حتى تكومت فوق بعضها، ورمى بنفسه على الأرض وسال من فمه الزبد. كان يتصرف وكأن روحه تنزع. هاتفت الطبيب البيطري، وطلبت منه أن يحضر فورًا، وحضر على الحال كما فعل في ليلة عيد الميلاد التي وجدنا الكلب فيها. كان فايولا يحبه حبا جما، ويستعرض مهاراته أمامه بعد أن يعطيه الطبيب حقنته. ولكنه بقي طريحا لم يقف حتى عندما حضر الطبيب.

جلس الرجل على الأرض وبدأ يحادثه، وأصابعه النحيلة الدقيقة تمر على كل جزء من جسد فايولا، كما لو كان يعزف مقطوعة على البيانو. ومن ثم وقف ونفض الغبار عن بنطاله، وهز كتفيه حائرًا؛ لم يكن هناك أي علة جسدية ألمت بفايولا. وقال أن ما ألم به هو صدمة ما؛ لا بد وأن أمرًا فظيعا قد أخل بنظامه العصبي. وحاول أن يأمره عدة أوامر، ولكن الكلب لم يطعه ولم يحرك عضلة واحدة. لم يجلس ولم يمش. وعندما حاول الطبيب أن يرفعه ليمشي كان يقع على جنبه وكأنه مشلول. غادرنا الطبيب بعد أن اتفقنا على أن يأتي في اليوم التالي ليفصحه مرة آخرى. وأمرني أن أعطيه في تلك الليلة جرعة من الجلوكوز وجرعة بسيطة من مهدئ ما. لم يكن لديه أية فكرة عما حل بالكلب، ولن يستطيع أن يخبرني بأي شيء حتى لو وبخته وصرخت في وجهه. وهكذا دون خيار آخر، غادر.

جلست على طاولة العشاء، وفايولا بالقرب لم يتحرك. طلبت منه أن

يثبت لي حبه، ولكنه لم يرفع رأسه لينظر إلي حتى. وظل طريحا على الأرض مثل سجادة قديمة. ودون سابق إنذار، بدأ ينبح بصوت يفوق خيال بشر، لأتسمر في مكاني من الفزع. لم أجرؤ على الاقتراب منه، وأيقنت حينها من أنه جُن بلا شك، وقد يفتك بي. لم تكن لدي رغبة في إدراك ما كان ذلك الصوت يخبرني به، حتى وزوجي الهادئ العقلاني يجلس معي في المطبخ. نظر زوجي إلى ساعته، وقال بهدوء: الثامنة والربع. لأكرر خلفه: الثامنة والربع، وكأن مجنونا كان يتحدث بصوتي، ويعلن الساعة. الثامنة والربع. الثامنة والربع. أتى زوجي وهو يحمل معطف المطر الخاص بي بعد أن أعلنت الوقت عاليا للمرة الثالثة، وتوقفتُ عن الكلام. شعرتُ فجأة وكأنني في حلم، ولا شيء مما يحدث حولي حقيقي. كنت أردد الوقت مثل ببغاء. ما الذي حل بي؟ هل جننت؟ ولكنني كنت أكذب علي نفسي وكأن حياتي اعتمدت على هذا، لأتحاشى الإقرار بما أعلنه فايولا. ولكنه كان يعلم، مثلما علم زوجي. كان الكلب أول واحد يدرك الأول، وأخبرنا بما حدث. كان يبكي مثل طفل صغير.

كان ممر المشفى يعج بالأطباء، وكان صوت رئيسة الممرضات، وهي تتحدث على الهاتف يسمع من خارج مكتبها. رفض الطبيب بنفاذ صبر إجابة أي أسئلة عندما رآنا، ليطلعنا فورًا على ما حدث. استلقت إيمرنس بعد أن خرجتُ من المشفى صامتة، تجذب غطاء رأسها وترفض الإجابة على أي شيء يقال لها. ولم يكن هذا جديدا عليهم؛ لقد مرت أوقات وضحت فيها العجوز أنها لا تريد أن يزعجها أحد. وبعد الثامنة بقليل، وعندما دخلت الممرضة لتطفئ مصابيح الغرفة، طلبت منهم إيمرنس أن يسمحوا بانصرافها حالا من المشفى في تلك الليلة. قالت بأنه يتوجب عليها أن تبحث في منازل الحي وفي الحدائق التي تنتظرها فيها قططها الحبيبة؛ لم يكن هناك

أي شخص يبحث عنهم أو يطعمهم. شرحوا لها لم يستحيل أن تخرج في تلك الساعة. قالوا لها أن الوقت متاخر ولا يمكنهم أن يمنحوها إذن مغادرة المستشفى، لمغادرة الموظف المسؤول، ولم يكن هناك سرير لتنام عليه بعد في بيتها. انقلب سلوكها فجأة ليصبح فظا ومستبدا، وقالت لهم بصوتِ عال أنه لا حاجة لنقلها، فهي الآن قوية بما يكفي للتغلب على لعنة عجزها. أخبرتهم بأنه يجب عليها أن تذهب حالًا، ولا يمكنها البقاء؛ ليس لديها خيار آخر. وحاولت بعد ذلك أن تغادر، رامية نفسها من فوق السرير. لم يكن في وسعها بالطبع المشي ولا الوقوف. وهي تصطدم بالأرض، وربما وهي لا تزال تقع، أصابتها جلطة آخرى تسبب بها حديث حضرة المقدم معها، ولقائي الذي تبع ذلك بها، ولم تشل عقلها، بل قلبها. لم أكن لأتخيل هذا، ولكنني وفي تلك اللحظة السريالية وهم يخبرونني بما أخبرني به فايولا، أدركتُ شيئًا جديدا كنت قد سرقته من إيمرنس. سرقت منها آخر ما كانت تملك، وما كانت ستكون فخورة به حقًا. سرقت الإجلال الذي استحقته لموت كريم. لم يعرها أي أحد من الطاقم الطبي الاهتمام بعد ذلك، رغم أنهم أعادوها إلى السرير. انهرت في اللحظة التي رأيتها فيها، ووقعت على الأرض ليهرع الطاقم كله إلي. لقد استغرق الأمر منهم بعض الوقت لأستعيد وعيي. و لم يسمحوا لي بالمغادرة، وأبقوني في المشفى لأسبوع كامل. وأصبح الجميع في ذلك الوقت يحضر لي زبديات الطعام تلك، بعد أن غادرت العجوز بأسطورية اهتمام الجميع. وضعوني في غرفة فيها تلفاز وهاتف، واهتموا بي اهتمامًا شديدا، وحاولوا التخفيف عني. لقد غمرتُ نفسي بالشعاع الدافئ لعطفهم هذا، مثل البطل المجري ميكلوش المُكرّم، وهو يتكئ على المجرفة الخفية، فوق قبر خادمه بينسي الذي قتله، بعد أن استلم رسالة العفو العظيمة من الملك لاغوش. مثله، أستلقي وعند قدمي جثة خادمتي الميتة، وفوق رأسي غيوم رقيقة متفرقة تحمل أسطورة الأساطير. كان زوجي يزورني كل ليلة، ولكن

بعد الساعة التاسعة، عندما يكون متيقنا من عدم رؤيته أي زائر لدي. كان الجميع يأتون إلي تعلوا وجوههم ابتسامة تشجيع ودعم، ما عدا زوجي الذي لم تختفي من وجهه معالم الشفقة والحزن العظيم.

الميراث

أفكر في كثير من الأحيان كيف انتهى الأمر بكل بساطة. لم تحمل إيمرنس أقاربها ولا أصدقاءها أية أعباء، أو مشاكل لا يمكن حلها. وأنهت بنفسها مثل قائد عظيم وبحركة واحدة مذهلة كل شيء. إذا لم يكن هناك من شيء يفعل من أجلها، أو شيء هي تقوم به، فلا خيار آخر أمامها سوى الموت. لقد قطع البشر شوطا طويلا، ولن يتمكن أولئك الذين في المستقبل من تخيل الأيام البربرية الأولى للإنسان حين تصارع أحدنا مع الآخر، مجموعات وأفراد، على ما هو أهم بقليل من كوب قهوة. ولن يكون ممكنا لهم أيضًا أن يخففوا من قدر المرأة التي لم يكن لها مكان في حياة أي أحد. إذا ما افتقدنا للشجاعة التي نحتاجها للاقرار بهذا الأمر، فإنها أقرت به، وغادرت دون إزعاج. وحتى الدوائر الحكومية التي لم تكن تملك أية وثائق لها، وموظفيها الغارقين في أعمال لا تنتهي، أنهوا الإجراءات سريعا، وكأنها أمرتهم بأن لا يعقدوا الأمر. كان سجل المستأجرين قد احترق مع أريكة الحب وغيره من المستندات الملوثة، ولكن تمكن حضرة المقدم من ترتيب أمور دفنها دون الحاجة لأية ورقة. ولم يجد المشفى وفاة عجوز تجاوز عمرها الثمانين أمرًا غريبا أو يثير الشك، ودونتْ كل التواريخ على عجالة من أجل جلسة إثبات صحة الوصية، ومراسم تحويل جثمانها إلى رماد. وكان هذا الدفن دفنا مبدئيا، وذلك لأن مثواها الأخير والمدفن العظيم الذي نصت عليه وصيتها لم يبن بعد. أراني ابن أخيها الفواتير الخاصة بكل هذا، وطلب مني أن أتحدث مع

الكاهن حول مراسم الدفن. لم أوافق على الأمر فورًا؛ لم أكن أرغب في القيام بذلك. وددت لو أفعل شيئًا واحدًا على الأقل يتماشى مع رغبات إيمرنس. كنت أعلم يقينا أنها لم ترد يومًا مراسم دفن دينية. ولكن خشي ابن أخيها من ذم الناس في الحي له، وانتقادهم لعدم قيامه بما هو صواب. قررنا أن لا نكتب نعيا لها، ونعلن فقط عن موعد الدفن في الصحيفة. وأما أقاربها الذين يعيشون في تشابدول فقد بعث لهم ابن أخيها رسالة يخبرهم بموتها. قدموا له تعازيهم، وأعربوا عن أسفهم لعدم قدرتهم على حضور المراسم بأنفسهم وتوديعها، لالتزامهم بأعمال ومواعيد مهمة. كما استحسنوا ترك العجوز كل ما تملكه من مال لابن أخيها لا لهم، ذلك لأنهم لم يروها منذ زمن بعيد، ولم يقدموا لها أي مال قط، ولم تكن هي لتطلبه منهم. وأخبروه بأنهم لن يعترضوا بل سيكونون ممتنين له، إذا ما أراد أن يعيد الموتى من نادوري.

كنا نكتب في قائمة ما تبقى من مهام يجب إنجازها، وذلك على بلاط محكمتها السابقة، عند مدخل مدينتها المحرمة. وكان فايولا مستلقيا على الأرض بالقرب من أقدامنا، غير مبال على الإطلاق بما يحدث حوله. أصبح في وسعي حينها أن أحضره إلى أرض العجوز دونما شعور بتأنيب الضمير أو قلق. كان يتصرف كما لو أنه لم يقض يومًا قط في ذلك المكان. كان زوجي ولثلاثة أيام متتالية، يسمعه يبكي حتى انقطع صوته تماما، وسقط في صمت عميق. ومن ثم قرر بعد ذلك أن يتوقف عن التمدد على الأرض مثل سجادة بالية، ونهض وهز جسده كما لو كان يطرح عنه شيئًا، ونظر إلى زوجي نظرة من استيقظ للتو من حلم ما. ومنذ ذلك اليوم لم يصدر منه صوت؛ لم ينبح ليلفت انتباهنا لأي شيء أبدًا. وكف عن التعبير عن فرحه العارم لأمر أو اعتراضه الكامل عليه. وكان أقصى ما قد يصدر منه هو زمجرة على الطبيب البيطري إن كان مريضا. وحتى آخر يوم في حياته، لم ينبح ولا لمرة واحدة.

كان حضرة المقدم قد رتب الأمر لتجرى جلسة إثبات صحة الوصية، ومراسم الدفن في اليوم ذاته. فذهبت أنا وابن أخيها والمقدم في الساعة التاسعة صباحا إلى المجلس البلدي. لم يكن هناك من حاجة لجرد البيت بشكل شخصي من قبل المسؤولين، فقد قدم لهم حضرة المقدم سجلات دائرة الصحة، وأوضح لهم أنه لا يزال في البيت غرفة صغيرة لم يجرد ما فيها، وأنها وفقا لما رآه منذ سنوات بعيدة تحتوي على قطع أثاث جميلة وعتيقة ولا شيء غيرها. أخبرهم أن العجوز امتلكت كل ما يمكن أن يحتاجه أي منزل، ولكن جزءا كبيرا من المطبخ دمر بسبب ما كان قد حدث، ويمكن لهم لو رغبوا في ذلك أن يذهبوا ويروا المكان بأنفسهم. إلا أنهم اكتفوا بما قال ولم يطلبوا ذلك. وأخبرهم ابن أخيها أنها كانت تدعمه ماديا خلال حياتها، وأن الأمتعة الشخصية الخاصة بها يجب أن تكون من نصيبي.

انتهت هذه الجلسة بعد عشر دقائق فقط. طلبت مني الشابة التي أدارت الجلسة وهي تبتسم أن أخبرها بعد ذلك ما إذا كانت العجوز تجمع قطعا ثمينة، لأن قطعا كهذه عليها ضرائب يجب أن تدفع، ووعدتها أن أفعل. كانت الإجراءات سريعة وودية، وقدموا لنا بعض القهوة. كنا جميعا نرتدي ملابس سوداء، حتى حضرة المقدم كان يرتدي الزي الأسود الذي يرتديه عادة لاستقبال كبار الشخصيات في الدولة. واستقلينا سيارته لنذهب إلى مقبرة فاركشرت. أخبرنا ابن أخيها أن بيت إيمرنس الحقيقي ومثواها سوف يقوم كاملا في عيد القديس ستيفن الموافق للعشرين من شهر آب. في ذلك الوقت، سيكون استخراج أفراد عائلتها من مقبرة نادوري قد انتهى، وسوف يستقبلنا من جديد في الخامس والعشرين من الشهر ذاته في المدفن الجديد من أجل وضع الجرة التي تحمل رماد إيمرنس في مأواها الأخير.

احتشدت جموع المعزين فاكتست الساحة الذي وضعت فيها الجرة

السواد. لم أر الأمر بنفسي، ولكن أخبروني أن كل شخص لديه محل أو كشك في الحي كان قد أغلقه في ذلك اليوم من أجل المراسم، بمن فيهم الإسكافي والمرأة التي تطرز الأوشحة وبائع المشروبات والخياط والمداوي وصانع الكعك وطبيب الأقدام وبائع الفراء وبالطبع شوتو. وعلق كل واحد فيهم على باب محله لوحة تحمل المعنى ذاته ولكن بصياغات مختلفة. كتب بعضهم: مغلق حتى الثانية لأسباب عائلية. وكتب آخرون: مغلق لحضور جنازة. وأما لوحة الإسكافي فكانت مقتضبة ومعبرة. كتب عليها: إيمرنس. كنا نسمع صوت الموسيقى الحزينة وهي تنساب من بعيد. كانت الجرة محاطة بما لا يحصى من باقات الورد الصغيرة، ولكنني لم أقو على النظر إليها. أخذ كل من حضرة المقدم وابن أخيها بيدي وأجلسوني في المقاعد الخاصة بعائلتها. وكنت أخشى حينها أن لا يحضر الكاهن، بعد أن قضيت نصف ساعة فظيعة معه في نقاش طويل حول الأمر. كان حوارنا يكاد يكون اقتباسًا من حوارات أباء الكنيسة الأوائل، ويمكن أن ينشر في صحيفة لاهوتية، ولكن الفرق الوحيد هو أننا كنا نناقش مشكلة حديثة. كان موقف الكاهن من طلبي هو التالي: كيف يمكن لواحدة أعلنت مرارًا وتكرارًا أنها أدارت ظهرها للجنة، ولم تزر بيت الرب قط، وأثارت وبشكل منهجي ومتعمد غضب أولئك المؤمنين بتعليقاتها أن تطلب قيام الكنيسة بمراسم دفنها؟ وعندما حاولت أن أجعله يفهم طبيعة شخصية إيمرنس، نظر إلي ببرود وقال بأنه توجب عليه أن يآخذ بعين الاعتبار ما يراه الرب وما تراه الكنيسة حول هذه الخدمة الكنسية المطلوبة من إنسانة لم تمارس أي معتقدات دينية، ووقفت في وجه الجماعة المتدينة، وعاشت حياة غريبة، ولم تشترك بقداس قط. قلت له:

-لم تطلب هي أية مراسم دفن من الكنيسة، بل أنا من طلب ذلك، وكل شخص يكن لها الود. إنه الفعل اللائق تعبيرًا عن احترامنا لها وإجلالها. ربما

أساءت للكنيسة كمؤسسة، ولكنها أظهرت خيرا وطيبة تفوق ما يحمله معظم المسيحيين المتدينين. وعندما كان فايولا يخطئ، كانت تضع بالحسبان دائما أنه ليس إنسانا يفهم، ولم تعاقبه للأبد. كيف يمكن للإله بعد كل هذا أن يحكم عليها هذا، ويتجاهل كل أفعالها الخيرة هذه؟ صحيح أن هذه المرأة لم تمارس المسيحية في الكنيسة من الساعة التاسعة وحتى العاشرة صباح كل أحد، ولكنها عاشت طوال حياتها وفي ذلك الحي، بحب خالص ونقي للإنسانية التي تتمثل في ديننا.

لا تفسير لدي سوى أنه لم يدرك هذا الأمر لعماه، رغم أنه كان يراها تدور في الحي بتلك الزبدية. لم يبد الكاهن حديث الخدمة تقريبًا والمطلع موافقته أو رفضه للأمر. كل ما فعله هو أنه سألني عن موعد الجنازة، ورافقني إلى الباب بكل لطف و لا تعاطف. فهمت من وقفته الأخيرة أسفه على عدم إعطاء العجوز أي فرصة له للتعرف عليها بشكل أفضل.

تأثرت كثيرًا وأنا أرى الكاهن يظهر بعباءته في المقبرة. وكانت الكلمة التي ألقاها ذكية ومبنية على منطق لا تشوبه شائبة. أقر وثمن فيها ما يخلفه الأشخاص الذين يعملون بأيديهم من أثر كبير، ولكنه في نفس الوقت حذر الجمع من الاهتمام بلقمة العيش وحسب، ومن الاعتقاد بأن الدين ما هو إلا مسألة شخصية بين الناس والإله، أو أن يمارس الدين والمعتقدات بشكل منفصل عن الكنيسة الأم. بكلماته الباردة والمؤثرة في نفس الوقت، أودع الكاهن العجوز مثواها الأخير. لقد خلت كلماته من أي مشاعر، فكان من المستحيل أن تتخيل إيمرنس من خلالها. شعرت وأنا أستمع إليه بخدر غريب مثل الذي نشعر به بعد الكلوروفورم، لا الألم الأولي المشتت الذي نشعر به عادة، عندما نرى شخصا نحبه يتحول إلى رماد في وعاء، ويُتوقع منا أن نؤمن أنه لا يزال الشخص نفسه الذي ابتسم لنا يومًا.

كان جمع المعزين كبير إلى درجة قد يُظن معها أن لدى إيمرنس اثني عشر ابنا، وأنجب كل واحد منهم العدد نفسه من الأبناء، وأنها عملت في مكان يضم العديد من الأشخاص مثل المصانع. لقد كان الطريق الرئيسي والشوارع الجانبية تغص بتابعيها. وقف بعضهم إلى جانب الكاهن يبحثون في كلمات تأبينه الصادقة العزاء لهم، وقف آخرون بعيدا وكانوا محظوظين بقدرتهم على البكاء والنحيب دون مضايقة أحد. قطعنا طريقنا ببطء نحو المدفن الذي وضعت فيه إلى جانب جرة رماد إيمرنس باقة ورد قطفتها من حديقتنا. رتل الكاهن الصلاة الأخيرة، ومن ثم أغلقوا الفتحة التي وضعت فيها الجرة في الجدار نهائيا. كانت شوتو تغص بدموعها، وأديلكا تنظر إليها. كانت عينيها مسمرة على شوتو، ولم تنظر إلى إيمرنس التي بداخل الجرة قط.

لا ننهار مباشرة إذا ما طعن أحدهم قلبنا بسكين حادة، ولم ننهار فورًا في يوم فقدنا لإيمرنس. لم ندرك حينها ما فقدنا، ولم نكن لندرك حقيقة ذلك إلا في وقت لاحق. لم نكن لننهار حينها، وهي موجودة بيننا، حتى لو كانت مجرد رماد في جرة. سوف يحدث هذا عندما نعود إلى الشارع الذي لن تكنسه أبدًا، أو في الحديقة التي ستبكي عليها القطط الجريحة والكلاب المشردة دون توقف، ولا أحد سيرمي لهم الطعام كما السابق. أخذت إيمرنس معها جزءا من حياتنا. كان حضرة المقدم متماسكا حتى آخر المراسم، وكأنه حارس الشرف المعين في ذلك اليوم. وأما ابن أخيها وزوجته فقد كانا يذرفان الدموع بتأثر شديد، على العكس مني. لا أستطيع أن أبكي في مكان يراني فيه الناس، ولم أشعر أن ذلك الوقت هو الوقت المناسب للبكاء. سوف تهطل الدموع لاحقًا، عندما يشق الأمر.

بقي معظم المشيعين حتى بعد انتهاء المراسم. أصبحت أديلكا منذ وفاة إيمرنس أكثر حدة وجزما، وكأن شخصية العجوز القوية والمقيدة كانت

تبقيها في الخلف. كانت أديلكا تتنقل بين الجميع، وهي تنظم اللقاء بعد الدفن وتدعوهم لاحتساء الشاي والجعة، واستمرت هي والحشد من حولها يقفون ويتبادلون الأحاديث. على العكس من شوتو التي كانت معزولة وغادرت سريعا. كان الجميع قد وضعها في القائمة السوداء بعد أن تقدمت للقيام بمهام إيمرنس.

حان موعد عودتنا إلى البيت، فسأل حضرة المقدم ابن أخيها ما إذا أراد أن يكون حاضرًا حين يفتح لي باب الغرفة الثانية في بيت عمته. لقد كان فريقه سيحضر ليفتح الباب في الظهيرة، وسيفرغ البيت من كل شيء، وسيقوم بالتأكد من الجرد الذي وعد به دائرة الصحة. ولكن ابن أخيها كان يفضل الذهاب مباشرة إلى بيته، خاصة وأن هذا الجزء من وصية إيمرنس لا يخصه. طلب منا أن نعيد مفتاح البيت إلى المسؤول باسم المستأجرين، وأن أخذ كل ما أراه مناسبا، وأهب ما لا أريد منه. كانت رغبة زوجته في مرافقتنا جلية؛ كانت تود أن ترى على الأقل ما سأرث ولكنه نهرها على فضوليتها هذه. وقال بأنه لو كان هناك ما يصلح لهم، لكانت إيمرنس حرصت على منحهم إياه. وأضاف أخيرًا بأن العجوز منحتهم ما يكفيهم، ومن ثم غادروا بسيارتهم. وأما نحن فاستقلينا سيارة حضرة المقدم، الذي كان قد أحضرنا إلى المدفن، وتوجهنا حال وصولنا إلى بيت إيمرنس. كان الشارع خاليا من أي شخص. لقد قرأت ما خططت له أديلكا جيدا. لقد جمعت الجميع ونظمت غداء ما بعد الجنازة في مكان قريب من المقبرة.

كان الفأس لا يزال في الشرفة الأمامية، موضوعا في الزاوية. تناوله حضرة المقدم وراح يزيل الألواح عن الأبواب. سألني ما إذا كنت أود أن يدخل معي، وطلبت ذلك. كانت إيمرنس مخلوقا خياليا، وقد يكون ما ينتظرني في الغرفة أي شيء. لم يكن هناك كاهن حينها ليزيل عني توتري

بكلمات منطقية.

-ما الذي تخشينه؟ لقد أحبتك إيمرنس؛ لا يمكن أن يواجهك أي أمر سيئ منها. دخلت الغرفة الصغيرة مرة، ولم أجد سوى الأثاث المغطى. لديها طقم كامل بالداخل ومرآة ثمينة. هيا دعينا ندخل.

دخلنا الغرفة الصغيرة سوية. كان الظلام فيها دامسا، ولم نر شيئًا. إنها الدرف المغلقة بلا شك. بدأ حضرة المقدم يتلمس الجدران. كانت رائحة الخانقة للمعقمات قد تسللت إلى الغرفة التي الرب وحده يعلم متى آخر مرة فتحت نوافذها، وبدأنا نسعل. عثر أخيرًا على مفتاح المصابيح، وبمجرد أن أضاءها أخرجني إلى الغرفة الآخرى التي تم الانتهاء من تجهيزها. دفعني خارجا لأنه رآني وأنا أقاوم الغثيان، وكأن الغاز قد سممني. ولم يسمح بعودتي إليها إلى بعد أن فتح كل النوافذ. ولكنني كنت قد رأيت ما يكفي من إرث إيمرنس.

لا يمكن أن يرى مثل الذي رأيت إلا في الأفلام السينمائية، وحتى في الأفلام، قد تعجز العين عن تصديقه. كان الغبار الكثيف يغطي الأثاث، وشبكات العناكب تمسك بالوجه والشعر مع كل خطوة. لو كانت غطت أثاثها يومًا ما، فإن تلك الأغطية قد أزيلت منذ المرة الأخيرة التي دخل فيها أفراد الشرطة الغرفة ليفتشوا بيتها. وقفت في وسط أجمل غرفة دخلتها في حياتي، وبدأت أمرر يدي على مقعد من المقاعد المذهبة على الطراز الركوكوي. كنت أقف وسط صالون من أواخر القرن الثامن عشر، ومتحف ثمين، بل ووسط مخزن كنوز حرفي يلبي طلبات الطبقة المخملية. ملكت للبيت الذي لم أملكه بعد، طاولة مطعمة بالخزف، وأريكة صغيرة بقواعد نحيلة نحالة أقدام القطط الصغيرة. ارتفعت غيمة من الغبار وأنا أضرب بيدي وسادته، ومن ثم وقعت على الأرض. تسببت تلك الضربة في تمزق القماش. وكانت

هناك مرآة كبيرة مرتفعة تكاد تصل السقف، ووقف على خزانة ما تمثالين صغيرين خزفيين، وبينهما كان الشيء الوحيد الحي في كل تلك الغرفة، ساعة توضح الأيام ومواضع القمر وطواف الأجرام السماوية. كانت الساعة لا تزال تعمل، وحين اقتربت منها لأزيح عنها الغبار أوقفني حضرة المقدم.

-لا تلمسي شيئًا. من الخطر تحريك أي شيء الآن. لقد اختفت الأغطية، وماتت قطع الأثاث. كل شيء هنا ميت ما عدا الساعة. دعيني أنزلها.

أردت أن أخذ التمثالين بيدي، وأن أنظر داخل أدارج الخزانة، فلم أستمع له. أمسكت بمقبض الدرج، ولكنني لم أتمكن من فتحه. فكرت في أنه يتوجب علي أن أجد الطريقة السرية والحركة التي لا يعرفها سوى أصحاب هذه الخزانة لفتحها. ولكن ما حدث بعد ذلك كان مفاجئًا. شعرت وكأنني أقف في عالم من عوالم كافكا، أو داخل فيلم رعب. انهارت الخزانة، لا بشكل سريع ومرعب بل بهدوء وشيئًا فشيئًا واستحالت نهرًا من نشارة الخشب، ووقعت الساعة والتمثالان معها. سقط كل شيء واستحالا غبارًا.

قال حضرة المقدم:

-إنه سوس الخشب. لن يكون في وسعكِ أخذ أي شيء من هنا. لقد تدمر كل شيء. لم تفتح إيمرنس باب هذه الغرفة منذ ذلك اليوم الذي فتشتها فيها. كانت هذه هديتها لإنقاذ ابنة عائلة غروسمان. كان هذا الأثاث يساوي ثروة طائلة، ولكن ها هو خرب الآن، انظري.

ضغط بباطن كفه على المقعد فانهار. أعلم أن هذا ربطا غير معقول للأفكار، ولكن احتشدت في مخيلتي صور من معركة هورتوباجي. انهارت المقاعد، وتمزق المخمل وتفكك من الإطارات الخشبية، وانقلب الخشب

بودرة أمام عيني، وكأن خليطا كيميائيا كان يبقيها كما هي حتى اللحظة التي يراها فيها إنسان. تذكرت وأنا أرى أغطية المقاعد الممزقة تلك ما رأيته وأنا صغيرة، والألمان يقتلون قطيعا من الغنم برشاشاتهم.

-لا يوجد هنا ما يمكنك أخذه. سوف أطلب من فريقي إزالة كل شيء. تهشم التمثالين ولكن هل لا زلتي ترغبين في أخذ الساعة؟ إنها لا تزال تدق.

لم أرغب في أخذ الساعة، وبقيت في مكانها على الأرض. لم أرد أخذ أي شيء، ولم أنظر إلى ما بداخل تلك الغرفة من جديد. خرجت من بيت إيمرنس، وأنا لا أزال عاجزة عن البكاء. خرج حضرة المقدم، ولم يكلف نفسه إغلاق الباب من خلفه. أخبرتني أديلكا بعد ذلك أن فريق التنظيف قد حضر، ولم يجد لا التمثالين ولا الساعة في الغرفة. لم يكن هناك سوى الأثاث المتهالك، ولكنني لم أكن لأكترث.

الحل

عدت إلى منزلي لأجد فايولا البارد الخالي من أي مشاعر، وكأنه لم يكن يكترث لكل ما يجري حوله. خرجنا سوية لنمشي، ومررنا من بوابة بيت إيمرنس لأقابل إحدى قاطني البناية التي تعمل فيها وهي تكنس الممر، فتبادلنا تحية دافئة. ورأيت شوتو أيضًا وهي تقعد قبالة كشكها، غير مستاءة على الإطلاق ولا حزينة لأن لا أحد كان يشتري منها. حيتني بأدب بينما هي تأكل من فواكهها. كان الشارع هادئا جداً، وعدد قليل من الناس يتابعون التلفاز. وقررت وأنا أمشي دون هدى، أن أمر بالكاهن لأدفع له المال مقابل أدائه مراسم الدفن. لم أجد أحدا في المكتب، ولكنني عثرت عليه في الحديقة يقرأ كتابا ما، وناولته المال فأخذه. رفض قبول شكري وامتناني له على ما قام به بفظاظة، قائلا بأنه كان يؤدي واجبه. كانت علاقتي به في تلك الفترة أعمق من السابق. نظر إلي وبدا كمن يلاحظ لتوه أمرًا كان يغفل عنه طوال اليوم وقال:

-لم يشغل العديد من الناس التلفاز اليوم.

-إنهم في حالة حداد. هناك العديد من الريفيين هنا في بست، وهذا الصمت هو عرف بيننا حين يموت أحد. تمامًا مثل يوم الجمعة العظيمة حين لا يكون لائقا أن نستمع إلى الموسيقى.

-ولكن لم يكن لديها سوى قريب واحد، ولا يسكن هنا. من هم هؤلاء

الذين في حالة حداد عليها؟

-الجميع.. كاثوليكيين ويهود .. كان الجميع مدين لها بأمر ما.

لم أتخيل أنه سيقوم بأمر كهذا، ولكنه رافقني حتى زاوية شارعنا، التي كان يستطيع منها أن يرى بيت إيمرنس. كانت المهندسة تكنس الشارع بصمت. نظر الكاهن إلي من جديد، ولكن لم تكن لديه هذه المرة أية أسئلة.

ذهبت إلى الكنيسة كعادتي في الأحد التالي، ولم يحدث أن كان الحضور بهذا العديد الكبير. حضر أناس لم يحضروا في حياتهم قط. حضر الخضرواتي إيلمير والذي لم يكن يتلفظ بشيء سوى الإساءة للكنيسة والرب مرتديا حلة سوداء، وإلى جانبه الطبيب البروتستانتي والبروفسور الكاثوليكي والعامل اليهودي في محل الغسيل، وبائع الفرو المسيحي التوحيدي. كان قداس ذلك اليوم قداسًا جمع الطوائف كلها، وكنت سأشعر بندم كبير لو فوته. كان الوحيد الذي تخلف عن الحضور على غير عادته عامل الإصلاحات. كانت مهمة الكنس في ذلك اليوم من نصيبه، ولذا لم يتمكن من الحضور. كان الكاهن ينظر إلي و هو يضع رقاقة خبز القربان في فمي، ورغم أنه كان علي أن أسمر عيني على الأصابع الثلاثة التي تمثل الثالوث، وجدت نفسي أنظر إليه، ليدرك أنني كنت أعبر عن امتناني له وتقديري على ما قام به في جنازة إيمرنس.

بالإضافة إلى عامل الإصلاحات، فقد كانت شوتو أيضًا الشخص الآخر الذي تخلف عن حضور القداس. قفلنا عائدين بعد انتهاء مراسم العبادة إلى البيت، موقنين بخلونا من أي ذنب، وشعرنا، رغم أننا لم نتحدث عن الأمر بأننا أفضل من شوتو. ها هم لا يحتاجون لها؛ كان أهل الشارع متحدين، وقام المستأجرون بالاعتماد على أنفسهم والقيام بكل شيء. حتى أنا توليت أمر المكنسة مرة ولكنني كنت سيئة جدًا إلى درجة دفعت أديلكا لأخذها

مني، لأتسلل خجلا من عدم إحساني أي شيء. كانت شوتو الوحيدة التي لم تتقاسم معنا أي مهام، ولم نعد نراها كما السابق. كانت قد أغلقت كشكها، ولم أعرف حتى الآن كيف تدبرت أمرها دونه خلال تلك الفترة. كنت أشعر أنها بقيت في منزلها تنتظر أمرًا ما، ولكن لم يكن هناك ما يؤكد لي ما إذا بقيت في بيتها أو غادرت. كان الفصل فصل الصيف، ولم يخرج أي دخان نار من مدخنتها الصغيرة. واتضح ما كانت تنتظره لاحقًا.

وصلتني الأخبار من صديق فايولا القديم عامل الإصلاحات. قال وهو يمسح على أذني فايولا خجلا أنه يحمل رسالة من السيد برودارتش. أخبرني أن سكان البناية لم يتمكنوا من تولي أمرها دون إيمرنس. كان في وسعهم التأقلم مع الوضع طالما كان الجو معقولا، ولكن حين يحل الخريف وتبدأ الأوراق بالتساقط، ستصعب عليهم المهمة. ومن بين جميع السكان كان عدد الشباب القادرين قليل، وهم الذين كانوا يكنسون من الفجر حتى الغروب.

قاطعته قائلة:

-لا داعي لأن تقول المزيد. يود السيد برودارتش أن يخبرني أنه من الصعب للبناية أن تستمر دون متعهد متفرغ، وبالتالي فإنهم سيضطرون لتوظيف أحد ما أليس كذلك؟ هل أعلنتم عن الوظيفة؟

-لا لم نفعل.

جاوبني ونظر بعيدا بجفنين يرتعشان من التوتر. قفز فايولا فجأة بعيدا عني. لم ألحق به أي أذى، ولكنني كدت أن أخنقه دون إدراك مني بأصابعي المشدودة.

أردف عامل الإصلاحات قائلا:

-إننا نعرفها منذ زمن طويل. إنها نظيفة ومتزنة ومتفانية في العمل ولا

تشرب الخمر وهي كبيرة على ملاحقة الرجال. عندما قدمت شوتو عرضها كان الوقت مبكر على قبوله، وكنا لا نزال متضايقين لحال إيمرنس. ولكن هدأت أعصابنا الآن وبدأنا نفكر في الأمر. وقررنا أخيرًا أن نوافق.

رددت عليه بمرارة:

-قبلتهم بشوتو؟

-لا ليست شوتو بل أديلكا، وطلب مني السيد برودارتش أن أخبرك حتى لا تتفاجئين بالأمر.

ولكن ما من شيء كان ليفاجئني في ذلك الوقت. وقفت على شرفتي بعد أن خرج عامل الإصلاحات. كان فناء إيمرنس ظاهرًا لي، فرأيت أديلكا تجلس على الطاولة هناك. كانت قد رتبتها بالشكل الذي كانت تحبه العجوز، وكانت منحنية على وعاء تزيل القشرة عن خضار ما، ولم تكن تجلس وحدها، بل رافقتها زوجة الاسكافي. لم يكن هناك أحد يراني، وشعرت أخيرًا برغبة في البكاء. لم يكن في وسع زوجي مواساتي، رغم أن عينيه لم تفض بشيء غير التعاطف.

-لا يمكن لبيتنا أن يقوم دون إيمرنس، ولا الناس في الشارع أيضًا. أديلكا ليست بالسيئة، وبالفعل نحن جميعا نعرفها جيدا. لقد نجحت عندما تريثت في تقديم طلبها، عكس شوتو. ما الذي يضايقكِ الآن؟ لا يمكن أن يكون بكاؤك من أجل إيمرنس. فالميتون يفوزون دائما، والأحياء هم من يخسرون.

-إنني أبكي من أجلنا؛ جميعا خائنون.

-لسنا خائنون، بل لدينا الكثير من المهام والأشغال التي يجب أن تنجز.

وقف بعد ذلك، ونهض معه فايولا واقترب منه ومسح رأسه بركبتي

زوجي. كان زوجي قد أخذ مكان إيمرنس بالنسبة له، لا أنا. هكذا هي معجزات إيمرنس، دائما مائلة لا تستقيم.

-إنكِ تضايقين نفسك، وتعجزين عن الكتابة من جديد. إنك متأخرة جدًا في ما يتوجب عليكِ كتابته. لم لست بالقرب من الآلة الكاتبة حتى الآن؟

-لا أستطيع الكتابة. إنني متعبة ومكتئبة وأكره الجميع وأكره أديلكا.

-إنكِ متعبة لأنكِ تطبخين وتنظفين وتجلبين من السوق ما يحتاجه البيت. لم تتمكني من العثور على أي شخص تستطيعين احتمال فكرة وجوده بالقرب منك، وذلك لأنك تبحثين عن شخص لن تجديه أبدًا. لقد رحلت إيمرنس إلى الأبد. يجب أن تسلمي بالأمر. لديك أعمال يجب تسليمها، يجب أن تعملي من جديد. ولو لم تكوني متعبة من البيت لكنت اتخذتي الخطوة اللازمة منذ زمن. يدرك جميع من حولنا هذا الأمر، ولكن وحدكِ من لم يقتنع. هيا ابدئي الآن. لقد أوصل سكان البناية رسالتهم لك بطريقة غير مباشرة.

أغلقت أذني حتى لا أسمع ما كان يقوله. انتظرني حتى هدأت قليلا، ومن ثم نزع رباط فايولا عن رقبته.

-حضر عامل الإصلاحات لأن الجميع هنا يحبونكِ، وأرادوكِ أن تقومي بما قررتِه أنتِ سابقًا، ولكنكِ لم تملكي الشجاعة الكافية للاعتراف به. كم من الوقت ستقضينه وأنت مترددة هكذا؟ إنه أمر لا معنى له. كنتِ قد علمت إيمرنس أنه لا شيء يقف نظيرًا لفعل الخلق؛ لم إذن قد تشعرين بالخجل من الشخص الذي سيأتي بعدها؟ سوف تدرك الأمر أيضًا.

كان فايولا مستسلماً وأنا أعيد القيد حول رقبته. لم يبد أي سعادة أو اعتراض. كان مستعداً للذهاب.

-اخرجي بالكلب، وامشي قليلاًقبل أن تذهبي لها وتتفقي معها قبل أن

يسبقك الآخرون.

-لن أتفق مع أديلكا على أي عمل. لا أريدها هنا. لم تكن إيمرنس تحبها كثيرًا، بل شعرت بالأسف عليها.

-من الذي يتحدث عن أديلكا؟ إنها عاطفية حتى الغثيان وغبية وحمقاء. تحدثي مع شوتو. لقد تولت أمر البيت وفايولا، وأدت كل المهام ببراعة عندما كنا في أثينا. إنها امرأة صريحة وشجاعة وعقلانية. إنها حازمة في كل شيء، وحينما يأتي الأمر للعمل فهي مثلك تمامًا صارمة.

-إيمرنس

نطقت باسمها بصوت قوي لا يشبه صوتي.. صوت يكاد يجزم أنني لن أتمكن من ذكر هذا الاسم عالياً من جديد أمام أي أحد.

-إيمرنس ماتت، وشوتو حية. إنها لا تحبك ولا تحب أي شخص آخر. إنها غير قادرة على الحب ولكن فيها من الصفات ما يعوض عن هذا الأمر. سوف تساعدك إذا ما بينتي لها الاحترام طوال حياتك، لأنه لا يمكن لك أن تشكلي تهديداً لها. ليس لديها أية أسرار، ولا أبواب مغلقة ولا أغانٍ تغريها بفتح بابها لكِ أو لغيرك.

الباب

هو حلم واحد يتكرر، بكل تفاصيله دونما تغيير. رؤيا واحدة ما تنفك تزورني. في هذه الرؤيا الثابتة، أجدني أقف في مدخل بيتنا عند بداية الدرج، قبالة زجاج نافذة الباب الخارجي الذي لا يمكن أن ينكسر بإطاره الحديدي. أحاول جاهدة فتح قفل الباب. في الخارج، أرى سيارة إسعاف. من خلال الزجاج الغائم، يمكنني أن أتبينَ أجساد المسعفين، أجساد بأحجام غير معقولة، بوجوه منتفخة تحيط بها هالة تشبه هالة البدر.

أتمكن من إدارة مفتاح القفل..

ولكن لا جدوى من ذلك.

ماجدا سابو

الباب

في روايتها، تستقصي ماجدا سابو حيل البقاء، والسبيل للعثور على صوت في الصمت، والطريقة التي تطرد الأصالة فيها الزيف مع كل فرصة تسنح، لا بعيداً عن الفن والثقافة وحسب، بل وعن حياة عيشت حق العيش وانتهت حق النهاية.

ألي سميث

رواية غريبة للغاية ومؤثرة على حد سواء، وحكاية خيالية كئيبة عن العلاقة التي تجمع بين كاتبة هنغارية اسمها ماجدا وخادمتها العجوز الكتومة إيمرنس.

جون ويليامز

بإمساكك كتاباً لسابو تكون قد أمسكت بالسمكة الذهبية، سمكة الحظ .إشتر كل رواياتها .تلك التي كتبتها، وتلك التي ستكتبها.

هيرمان هيسه





صورة الغلاف : عادل الحربي
تصميم الغلاف : هاني صالح